المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
اللجنة العامة للقرآن والسنة

القرآن والطبائع النفسية

تأليف .. فضيلة الشيخ
على محمد حسن العمارى

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

الكتاب الثانى
١٣٨٦ - ١٩٦٦

المقدمة

الحمد لله الذى فطر الانسان على الخير ، وحبب اليه الحق ، وأوضح له معالم الطريق .

والصلاة والسلام على رسوله محمد الذى تخلق بأخلاق القرآن ، واهتدى بنور الفطرة ، وكان من أفضل الجهاد ــ فى شريعته ــ جهاد النفس والهوى .

(وبعد) :

فمنذ أعوام مضت شاقنى أن أتعرف نظرة القرآن الكريم للنفس الانسانية ، ومدى عنايته بغرائزها ، وميولها ، فكتبت فى ذلك فصولا موجزة ولكنى لم أبلغ بها ما أريد

وبقيت الرغبة فى دراسة هذا الموضوع تعاودنى ، والصوارف تصدنى حتى أذن الله ، فقويت الرغبة ، وصمم العزم ، فأطلت النظر ، ونعمت زمنا — ما كان أطيبه — فى رياض القرآن الكريم .

وقد وفق الله ــ سبحانه ــ وأعان ، فكان هذا الكتاب الذى أقدمه للقراء راجيا أن يكون قد ألقى بعض الأضواء على هذه القضية : (القرآن والطبائع النفسية) .

والذى وجهنى الى دراسة هذه الناحية من القرآن أنى وجدت كثيرا من الدراسات الأدبية والعلمية ، بل ومن الاتجاهات الاجتماعية ، والاقتصادية والسياسية تستعين بالدراسات النفسية ، ووجدت ــ بخاصة ــ أن التربية الصحيحة هى التى تقوم على ما توصل اليه علم النفس من نظريات .

ولم يخالجنى شك أن القرآن الذى جاء يهدى الناس جميعا ، ويرشدهم الى أقوم الطرق قد اعتد بالنفس الانسانية ، ونزعاتها وفطرتها .

وثبت فى النفس أننا لو وصلنا من هذه الدراسة الى غايتها لأضفنا دليلا جديدا على أن القرآن من عند الله ، وليس من عند محمد كما يهرف بعض المستشرقين ، والحاطبون فى حبالهم .

ذلك أن بشرا مثل محمد ــ عليه الصلاة والسلام ــ نشأ فى بيئة لم تعرف بعلم ، ولا فلسفة ، لايستطيع أن يهتدى الى هذه الدقائق فى النفس الانسانية فيستعين بها على تربية أجيال متتابعة من الأمة الاسلامية ، ويكشف ــ قبل أن يعرف علم النفس ــ عن أهم المبادىء التى تقوم عليها التربية الصحيحة ، والتعليم النافع .

على أن مما قوى عزمى أنى وجدت ماكتب فى هذه الدراسة جد قليل .

وعلماء النفس يفرقون بين الغرائز ، والطبائع ، والميول ، والنزعات والعواطف ، ولكن وجدت أنهذه التفرقة منالتحديد العلمى الذى لايفيدنا كثيرا فى مثل هذا البحث ، ولا يضرنا أى ضرر اذا نحن أهملناه . فتجاوزت هذه المصطلحات العلمية ، وسميت الجميع (طبائع) لأن الذى يعنينى انما هو معالجة القرآن لهذه الميول النفسية فى اقرارها ، أو تهذيبها أو حياطتها بما يحفظ لها حقيقتها الفاضلة .

قصدت اذا من الطبائع تلك النوازع التى تمتد جذورها فى النفس ، وليست من أعمال الجوارح ، وانما هى دوافع منبعها القلوب ، ومصدرها النفوس ، وقد يسميها أرباب اللغة السجايا ، والطبائع ، والخلائق .

ومن الطبائع ما هو غريزة ، وجبلة ، وفطرة ، ومنها ما يكتسب بالمران الطويل المتواصل حتى يصبح كأنه لازم من لوازم الذات .

وهكذا جرى الاستعمال فى لغة العرب ، وعلى ألسنة أرباب البصائر ذوى العناية بالقلوب ، وبالأخلاق من علمائنا المتقدمين .

فالكرم ـ مثلا ـ فضيلة مكتسبة ، ولكنه فى لسان العرب سجية وطبيعة ، قال حسان بن ثابت يمدح آل جفنة بالجود :

سجية تلك فيهم غير محدثة ان الخلائق فاعلم شرها البدع

وهو يريد أنهم ورثوا هذه الصفة عن آبائهم وأجدادهم فكأنهم ورثوا خلقا ثابتا . وتقول أم حاتم الطائى ، وقد لامها أخوها على الاسراف فى البذل :

وماذا ترون اليوم الا طبيعة فكيف بتركى يابن أم الطبائعا

أما تسميتهم هذه الطبائع الثابتة خلائق ، وأخلاقا ، ففى مثل قول زهير :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وان خالها تخفى على الناس تعلم

وقول العرجى :

يأيها المتحلى غير شيمته ومن خلائقه الاقصار والملق
ارجع الى خلقك المعروف ديدنه ان التخلق يأتى دونه الخلق

وقد يطلق العرب (الطبع) على الغريزة التى لا تفارق صاحبها ، فى مثل قول الأعرابية التى ربت ذئبا ، على لبان شاتها ، فلما كبر الذئب فتك بالشاة ، فبكت قائلة :

أكلت شويهتى ، وفجعت نفسى وأنت لشاتنا ولد ربيب
رضعت لبانها ، ونشأت فينا فمن أنباك أن أباك ذئب
اذا كان الطباع طباع سوء فلا أدب يفيد ولا أديب

واذا كان التهذيب ، والتربية ، والاستئناس لم تغير طبع هذا الذئب فلأن غرائز الحيوان غير قابلة للتغيير ، وانما هى نوازع حاكمة بأمرها ، تصدر عنها الأفعال تلقائيا ، فلا أمل فى ترقيتها ، والسمو بها ، وستظل كذلك فى الحيوان .

أما الطبائع فى الانسان فمهما بلغت من التأصل والتحكم فمن الممكن تغييرها ، واعلاؤها ، وقولهم فى المثل : (من العناء رياضة الهرم) يدل على أن رياضة الهرم شاقة ، وعناء ، ولكن ذلك يفيد أنها قد تفيد .

فالرياضة والمجاهدة تستطيعان أن تهذبا الطبائع ، ولهذا أرسل الله الرسل ، وأودع فى الانسان العقل الذى كان ولا يزال فى صراع دائم مع الهوى ، والبيئة ، وفى حرب لاتهدأ مع الصفات الذميمة الموروثة ، والخلائق الشريرة المتأصلة .

وقد جعلت أساس البحث أن الله سبحانه أودع فى الانسان (فطرة فاضلة) هى ما عبر عنها القرآن بالدين القيم .

فليس الكفر ، ولا الشر ، ولا الرذيلة من فطرة الانسان ، وانما ينشأ كل ذلك من اختلال التوازن بين غرائزه ، ومن العوامل الخارجية التى تنحرف بهذه الغرائز عن أهدافها الفاضلة ، وأنه من الممكن أن نقضى على هذا الانحراف فيعود الانسان ، ولو بعد عناء ، وطول رياضة الى العقيدة الصحيحة ، والى الخلق الفاضل .

وقد جعلت الباب الأول فصولا قصيرة عن القرآن وعن النفس وفطرتها ، وغرائزها وجموح هذه الغرائز ، وتطهير النفس ، والضوابط التى هيأها الله للانسان لتكبح جماحها ، وأخيرا تحدثت فى فصل موجز أيضا عن عمل القرآن فى رد العرب الى فطرتهم السليمة بكل ماجاء به من تشريعات وتعاليم .

وجعلت الباب الثانى دراسة وافية لطبيعة بشرية على ضوء ما تحدث عنها القرآن فى آياته البينات ، تلك الطبيعة هى : (اللجوء الى الله فى الشدة) واخترت للباب عنوانا يشير الى لبه ، وهو : (الله فى قلوبنا) .

وجعلت الباب الثالث دراسة وافية — أيضا — عن طبيعة أخرى وهى : (حب المال) .

وعنيت فيه بكل ما يتصل بالميول النفسية فى هذا الشأن ، فكان الحديث عن التملك ، والعمل والتمتع بالطيبات ، والمادية والروحانية ، والزهد ، والاسراف ، والشح .. وما الى ذلك .

***

وأخيرا أقول ما قاله العمـــاد الأصفهانى : (انى رأيت أنه لا يكتب انسان كتابا فى يومه الا قال فى غده : لو غير هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان يستحسن ، ولو قدم هذا لكان أفضـــل ، ولو ترك هذا لكان أجمل) .

وهـــذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جمـــلة البشر .

وعلى الله قصد السبيل .

على محمد حسن (العمارى)

الروضة فى : شوال سنة ١٣٨٤
مارس سنة ١٩٦٥

القرآن والنفس البشرية

١ ـ القـرآن
٢ ـ تعرف نفسك
٣ ـ فطرة الله
٤ ـ جموح الغـرائز
٥ ـ تطهير النفس
٦ ـ ضـوابط النفس
١ ـ العقـل
٢ ـ تربيـة الارادة
٣ ـ العاطفة الدينية
٤ ـ القدوة الحسنة
٥ ـ القرآن رد العرب الى الفطرة

١ ـ القـــرآن

كتاب الله ، ومعجزة خاتم أنبيائه ، أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفـه تنزيل من حكيم حميد ، وقد جاء موعظة من الله ، وشفاء لمـا فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين .

هدى الناس الى طريق الحق ، وشفى صدورهم مما فيها من عداوات واحن ، وطهر قلوبهم من ضلالات الشرك ، وحماقات الأهواء .

نزل بالحق ، ونطق بالصدق (وبالحق أنزلناه ، وبالحق نزل) ، وتحدث فكان أحسن الحديث : (ومن أصدق من الله حديثا) . (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء) .

شرع الله فيه من الدين لمحمد عليه الصلاة والسلام ما وصى به نوحا وابراهيم وموسى وعيسى ، وأودع فيه من سياسة الدنيا ما يضمن السعادة والأمن ، والطمأنينة والسلام للمؤمنين .

فيه — كما قال الرسول — (نبأ من قبلكم ، وخبر مابعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبـار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معـه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يمـله الأتقياء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن اذ سمعته أن قالوا انا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى الى الرشد ، من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم) .

***

بين فبلغ الغاية فى البيان ، أوجز حيث لايحمد الا الايجاز ، وأطنب فما جاء الا بالاعجاز ، وتحدى فما طمع فى الاتيان بمثله ، أو بأقصر سورة منه انس ولا جان .

وناجى فسرى مسرى الحياة الى القلوب ، وأسمع فارتعدت الفرائص ، وتجافت عن المضاجع الجنوب . وعد المؤمنين بالجنان والحور ، وأوعد الكافرين بالويل والثبور ، وأخرج الناس من الظلمات الى النور .

أيقظ عقولا وأفهاما ، وأخمد أهواء وأوهاما ، وأحيا قلوبا أماتتها الجهالات ، وأنار عقولا أطبقت عليها الظلمات .

وهو — فى كل ذلك — يسوس الغرائز والطبائع سياسة الحكيم الخبير ، ويوجه الميول والنوازع توجيه العالم البصير .

تلاوته راحة النفس ، ومدارسته البهجة والأنس ، والتأمل فى معانيه يشيع السكينة فى القلوب المضطربة ، ويرفع الشكوك عن الهواجس القلقة ، ويملأ بالرضا واليقين قلوب المخلصين : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

***

٢ — تعرف نفسك

ليس عالم النفس بأضيق دائرة ، ولا بأقل عجائب وغرائب من عالم المشاهدة والحس .

فلئن كان المتأمل اللبيب يرى فى مجال الطبيعة ، وفى آفاق الكون من عجائب الصنع ، ودلائل القدرة ما يقف أمامه حائرا مأخوذا ، ثم يعود بعد أن يفيق من سبحاته — ان كان سليم الوجدان — مؤمنا عميق الايمان ، مسلما وجهه للذى خلق السموات والأرض وما بينهما .

لئن كان يرى كل ذلك فيئول أمره الى الاذعان والتسليم ، فانه حين يسبح بفكره الثاقب فى آفاق نفسه ، يكتنه أسرارها ، ويتلمس خفاياها يرى ما هو أدق وأعجب ، وأسمى وأروع ، وأدل على قدرة الصانع ، وأشهد على حكمة الحكيم .

ومنذ عهد سحيق فى التاريخ اهتدى أحد فلاسفة اليونان الى أن السبيل الوحيد الى العلم والمعرفة ، والى الفضيلة والخير أن يعرف الانسان

نفسه ، ولذلك كتب على جبين معبده هذه الكلمة الخالدة : (تعرف نفسك بنفسك) .

فمراقبة النفس ، وملاحظة ما يجرى فى داخلها ، والتعرف على غرائزها وطبائعها ، ونزعاتها وميولها ، وعواطفها وقواها ، كل ذلك يمكن صاحبها من أن يعلم الحقائق الكبرى فى الحياة ، ويدرك كنه الخير والشر ، والعلم الصحيح سبيل اليقين الثابت ، ووسيلة الخلق الفاضل .

وكل دعوة تخاطب النفس تكون هذه الدعوة فى أشد الحاجة الى معرفة النفس ، وكل منهج يوضع لتربيتها وتهذيبها لا يؤتى ثماره المرجوة الا اذا بنى أساسا على أدوائها وعلاجاتها ، فاذا بنى المنهج على الجهل بالنفس جاء متهافتا متداعيا ، لأنه يصف العلاج دون أن يشخص المرض ، وهذا أقل أضراره ألا ينفع ، فانه قد يقتل فى كثير من الأحايين .

وكلما ازداد الانسان علما بنفسه ، ووقوفا على ما يمرضها ، وما يصحها ، وما تقبل وما ترفض كان أقدر على تهذيب أخلاقه ، وعلى التأثير فيمن حوله .

وحاجة المصلح لمعرفة نفوس الآخرين ، لا تقل عن حاجة من يريد اصلاح نفسه فى هذا الشأن ، فالتربية الصحيحة هى التى تقوم على المعرفة الكاملة بنفوس المتعلمين ، والمريدين ، والأستاذ الذى يجهل ميول طلابه ، والشيخ الذى لا يعرف ما يناسب السالكين للطريق . هذان محكوم على جهودهما بالاخفاق .

ولقد عرض القرآن الكريم لهذه القضية الكبرى فى مواضع ، ولكنه كان ــ كما لا بد أن يكون ــ أهدى سبيلا ، وأقوم طريقا ، وأحسن تأتيا ، وأوضح غاية ، وأنبل مقصدا .

جاء فى سورة (فصلت) قوله تعالى : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد) .

فكانت هذه الآية توجيها لأنظار غفلت عن قدرة الله ، ولعقول ضلت

الطريق الأقوم . فبعد أن وصفت الآيات السابقة ما عليه الانسان من دؤب على طلب الخير ، ومن يأس وقنوط اذا مسه الشر ، ومن كبرياء وجحود واعراض اذا بدل الله ضره رحمة ، وبعد أن أشير الى أن القرآن حق ، وأنه من عند الله ، وأن الضالين حقا هم من لم ينظروا فيؤمنوا عن دليل ، أو يجحدوا عن برهان : (قل أرأيتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو فى شقاق بعيد) .

بعد كل ذلك توعدهم بأنه سيريهم آياته فى الآفاق فيشهدوا انتصار الدعوة المحمدية بعدد قليل من المسلمين يتغلبون على دول ذات عدة وعدد ، وحين يرون هذه العجائب فى نشر الدعوة على أيدى فئة قليلة ، يدركون مدى ما تصنع قوة الايمان ، ويتبين لهم أن دين الاسلام حق ، وأن القرآن حق ، وأن الثبات والاستقامة هما صفة الحق والصدق ، والاضطراب والتزلزل صفة الفرية والزور ، وأن للباطل ريحا تخفق ثم تسكن — كما يقول جار الله الزمخشرى .

ولئن كان أكثر العلماء حملوا (آيات الآفاق والأنفس) على ما يتصل بالدعوة والقرآن والايمان بالله ، فان الآية مطلقة ، وهى تنبيه للغافلين على النظر فى ملكوت الله وعلى البحث فى آفاق النفس ، فانهم سيرون من آيات الله ما ينتفى معه الشك فيما جاء به الرسول من الدين الحق ، والكتاب العربى المبين ، وما أوعد به من البعث للحساب والجزاء .

وفى كل شىء له آية
تدل على أنه الواحد

ثم نزلت آية (الذاريات) : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » فكانت أدل على التنبيه ، بل على التعنيف .

وقد سبقها قوله تعالى : « وفى الأرض آيات للموقنين » ، وجاء بعدها : (وفى السماء رزقكم وما توعدون ، فورب السماء والأرض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون) .

ففى الأرض آيات ، وفى الأنفس آيات ، ولكنها ليست آيات للكسالى عن النظر ، الغافلين عن عجائب صنع الله ، ولا لمراض القلوب ، ضعاف

الافهام ، بل هى آيات واضحات للذين ينظرون فيمعنون النظر ، ويقبلون على تعرف ما أودع الخالق فى عالميهم الظاهر والباطن بوجدان صادق ، ونفوس راغبة فى الوصول الى أقصى درجات اليقين .

ولعل النظر فى ظواهر النفوس من اختلاف الألسن والألوان ، ومن دقائق التركيب فى الخلقة ، وعجائب اللطف فى الحواس ووظائفها التى لايكاد التأمل فيها ينتهى الى غاية الا لاح للناظر غايات أخرى ، وربما أشار الناظر الى روائع منها ، وان كانت لا تعد شيئا بجانب ما فيها من جلائل ، كما قال أبو العلاء المعرى :

أما يرى الانسان فى نفسه
آيات رب كلها غر
فى فمه عذب وفى عينه
ملح ، وفى مسمعه مر

أقول : لعل النظر فى كل أولئك أيسر على الدارس ، وأهون على المتأمل من النظر فيما ركب فى النفوس من عجائب الفطر ، وما ركز فيها من مخيلة ، وحافظة ، وذاكرة ، وما تزخر به من عواطف وانفعالات .

والنفس الانسانية على الرغم من الجهود الكثيرة التى بذلت لدراستها — لا تزال مجهلا يعيى السالكين ، مهما أوتوا من معرفة ، وبصر ، وقوة . بل ان علم وظائف الأعضاء — وهو يعتمد على التجارب الحسية — لايزال يكشف فى النفس كل يوم جديدا ، فما بالنا بعلم النفس الذى لا يعتمد الا على التجارب المعنوية .

ان ما توصل اليه علماء التشريح من وظائف عضو واحد ليحير أنفذ العقول ذكاء ، ويهدى أقوى المعاندين جحودا ، فقد قرأت مقالا عن الكبد ، ووظائفه فى جسم الانسان لعالم من علماء التشريح ، وكان مما ذكره الكاتب أن الوظائف المعروفة للكبد حتى الآن تبلغ الخمسمائة .

***

ومن الآيات التى دعت الى البحث فى أعماق النفس قوله تعالى فى

سورة (الروم) : « أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى » .

فهذه دعوة صريحة الى التأمل ، والتفكر واطالة النظر فى ثنايا النفس ، وهذا الدرس سيهديهم حتما ــ ان انتفعوا بما علموا ــ الى أن الله ــ وحده ــ هو الذى خلق السموات والأرض وما بينهما ، وأنه خلقهما بالحق ، فلم يخلقهما باطلا ، ولا عبثا ، بل خلقهما لغرض صحيح ، وحكمة بالغة ، وأن لهذه المخلوقات أجلا معلوما تنتهى اليه ، كما تنتهى نفوسهم الى وقت معلوم ، غير أن الكثرة الكاثرة من الناس لا يتفكرون فى أنفسهم فيبقون فى ظلام الجهل بما أودع الله فيها مما يدل على عظيم حكمته ، وكامل قدرته ، ويظلون بعيدين عن اليقين بالله ، وبالبعث : « وان كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون » .

وهكذا ، يتضح جليا أن الغرض من الدعوة الى التفكر فى النفس انما هو الوصول الى الحقيقة الكبرى ، وهى خلق الله لهذا العالم ، وعلى هذه الحقيقة تترتب حقائق أخرى يتحتم الايمان بها ، ومنها لقاء الله الذى لا ريب فيه .

ومن الايمان بالله ، ومعرفته حق المعرفة تنبثق معارف الانسان فى كل شأن من شئون الحياة ، فمعرفة الله أصل ، وما عداها من المعارف فروع عنها ، والوسيلة الى معرفة الله هى معرفة آياته فى الكون ، وفى النفس .

كما يتضح لنا المدى الواسع بين هدف الفيلسوف اليونانى القديم من دعوته لمعرفة النفس ، وهدف القرآن الكريم ، وبين أسلوبى الدعوتين فى مدى قوتهما ، وتأثيرهما للوصول الى الغاية المقصودة .

***

ولما كانت الفطر التى أودعها الله نفوس خلقه هى القوى الأولى المبثوثة فيها ، وكانت معرفتها على وجهها الصحيح هى العامل الأوحد فى تنشئة الأفراد والجماعات على الخير والحق كان لزاما على كل من يتحدث عن النفس البشرية أن ينظر فى هذه الفطر .

٣ ـ فطـرة الله

اختلفت آراء العلماء قديما ، ولا تزال تختلف آراء العلماء المحدثين حول الفطرة التى جبل عليها الانسان .

فذهب فريق كبير من العلماء ، ومنهم الفيلسوف اليونانى (سقراط) الى أن الفطرة خير ، ونفس الطفل ـ فى نظره ـ وعاء لكل كمال .

وذهب فريق ثان ، ومنهم (أفلوطين) الى أن الفطرة شر ، والنفس ـ فى نظره ـ هبطت الى العالم المادى من عالمها الروحى للابتلاء والاختبار ، وهى لا تطهر الا بالرياضة والمجاهدة .

وعلى هذا الرأى كثير من شعرائنا المتشائمين ، أمثال أبى العلاء الذى يقول :

ونحن فى عالم صـيغت أوائله
على الفسـاد فغى قولنا فسدوا

وقوله :

والشر فى الجد القـديم غريزة
فبـكل نفس منه عرق ضـارب

حتى الشعراء الذين كانوا أكثر تفاؤلا وصفوا الطبيعة البشرية فى بعض تهويماتهم بأنها شر ، ومن ذلك قول المتنبى :

والظلم من شـيم النفوس فان تجد
ذا عفـة ، فلعـلة لا يظـلم

وقول بعض الشعراء المحدثين ـ وكان حينذاك شابا فى مقتبل العمر ـ :

اننى ـ والعيـاذ بالله منى ـ
من بنى الانس ، من هـواة الشرور
ـ صـورتنى الحيـاة من شـر ماء
وتـكونت من ضـلال وزور

والأكثرون من العلماءالشرقيين والغربيينعلى السواء يرون أن الفطرة مستعدة للخير وللشر ، ومن هؤلاء (أفلاطون) الذى يرى أن من الطبائع

ما يميل الى الشر بسهولة محزنة ، ومنها ما يميل ـ على الضد من ذلك ـ الى الخير من تلقاء نفسه ، وأن الله تعالى لم يسو بين الناس جميعا فيما وهب من ميول الخير ، كما لم يسو بينهم فيما قدر من ميول الشر .

وقد اضطرب رأى الامام الغزالى ، فرأى فى موضع من كتبه أن الانسان ولد خيرا بطبعه ، ورأى فى موضع آخر أن الانسان ولد قابلا للخيروللشر ، ورأى فى موضع ثالث أن الانسان ولد ، وفى طبيعته الشر ، وقد ذكر أن ميل الانسان الى الحكمة ، وحب الله ومعرفته وعبادته هو مقتضى طبعه كالميل الى الطعام والشراب ، وأن ميله الى السوء والقبائح غريب عليه خارج عن الطبع ، كالميل الى أكل الطين الذى قد يغلب على بعض النفوس بالعادة ، كما ذكر أن القلب بأصل الفطرة صالح لقبول آثار الملك ، ولقبول آثار الشيطان صلاحا متساويا وذكر بعض الدارسين لكتبه وآرائه أنه يقول ان الخطيئة أساسية عند كل انسان .

ومن الفلاسفة الغربيين من يرى أن الطفل منذ ولادته الى سن محدودة ليس له حياة أدبية ، فلا تنسب فطرته لا الى الخير ، ولا الى الشر ، لأنه لا يعقل ما يفعل .

ومن كتابنا من يرى الرأى ، ويذهب يستد لعليه من القرآن الكريم ، ولا دلالة للآية على ما يرى . فقد ذهب بعض الكاتبين الى أن فى فطرة الانسان أنه يستطيع الابتعاد عن الله ، والكفر بآياته ، وذكر دليلا على ذلك قوله تعالى : (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) ، وليس فى الآية ما يشير من قريب أو من بعيد الى أن الكفر بآيات الله فى فطرة الانسان .

***

بعد هذا التلخيص الموجز ، الذى أظنه وافيا لآراء العلماء فى (الفطرة الانسانية) نقف وقفتنا مع القرآن الكريم ، فنرى آية من آياته صريحة واضحة فى هذا الشأن قال تعالى فى سورة الروم : (فأقم وجهك للدين

حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبـديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) .

وقد ذهب كثير من المفسرين الى أن معنى الفطرة أن الله خلق الخـلق قابلين للتوحيد ، ودين الاسلام ، غير نائين عنه ، ولا منـكرين له ، لكونه مجاوبا للعقل مساوقا للنظر الصحيح ، حتى لو تركوا لما اختاروا عليه دينـا آخر ، ومن غوى منهم فباغواء شياطين الانس والجن ، ويستدلون على ذلك بقول النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه : (كل عبـادى خلقت حنفاء فاجتالتهم الشياطين ، وأمروهم أن يشركوا بى غيرى) . وقوله عليه الصلاة والسلام : (ما من مولود الا يولد على الفطرة حتى يـكون أبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسـانه) وفى بعض الروايات تكملة لهذا الحـديث : (كما تنتجون البهيمة ، هل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا تجدعونها) . وقالوا فى قوله تعالى : (لا تبـديل لخلق الله) أى ما ينبغى أن تبدل تلك الفطرة ، أو تغير ، أو لا صحة ، ولا استقامة لتبديل فطرة الله تعالى بالاخلال بموجبها ، وعدم ترتيب مقتضـاها عليها باتباع الهوى وقبول وسوسة الشيطان .

وهناك تفسير لعله أقرب وأصح ، وخلاصته أن أحدا لا يقـدر أن يغير خلق الله سبحانه وفطرته فالمراد بالتبديل تبديل نفس الفطرة بازالتها رأسا ، ووضع فطرة أخرى مكانها غير قابلة للحق ، ولا متمكنة من ادراكه .

ومعنى ما ذهب اليه هؤلاء المفسرون أن فطرة الانسـان متجهة للخير ، والشر يأتيها من خارجها .

ولكن من العلماء الناظرين فى القرآن ـ أيضا ـ من يرون أن الانسان خلق قابلا للخير والشر ، ويستدلون بقوله تعالى : (ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها) وبقوله عز وجل فى شأن الانسـان : (وهديناه النجدين) وبقوله تبارك وتعالى : (انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا . انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا) .

ولا دليل في هذه الآيات على أن الفجور طبيعةوجبلة فى النفس ، لأن معنى الالهام ـ هنا ـ الافهام ، فالله قد أودع فى النفس الانسـانية العقل

الذى يدرك طريق الفجور ، كما يدرك طريق التقوى ، ومما يؤيد هذا قوله تعالى بعد ذلك (قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها) فنسب الفعلين (زكى ودسى) الى الانسان .

وكذلك لا حجة فى الآيتين الأخريين ، لأن معنى الهداية فيهما : الارشاد الى الطريقين ، طريق الخير ، وطريق الشر ، ولا تدل (الهداية) على أن ذلك مودع فى نفس الفطرة .

وبعض المفسرين يرى في قوله تعالى : (انا هديناه السبيل) أن ذلك ارشاد الى الخير فقط ، لأن السبيل لا يطلق الا على الهدى ، ويفسر المراد من هداية السبيل بأنه نصب الدلائل ، وبعث الرسل ، وانزال الكتب .

والدليل على صحة تفسير الهداية بالبيان والارشاد فى الآيتين ، والابتعاد بها عن معنى خلق ذلك فى الفطرة قوله تعالى فى آية (الدهر) : (نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا) . والاختبار لا يكون مع الالجاء ، وفائدة السمع والبصر انما تظهر مع الحرية فى العمل . وهما كنايتان عن الفهم والتمييز .

***

آية واحدة من كتاب الله تحول دون تعميم الحكم على الفطرة بأنها كلها خيرة ، هى قوله تعالى : (ان الانسان خلق هلوعا . اذا مسه الشر جزوعا ، واذا مسه الخير منوعا) .

ففى هذا النص دلالة واضحة على أن الجزع عند مس الشر ، والشح عند مس الخير صفتان خلق بهما الانسان ، وأودعا فى الجبلة ، وبذلك قال فريق من المفسرين وجعلوا الاستثناء منقطعا ولكن الذى تميل اليه النفس ، وهو ما يتفق مع آية الفطرة . ومع أحاديث الفطرة كذلك ، أن غريزة حب المال التى أودعها الله فى الانسان لمصلحته ، ولتعمير الكون — كما سنشرح ذلك بعد حين — قد يحوطها من الظروف والأسباب ما ينحرف بها عن وجهتها النبيلة ، فتصير الى الشح ، وكثيرا ما يحدث ذلك ، فبالغ القرآن فى تصوير هذا المعنى فجعل الشح كأنه مخلوق مع الانسان ، وفى ذلك يقول الزمخشرى : (والمعنى أن الانسان لايناره الجزع والمنع ، وتمكنهما منه ،

ورسوخهما فيه كأنه مجبول عليهما مطبوع ، وكأنه أمر خلقى وضرورى غير اختيارى ، كقوله تعالى (خلق الانسان من عجل) ، والدليل عليه أنه حين كان فى البطن والمهد لم يكن به هلع ، ولأنه ذم ، والله لايذم فعله ، والدليل عليه استثناء المؤمنين الذين جاهدوا أنفسهم وحملوها على المكاره ، وظلفوها عن الشهوات حتى لم يكونوا جازعين ، ولا مانعين .

والذى يعنينا من كلام الزمخشرى أنه فهم الآية على أن ما فيها من قبيل المبالغة ، وليس الهلع من الجبلة ، أما بقية كلامه فموضع نظر .

وعلى هذا الوجه يكون الاستثناء فى قوله تعالى (الا المصلين) متصلا، على معنى أن الناس جميعا يجزعون عند الشر ، ويمنعون اذا نالوا خيرا ، الا الذين وصفهم الله بعد ذلك بمحافظتهم على الصلاة وايتائهم الزكاة الى آخر هذه الصفات ، فان هؤلاء آثروا الآجلة على العاجلة ، وعرفوا قيمة هذه الحياة ، فهم لا يجزعون ، ولا يمنعون .

* * *

أما كيف أودع الله فى النفس البشرية هذه الفطرة السليمة ، فهذا هو البيان : غرس الله فى كل نفس منذ تكوينها فى عالم الأجنة غرائز وميولا ونزعات لتصدر عنها عقائد وأخلاق ، وأفعال كلها طيب ، وكلها ضرورى للانسان فى حياته الدنيا ، وفى العمل للحياة الأخرى ، وليس فى هذه القوى غريزة أو نزعة لا يصدر عنها الا الشر ، أعنى أنه ليس فى أصل الفطرة غريزة يصدر عنها الشر ، ولا يصدر عنها الخير ، بل كل الغرائز معدة لصدور الخير عنها ، ومع أن كل الغرائز قد تكون مصدرا للرذائل ليس ذلك فى طبيعة خلقتها ، أو بمعنى آخر لم تودع الغريزة فى النفس لذلك ، ولا يمكن أن تصدر عنها الرذيلة لذاتها ، وانما تصدر نتيجة عوامل أخرى خارجة عن الفطرة ، وذلك ما يدلنا عليه قوله تعالى : (فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم) . فالفطرة هى الدين القيم ، وما دامت القوى المبثوثة فى النفس التى عبر عنها بالفطرة هى الدين القيم فمعنى ذلك أن الفطرة مصدر للفضائل ، وللعقيدة السليمة ، وذلك ما يدلنا عليه أيضا

قول الرسول الكريم : (فاجتالتهم الشياطين) أى حولتهم عن مقاصدهم ، فالشياطين — اذن — هى التى زحزحتهم ، وأبعدتهم عن مقتضى الفطرة .

فليست الغريزة فى نفسها مصدر شر ، بل هى مصدر خير ، ولو ترك الانسان مع غرائزه ، وأبعدت عنه كل المؤثرات الخارجية التى تعين على الشر لنشأ فاضلا خيرا .

ولنضرب مثلا بالغريزة الجنسية ، تلك الغريزة التى اعتبرها بعض علماء النفس الغربيين المصدر الوحيد للشر .

هذه الغريزة ضرورية لسعادة الفرد والمجتمع ، وضرورية لبقاء الحياة والأحياء على هذا الكوكب الذى نعيش فوق سطحه ، وفيها — فوق ذلك — نوع من الترفيه عن النفس ، وهى ليست شريرة ولا مصدرا فى ذاتها للشر بدليل أننا لو حافظنا على الطفل من قرناء السوء ، ومن التربية الفاسدة ومكناه — فى الوقت المناسب — من اشباع غريزته من حلال لما فكر يوما أن يعتدى على عرض .

وهذا يقال فى كل الغرائز . فغريزة الغضب ضرورية لأنها تدفع الانسان أن يدافع عن نفسه ، وعن عرضه وعن وطنه ، وكذلك غريزة حب المال ... الى غير ذلك من الغرائز وسنبين أن الانحراف فى هذه الغرائز لا يجيئها الا من خارج طبيعتها وأنها فطر سليمة ، ولذلك قيل : الفطرة السليمة هى أول ما وجد مع الانسان ، وهى آخر ما ينبغى أن يكون معه ، وكل التعاليم السليمة تهدى الى أن يصل الانسان الى هذه النهاية .

ولعل من أقوى الأدلة على أن فطرة الانسان خير هو ما يجده المرء فى نفسه من وخز الألم ، وحرقة الندم عندما يقترف أية حماقة من الحماقات ، لا سيما عند مزاولتها لأول مرة ، وكل انسان — مهما كانت البيئة التى نشأ فيها — يدرك بسليقته ان كان العمل الذى أقدم عليه طيبا أو خبيثا ، وليس بلازم أن تكون رؤيته لطبيعة العمل واضحة ، بل يكفى أن يشعر بحقيقته مجرد شعور ، أما وضوح الرؤية فيأتى نتيجة للتربية السليمة .

وفى أقوال الرسول ما يرشد الى ذلك من مثل قوله : (والاثم ما حاك فى النفس) وقوله : (استفت قلبك) فى حديث وابصة حين سأل النبى عن

البر والاثم ، فأجابه : (استفت قلبك ، البر ما اطمأنت اليه النفس واطمأن اليه القلب ، والاثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر وان أفتاك النـاس وأفتوك) .

وهذا ما عناه بعض أصحاب النفوس الكبيرة حين قال : ما أرانى أوجر على ترك الكذب لأنى انما أتركه أنفة لا تدينا .

يريد أن النفس الصافية التى سلمت من مؤثرات الشر تدرك بطبيعتها أن الكذب رذيلة نفسية لا تليق بالانسان الذى يحترم نفسه ، ويحافظ على كرامته .

والأخلاق الفاضلة فى ذاتهـا لها وزنهـا وقيمتها ، ولو لم ترتبط بأى اعتبار مما يدلنا على أن النفس تدرك بطبيعتها الخيرة جمال الفضيلة ، وقبح الرذيلة .

ولعل مما يشير لذلك قول شوقى فى مدح الرسول صلى الله عليـه وسلم :

يا من له الأخلاق ما تهـوى العلا منهـا ، وما يتعشـق الـكبراء
لو لم تقـم دينـا لقـامت وحدها دينـا تضىء بنـوره الآنـاء

ذلك أنه ما دامت الطبيعة خيرة فانها تجد الهـدوء والطمأنينة ، وتشعر بالسرور والراحة حين تفعـل الخير ، وسر ذلك أنهـا وجدت ما يوافقها فرضيت ، كما أنها حين تقترف الرذيلة تجد ما يخالفها فتألم وتحزن ،وكذلك تستريح حين ترى الفضيلة فى غيرها وتألم حين ترى الرذيلة .

وأعتقد أن الفضيلة والرذيلة لم يشـتبها على جيل من الأجيال ، فالعفة والشجاعة والعدل والحكمة وما يتفرع عنها لا يمكن أن يتفـق جماعة من الناس على أنها أو احداها رذيلة من الرذائل وكذلك يقال فى أضدادها من الجهل والشره والجبن والجور وعلى ذلك أجمـع الحكماء قديما وحديثا ، وليس السر فى ذلك الا أن الفضائل وافقت — كما قلت — طبيعة النفس ، والرذائل نافرتها ، فأحبت تلك ، واعتدت بها ، وكرهت هذه وتبرأت منها .

أما فكرة الألوهية فهى أرسخ الفطر فى النفس البشرية ، فكل انسان يحس فى داخله بشعور قوى نحو قوة قادرة قاهرة مسيطرة .

عبر عن ذلك العربى الساذج فى أسلوب واضح جميل حين قال : البعرة تدل على البعير ، وأثر الأقدام يدل على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، كيف لا تدلان على اللطيف الخبير ؟.

وعبر عنه المثقف الدارس المتعبد المتبتل وهو القديس أوغسطين فى اعترافاته اذ يقول : ان الله موجود فى باطن ذاكرتنا على صورة فكرة رئيسية هامة من أفكار الانسان هى فكرة السعادة ، أو النزوع نحو السعادة وما السعادة الا تلك الغبطة التى نستشعرها فى نفوسنا حين نصل الى الحق ، وما الحق الا الله نفسه .

وسنفرد لهذه الفكرة بابا من أبواب هذا الكتاب .

* * *

٤ ـ جموح الغرائز

قلت ان الفطرة خيرة بطبيعتها ، وأن ما أودع فيها من الغرائز كان لخير الانسان واسعاده ، وان هذه الغرائز لو أشبعت فى وقتها المناسب ، مع ابعاد عوامل الافساد عنها لأمن انحرافها ولكن الذى نشاهده فى الحياة أن الغرائز تترك لسبب أو لآخر حتى تظمأ ، وتتطلب ما يروى غلتها ، ثم تحوطها أسباب الشر من كل جانب فتنحرف عن الطريق السوى ، وتخترق الأسوار الحصينة التى أقيمت لتحول بينها وبين التردى فى مهاوى الضلال والغواية .

وبقدر ما تكون قدرة هذه الأسوار وضعفها ، وبقدر ما تكون عوامل الاغواء قوة وضعفا يكون انحراف الفطرة ، وخروجها عن طبيعتها .

وقد بين القرآن الكريم أسبابا كثيرة لانحراف الفطرة .

١ — فنسب كثير من آياته هذا الانحراف الى وسوسة الشيطان ، ومن ذلك قوله تعالى : « ان الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم

الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم » وقوله سبحانه : « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء » وقوله عز وجل : (انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه) .

وذكر أن الشيطان أزل أبوينا آدم وحواء عن الجنة ، فهو عدو قديم : « فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو » ، « فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى » .

كما ذكر أن الشيطان أضل كثيرا من الأمم قبلنا : « تالله لقد أرسلنا الى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم » . « وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين » . وقال فى شأن ملكة سبأ على لسان الهدهد : (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون) .

بل أخبر القرآن الكريم أن الشيطان يحاول أن يتسلط على الأنبياء ، ولكن الله يحفظهم : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته) .

والله انما يسلط الشيطان على الكافرين ، ويحفظ منه أولياءه المؤمنين : (انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) . « ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا » . « ولولا فضل الله عليكم ورحمته لا تبعتم الشيطان الا قليلا » وقال الله سبحانه فى خطاب ابليس : « ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من تبعك من الغاوين) .

وقد حذرنا الله سبحانه من اتباع خطوات الشيطان ، وبين لنا أنه عدو فيجب أن تتخذه عدوا : (يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ، ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله

عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبدا ، ولكن الله يزكى من يشاء) . (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) . « يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة » .

وأحسن ما يقال فى شأن الشيطان ووسوسته أن لله خلقا خفيا اسمه الشيطان لا تدركه حواسنا ولكن ندرك أثره فى نفوسنا ، وهذا الأثر الذى نحسه هو ما سماه القرآن الوسواس ، والنزغ والمس ولسنا مكلفين بالبحث عن حقيقة هذا الخلق ، وينبغى ألا تعنينا هذه الحقيقة ، وانما علينا أن نفكر دائما فى طريق الخلاص من شره .

وكل بنى آدم معرضون لوسوسة الشيطان ، ولكن تسلطه لا يكون الا على الغافلين عن أنفسهم ، الذين لا يحاسبونها على خواطرها ، الغافلين عن ربهم ، الذين لا يراقبونه فى أهوائهم وأعمالهم : (انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) .

أما المؤمنون فيجاهدون أنفسهم ويحاربون شياطينهم ، فتبقى فطرهم سليمة ، والدليل على ذلك قول نبينا صلى الله عليه وسلم : « ما منكم أحد الا وله شيطان قالوا وأنت يا رسول الله ؟ قال : وأنا ، الا أن الله أعاننى عليه فأسلم ، فلا يأمر الا بخير » .

وللامام الغزالى فصل رائع فى تسلط الشيطان بالوسواس على القلب ومنه قوله : (ومهما غلب على القلب ذكر الدنيا بمقتضيات الهوى وجد الشيطان مجالا فوسوس ، ومهما انصرف القلب الى ذكر الله تعالى ارتحل الشيطان ، وضاق مجاله ، وأقبل الملك وألهم ، والتطارد بين جندى الملائكة والشياطين فى معركة القلب دائم الى أن ينفتح القلب لأحدهما فيستوطن ، ويستمكن ، ويكون اجتياز الثانى اختلاسا) (١) .

---

(١) احياء علوم الدين جـ ٣ ص ٢٨ .

والشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم — كما ورد فى الحديث الشريف — وقد أحسن أحد المفسرين (١) حين شبه الشياطين بجراثيم الأمراض ، فكما أن الجراثيم تجد مقاومة وحربا لا هوادة فيها من الجسم السليم حتى تنهزم ، كذلك يجد الشيطان مطاردة من الروح السليمة ، والأمر على الضد فى الأجسام الهزيلة ، والقلوب المريضة ، فالحصانة فى الأرواح كالمناعة فى الأجسام . كلتاهما تقضى على ما يضعفها .

وقد رأى بعض المخدوعين الجاهلين من المحدثين هذا التمثيل فادعى أن هذا المفسر ينكر وجود الشياطين ، ويدعى أنها جراثيم فى الأجسام .

٢ — ونسبت آيات أخرى هذا الانحراف الى اتباع الهوى ، قال تعالى فى سورة الأعراف : (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه) وقال سبحانه فى سورة القصص : (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) وقال فى سورة الجاثية : (أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم) .

ومن أوضح الآيات على أن الله سبحانه وتعالى يمكن عباده من سبل الهداية ، ويدلهم على طريق الحق ، ولكنهم يخضعون لأهوائهم ويسلكون سبل الغى والضلال ، قوله تعالى : (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) .

وقد نهى الله نبيه أن يتبع أهواء الضالين فقال جل وعلا : (ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا) وبين له أن اتباع أهواء أعداء الاسلام ظلم للنفس : (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ، وما أنت بتابع قبلتهم ، وما بعضهم بتابع قبلة بعض ، ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم انك اذا لمن الظالمين) . وأن اتباع أهوائهم ضلال لا اهتداء معه (قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت اذا وما أنا من المهتدين) .

---

(١) السيد رشيد رضا فى تفسير المنار جـ ٩ ص ٥٤٤ الطبعة الاولى

ومن المقطوع به أن النبى — صلى الله عليه وسلم — ليس المراد بكل هذا وانما المراد أمته ، لأنه عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن يتبع باطل هؤلاء ، ولا هؤلاء .

وتوجيه الخطاب له تشديد للوعيد على غيره ممن يتبع الهوى ، ويحاول ارضاء الناس بمجاراتهم على ما هم عليه من الباطل ، قال الأستاذ الشيخ محمد عبده : (أفرده بالخطاب مع أن المراد أمته خاصة ، اذ يستحيل أن يتبع هو أهواءهم ، أو أن يجاريهم على شىء نهاه الله تعالى عنه لينبه الغافل ، ويعلم المؤمنون أن اتباع أهواء الناس ولو لغرض صحيح هو من الظلم العظيم الذى يقطع طريق الحق ، ويردى الناس فى مهاوى الباطل كأنه يقول ان هذا ذنب عظيم لا يتسمح فيه مع أحد حتى لو فرض وقوعه من أكرم الناس على الله تعالى لسجل عليه الظلم ، وجعله من أهله الذين صار وصفا لازما لهم ، « وما للظالمين من أنصار » فكيف حال من ليس له ما يقارب مكانته عند ربه عز وجل) (١) .

٣ — ومن الآفات التى تجنى على الفطرة (البيئة) التى تؤثر فى النفس تأثيرا بعيد المدى ، فان كانت البيئة فاسدة أثرت فى النفس تأثيرا سيئا بل ان الانسان ليكون خيرا فينشأ فى جماعة منحلة فيفسد ، وقد يصادق صاحب خلق سيىء فيتأثر به ويرى ذلك الأثر فى نفسه ، ولذلك قيل : ما اجتمع اثنان الا ترك كل منهما أثرا منه فى صاحبه وكان أسوأهما خلقا أشدهما تأثيرا .

وتأثير الصاحب على الصاحب سريع ، ونافذ ، ذلك أن القلب اذا تفتح لشخص كان سريع التقبل لما يقول ، ولما يفعل ، وربما كان للصحبة العابرة أثرها أيضا ، قال بعض الفطناء من المتقدمين : انى لأجالس الأحمق ساعة فأتبين ذلك فى عقلى ، وقال آخر : ان الأحمق ليزق الطائر فأتبين ذلك فى طيرانه .

---

(١) عن تفسير المنار ج ٢ ص ١٩ .

ولذلك نجد القرآن الكريم حذر من أصدقاء السوء : (ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار) وبين أن من الأصدقاء من يدفع صاحبه الى الغى دفعا : (واخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون) . (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم) .

وسنوفى ذلك الموضوع حقه عندما نتحدث عن أثر القدوة فى السلوك .

٤ — وبسبيل من ذلك . التقليد للآباء وللأجداد ، والخضوع للسادة والكبراء ، ولعل أبعد الآفات أثرا فى النفوس هو تقديس ما كان عليه الآباء من عقيدة ، وعادات ولا شيء أضر على عقيدة الانسان ، وأخلاقه من التقليد، اذا كان عن غير بصيرة وتثبت ، ولذلك نعى القرآن الكريم على المشركين احتجاجهم الدائب بأنهم يتبعون ما كان عليه آباؤهم (أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون . بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون . وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون . قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا انا بما أرسلتم به كافرون) (واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها) . (واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) .

كما نعى عليهم أن يسلموا لسادتهم عقولهم ، ووجداناتهم ، ويبين لهم العاقبة الوخيمة لهذه العبودية الذليلة : (وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم بل كنتم مجرمين . وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار اذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا

وأسروا الندامة لما رأوا العذاب) . (يوم تقلب وجوههم فى النـار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ، وقالوا ربنا انا أطعنا سـادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا) .

٥ ـ تطهـير النفس

سلك القرآن الكريم أنجح الوسائل لتقويم الأخلاق ، وتهذيب السلوك والارتفاع بالنفس الانسانية عن كل ما يحط من قدرها .

وكان أول ذلك أن أعلن أن الله تعالى يعلم خفايا النفوس ، وخطرات القلوب : (ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه) . (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) .

وأدنى الغايات من ذلك أن يستحى المؤمن بأن الله مطلع على ما تكنه نفسه أن يترك خاطرات السوء تشيع بين جنبات نفسه ، وتنمو وتزدهر فيها، فيعمل جاهدا على اقتلاعها من جذورها ، ويظل ينظفها من كل هاجسة ، فلا يبقى فيها شيئا مما يكرهه الله سبحانه .

واذا كان العلم تتبعه المحاسبة ، فالجزاء ، فان القرآن الكريم لم يصرح بذلك فى هذه المرحلة من التشريع الذى جاء به ، واكتفى بأن يؤكد أن شيئا مما تخفيه الصدوز لا يخفى على الله ، ويترك النـاس يخشون هذا العـلم الالهى ، (ويقدسونه) أن يطلع منهم على سوء ، ويتوجسون خيفـة من نتائجه ، دون أن يصرح لهم بذلك .

ولما اطمأنت النفوس الى هذه الحقيقة ، وآمنت بها الايمان الـكامل ، واجهها القرآن بأن الله — سبحانه — سيحاسبها على العزمات : (واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه) .

وقد كان وقع هذه الآية شديدا على صحابة رسول الله ، فشكوا اليه ما يساورهم من الخوف ، فبين لهم القرآن ان الانسان انما يحاسـب على ما يستطيع التخلص منـه ، ولا يستطيع أحـد أن يحول بين قلبـه ، وبين ما يهجس فيه من خواطر : (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) .

وأوضح القرآن فى كثير من الآيات ما يكره الله من عباده من هذه الوساوس فحذر من سوء الظن بالناس (يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم) .

ولما كان سوء الظن مما يقع فى النفس عفو الخاطر ، فقد فسر النبى صلى الله عليه وسلم ما يحظر على المؤمن من ذلك ، فجاء فى الحديث الشريف: (ثلاث لا يسلم منها أحد : الطيرة ، والظن ، والحسد . قيل : فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : اذا تطيرت فلا ترجع ، واذا ظننت فلا تحقق ، واذا حسدت فلا تبغ) (١) .

ومعنى ذلك أن المؤمن لا يستجيب فى فعله الى ما يدعوه اليه سوء الظن ، وأنه لو استطاع أن يعود نفسه حسن الظن بالناس ، والتماس الأعذار لما عساه يبدو منهم من أفعال ، ظاهرها سيىء لنجا مما يتركه سوء الظن فى نفسه من كراهية للناس ورغبة فى ايذائهم ، وارتياح نفسى لما ينزل بهم من أحداث وكوارث .

كما حذر القرآن من أن يضمر المؤمن فى نفسه تحقيرا لانسان كرمه الله ، وجعله خليفته فى الأرض ، فجاء فى سورة الحجرات : (يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن) .

وقد علل القرآن لهذا النهى ، فأحسن التعليل ، فالانسان لقصور علمه ولغروره بنفسه ، وبأخلاقه ، ربما ظن أنه أفضل من انسان آخر ، فى حين أن هذا خير منه ، وأفضل ، عند الله ، وعند الناس .

وقد اعتبر الرسول الكريم هذا الخلق النفسى غاية الشر ، فجاء فى حديث طويل : (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ، و لايسلمه ، ولا يحقره .. بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم) .

وقد جاء هذا التوجيه النبوى الكريم بعد أن نبه الناس الى أن كلهم لآدم ، وآدم من تراب ، وأنه لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى .

---

(١) من فتح البارى ج ١٠ ص ٣٩٦ فى شرح حديث : اياكم والظن فان الظن اكذب الحديث .

وهذا التعليم من أجل تعاليم الاسلام ، ولو اتبع كما أمر القرآن ، والسنة لأشاع الحب والمودة والألفة بين الناس ، ولأقر السلام والأمن والطمأنينة في أقطار كثيرة من أقطار الأرض .

ونظرة سريعة الى قضايا الملونين فى العالم ، وما يلقون من اضطهاد ، وأذى ، واحتقار من البيض ، والى ما تزخر به فلسفة بعض الأجناس المتعالية ، المتكبرة ، من ادعائها أن الجنس الآرى هو خير الأجناس ، وأنه خلق ليكون سيدا ، وخلقت الأجناس الأخرى لتخدم هذا الجنس .

أقول نظرة سريعة الى كل هذا ترشدنا الى المعنى الانسانى السامى ، والى الهدف النبيل الرفيع فى هذه الكلمات الموجزة من كتاب الله (لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم) .

* * *

وحذر القرآن كذلك من الغل ، والحقد ، والحسد ...

فكان من دعاء عباده المؤمنين : (ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا) .

وكان من امتنان الله على أهل الجنة أنه ينزع ما فى صدورهم من غل : (ونزعنا ما فى صدورهم من غل ، اخوانا على سرر متقابلين) .

وأمر الله — سبحانه — نبيه ، والمؤمنين أن يستعيذوا (من شر حاسد اذا حسد) ووصف اليهود بأنهم ابتلوا بداء الحسد ، فمنعهم من اتباع الحق ، وذلك أن الحسد يفسد الطباع ، ويكدر الفطرة : (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم ، من بعد ما تبين لهم الحق) . (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) والمراد بالناس — هنا — النبى صلى الله عليه وسلم ، وأتباعه المؤمنون من العرب .

وقد روى عبد الله بن بسر — رضى لله عنه — عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ليس منى ذو حسد ، ولا نميمة ، ولا كهانة ، ولا أنا

منه » . ثم تلا قوله تعالى « والذين يؤذون المؤمنين ، والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا واثما مبينا (١) » فكأنه صلى الله عليه وسلم جعل هذه الأخلاق الذميمة بعض المراد فى هذه الآية من ايذاء المؤمنين والمؤمنات .

* * *

ودعا القرآن الى تطهير النفس من اليأس ، لأن اليأس يقتل الطموح ، ويقضى على كل أمل فى تقدم البشرية : (انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون) .

ودعا الى التخلص من الخوف : (فلا تخافوهم وخافون) . (واياى فارهبون) أى لا ترهبوا أحدا غيرى .

ودعا فى كثير من آياته الى تخليص القلب من الخضوع لأحد غير الله ، قال تعالى : (يوم لا ينفع مال ولا بنون . الا من أتى الله بقلب سليم) .

وقد سمع أحد العارفين عالما يفسر هذه الآية ، فيقول : أتى الله ، وليس فيه أحد غيره . فقال : منذ ثلاثين سنة ما سمعت خيرا من هذا التفسير .

* * *

وهكذا . لو تتبعنا آى القرآن لوجدناه عنى بتطهير النفس من جميع الخواطر السيئة والأخلاق النفسية الذميمة .

وسيأتى لكل ذلك مزيد من البيان فيما يأتى من فصول الكتاب — ان شاء الله — .

* * *

٦ ـ ضوابط النفس

قدمت أن عوامل خارجة عن النفس البشرية تنحرف بالدوافع النبيلة عن طريقها القويم ولكن الله — سبحانه — حاط هذه الدوافع بضوابط ، لو

(١) الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٢٢٧ . للحافظ المنذرى .

تعاونت ، وأدى كل ضابط وظيفته على الوجه الأكمل لظلت الفطرة نقية ، طاهرة ، ولظلت هذه الدوافع بمنجاة من الانحراف .

وقد عنى القرآن بهذه الضوابط ، ودعا الى تنميتها ، وهيأها لتصل بالنفس الى المستوى الذى هى جديرة به ، فتعلو بها عن صغائر الأخلاق ، وتحفظ عليها فطرتها كما برأها الله تعالى .

ومن أقوى هذه الضوابط تأثيرا على النفس وسلوكها :

١ ـ العقل

وهو قوة فطرية ، فضل الله بها الانسان على الحيوان ، فليس الانسان فى حساب المعانى السامية الا عقلا ، ولسانا ، كما قال الشاعر العربى :

لسان الفتى نصف ، ونصف فؤاده

فلم يبق الا صورة اللحم والدم

قال الجاحظ : وقد جمع محمد بن على بن الحسين ، صلاح شأن الدنيا بحذافيرها فى كلمتين فقال : صلاح شأن التعايش والتعاشر . ملء مكيال ثلثاه فطنة وثلثه تغافل . فلم يجعل لغير الفطنة نصيبا من الخير ، ولا حظا فى الصلاح لأن الانسان لا يتغافل الا عن شىء قد فطن له وعرفه .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « ما اكتسب ابن آدم أفضل من عقل يهديه الى هدى أو يرده عن ردى » .

واننا لنرى فرقة من فرق المسلمين الكبرى — وهى فرقة المعتزلة — ترى أن معرفة الله تعالى واجبة بالعقل ، وأن الأمم التى لم يرسل الله اليها رسلا محاسبة على كفرها بالله ، وتفسر (الرسول) فى قوله تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) بالعقل .

والعقل المكتمل يدرك الشر على حقيقته ، ويدرك الخير على حقيقته ، وهذا الادراك من أكبر الحوافز على كره الشر ، ومحاولة الابتعاد عنه ، وعلى حب الخير والعمل على الاستزادة منه .

ومن رأى بعض فلاسفة اليونان — كما أسلفت — أن الانسان لا يرتكب الشر الا عن جهل به ، ولا يترك الخير وقد عرفه .

وجمهرة فلاسفة المسلمين يرون أنه لا يقال للانسان عاقل لمجرد ادراكه الأشياء بل يشترطون — مع ذلك — أن يكون العاقل ذا دين وفضيلة .

ويقول بعض المعاصرين : ان المعقول ما كان متفقا مع قواعد الأخلاق وأوامر الدين ، وغير المعقول ما خرج على هذه الأوامر والقواعد .

فالعاقل هو الذى يتحكم فى أفعاله ، ويستطيع أن يخضعها لمصلحته أو لمصلحة المجتمع .

ومما روى عن سيدنا عمر :

عرفت الشر لا للشر ، لكن لتوقيه
ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

والقرآن الكريم جعل ضعف العقل سببا فى الكفر ، والضلال : (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير) .

ووصف الذين يستهزئون بالاسلام ، وبشرائعه بأنهم لايعقلون : (واذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) .

بل نفر أشد التنفير من الذين لا يستعملون عقولهم ، ووصفهم بأقسى وصف يوصف به انسان فى قوله : (ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) .

* * *

وقد دعا القرآن الى تنمية العقل ، فحث على التأمل فى ملكوت السموات والأرض ، وفى آفاق النفوس البشرية ، لمعرفة أسرار الكون وعجائب الفطر .

وما تدركه الحواس من مظاهر الحياة ، ثم التأمل الداخلى فى النفس لهذه المدركات ، هذا هو ما ينمى هذه القوة الفطرية التى أودعها الله فى جبلة الانسان وهى العقل .

والعقل ككل جزء فى الآلة ، وكل عضو فى الانسان ، متى أهمل ضعف عن أداء وظيفته ، كما أن أى جزء من أى آلة اذا أهمل صدىء ، وتوقف ،

وكما أن أى عضو فى جسم الانسان اذا ظل زمنا طويلا لا يعمل فقد القدرة على العمل ، أو كاد .

وعمل العقل ، هو الفكر ، والتأمل ، ومن هنا كرر القرآن فى آيات كثيرة الدعوة الى النظر والتفكر ، وكان ذلك عناية بالعقل ، وعملا على استحصافه وتقويته .

وانما كان العقل ضابطا من ضوابط النفس وعاصما من جموح الغرائز لأنه — اذا صفا — يحجز عن الشر ، ويبعد صاحبه عن الغواية .

فالنفس البشرية قد يسول لها الشيطان الشر ، ويدعوها اليه ، وقد يزين لها الأشرار الى الغواية ، ولكن العقل يعصمها ، ويحول بينها ، وبين الخسران والهلاك .

* * *

والعلم يوسع آفاق العقل ، وهما أمران متلازمان ، وقد رفع الله من شأن العلم والعلماء ، بل جعل خشية الله لا تكون الا من العلماء : (انما يخشى الله من عباده العلماء) وبالغ فى الحث على التعلم ، فكانت أول آية نزلت من القرآن تشيد بشأن العلم ، وتأمر به : (اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم) .

ثم جاءت آيات القرآن تترى ، تحث على التعلم ، وترفع من شأن العلم، وهى كثيرة ، بل فوق الكثيرة .

* * *

٢ — تربية الارادة

ومن الناس من يدرك الشر ، ويقدر نتائج اقترافه ، ويظل فى صراع بين عقله الذى ينهاه ، وعاطفته التى تدفعه ، وكثيرا ما يتغلب العقل على العاطفة، لأن الانسان بطبيعته محب للسلامة كاره للوقوع فى المكاره ، ولكن قد تكون العاطفة عنيفة حادة ، فلا يستطيع العقل أن يقف فى سبيلها ، وحينئذ

يحتاج العقل الى معاونة من قوى أخرى تؤازره ، من داخل النفس البشرية، ولم تحرمه العناية الالهية من هذه القوى ، ونخص منها هنا قوتين أولاهما الارادة وثانيتهما (العاطفة الدينية) .

* * *

والارادة هى القوة الدافعة الى العمل ، أو الصادرة عنه ، وهى التى تكبح جماح النفس ، وتجذب بقوة وعنف عنان الشهوات ، فتردها عن غايتها .

وحياة الفرد ، وحياة الجماعة لا شيء بغير ارادة قوية صارمة ، فان المرء كثيرا ما تعترض طريقه عقبات دون تخطيها أهوال وأهوال ، ولو أنه خضع لها ، واستكان لضغطها لبقى واقفا فى مكانه ، ولكنه حين يتقحمها ، واحدة اثر واحدة ، لا يبالى أين وقعت قدمه من مزالقها ، يستطيع أن يتغلب عليها ، وأن يسير فى طريقه الى غايته ، مرفوع الرأس ، موفور الكرامة ، مطمئن النفس ، راضى الضمير .

فاذا فتحت الطريق ، وجعل يسير فيها ، لا يجد عونا على المضى فى هذه الطريق التى ربما تكون مملوءة بالأشواك الا ارادة قوية ، وعزيمة ماضية ، وقلبا رابط الجأش ، ونفسا عامرة بضرورة الهدف الذى تسعى اليه .

ونحن لم نخلق وبين جوانحنا الارادة القوية ، والعزيمة الصارمة،وانما تعترضنا ظروف الحياة ، وتؤثر فينا بيئاتنا وتربيتنا .

فمنا يكون صاحب العود الصلب ، والرأى النافذ ، ومنا يكون صاحب العود الرخو ، والعزم المتخاذل ، والنفس الخائرة .

ولا يخالجنا شك فى أن الفوز والظفر حليف الماضين فى طريقهم ، المتحاملين على أنفسهم ، المستهينين بكل المتاعب والمشقات ، وأن الاخفاق والخذلان هما نصيب الضعفاء ، الذين يقدمون رجلا ، ويؤخرون أخرى . فاذا أصاب الفوز هؤلاء الضعفاء — مرة — فانما هى رمية من غير رام ، وانما هو حظ ضل الطريق .

وكل تربية فاضلة ، سواء أكانت شريعة سماوية ، أو نظما وضعية ، تجعل من أهدافها الأولى تربية الارادة ، وتقويتها ، وشحذها ، فهى تحاول أن تجعل من الطفل رجلا ، ومن الرجل بطلا .

وعلى الضد من ذلك تعمل التربية الفاسدة ، سواء فى البيت ، أو فى المدرسة على خلق أشباح ضعيفة الارادة ، خائرة العزم ، ترى الرأى ولكنها تنكل عن تنفيذه ، فهى لا تثبت فى معركة ، ولا تصبر على نضال ، ولا تصدق فى جهاد .

والارادة — من حيث هى ارادة — وجدت مع الطفل أول ما طرفت عينه بأجواء هذه الحياة ، يظهر ذلك فى نزوع الطفل الى الضحك ، والى البكاء ، وفى اندفاعه الى ثدى أمه ، ولكن التربية ، والتعاليم هى التى تقويها ، أو تضعفها ، والانسان بذكائه وارادته يتحكم فى غرائزه ، فيوجهها حيث يشاء .

والقرآن الكريم — بل والاسلام بعامة — جعل من كثير من تعاليمه ، وسائل ناجحة لتربية الارادة .

كما أمر القرآن بالمضى للعمل عندما يتبين الهدف : (فاذا عزمت فتوكل على الله) ومعناه اذا صممت على العمل فامض غير متهيب ، و لامتريث ، ووضع التوكل على الله موضع هذا يدل على أن الانسان مهما كانت ثقته فى نفسه ، وتمكنه من ناصية قصده فانه لا يستغنى عن التوكل على الله ، لأن قوة الله أقوى ، وأمره أنفذ .

ومساق الآية يحدد المجال الذى ينبغى أن تمضى فيه الارادة ، وهو مجال المصلحة ، والخير للمسلمين ، فقد سبقت هذه العبارة بالأمر بمشاورة النبى أصحابه ، وطبيعى أنه لا يشاورهم الا فى الخير ، ومن هنا فاننا حين نتكلم عن الارادة التى عنى الاسلام بتربيتها انما نعنى الارادة التى تمضى فى طريق الحق والخير .

وكذلك وجه القرآن نبيه الكريم الى أن يتذرع بالارادة القوية كما تذرع من قبله أصحاب هذه الارادة فوصلوا الى غاياتهم السامية : (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) .

بل جعل القرآن السبب الأول الذى هبط بآدم من الجنة الى هذه الأرض أن أبانا عليه السلام لم تقو ارادته على الحرمان من ثمرة الشجرة التى نهى عن الأكل منها قال تعالى : (ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما) .

ومن الوسائل التى اتخذها القرآن لتربية الارادة (الحلم) فقد امتدحه الاسلام وجعله سيد الأخلاق ، وليس الحلم الا كظم الغيظ ، وكبح جماح النفس ، ومدافعة غريزة قوية هى غريزة حب الانتقام التى تطورت — بفعل البيئة والتربية غير السليمة — عن غريزة الدفاع عن النفس ، وقد تكون — حينئذ — قوية ، عنيفة ، وسلاحها فى يدها فهى قادرة على أن تغمده فى صدر خصمها ، ولكن المؤمن — وحده — هو الذى يضبط — عندئذ — نفسه ، ويربط أعصابه بأسلاك متينة ، فيعفو عمن ظلمه ، وهو قادر على رد الكيل كيلين ، وعلى أن يبلغ نفسه شهوتها ، وأن يشفى جراحها ، فما الذى يقف حائلا دون نفسه وبلو غمناها ، انه الذى نسميه (الحلم) وما هو فى الحقيقة الا ارادة جبارة ، تغلب نفسها ، وتغلب شيطانها ، وقد نمت هذه الارادة ، وشبت ، واكتهلت ، وبلغت أشدها امتثالا لتعاليم الاسلام .

فقد جعل القرآن الكاظمين الغيظ من أصحاب الدرجات العلا عند الله ، ومن المسارعين الى جنة ، عرضها السموات والأرض ، كما جاء فى سورة آل عمران : (وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين الناس ، والله يحب المحسنين) .

واعتد الحديث الشريف الحلم من أحب الأخلاق الى الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : (ما تجرع عبد جرعة أحب الى الله من جرعة مصيبة ، يردها بحسن عزاء ، أو جرعة غيظ يردها بحلم) .

فهى — اذن — جرعة مريرة ، لا يصبر عليها الا الأقوياء ، ولذلك اعتدها الرسول القوة الحقة ، فجعلها امتلاك النفس عند هيجان نوازعها ، فقال صلوات الله عليه : (ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب) .

ومن الوسائل الناجحة لتربيــة الارادة (كتمان البــلاء) . ذلك أن الشكوى تنفس عن المكروب ، وتسلى المهمــوم ، فلا يكاد ينــزل البلاء بانسان حتى يفيض لسانه بالشكوى ، أما أصحاب الارادة القوية ، فانهــم يضحكون ،وقلوبهم باكيــة ، ونفوسهم حزينــة . وانك لتراهم فتحسبهم سعداء لا ينقصهم من متع الحياة شيء ، وربما بات أحدهم ، وأصبح،وليس عنده قوت ساعة ، وربما بات مســهدا قلقا ، يعــانى مرضا قاتلا ، أو هما مخترما ، أو محنة قاسية فى النفس أو فى المال . وفى ذلك يقول الشاعر الأمير أسامة بن منقذ :

نافقت دهرى، فثغرى ضاحك جذل

جــلد ، وقلــبى مكمــد بــاك

وراحة النفس فى الشكوى ولذتها

لو أمكنت لا تساوى ذلة الشاكى

وفى الناس رجال ضربوا المثل الأعلى فى كتمان البلاء ، فقد روى عن الأحنف بن قيس أنه قال : أصبحت يوما اشــتكى ضرسى ، فقلت لعمى : ما نمت البارحة من وجع الضرس ، حتى قلتها ثلاثا ، فقال : لقــد أكثرت من ضرسك فى ليلة واحدة ، وقد ذهبت عينى هــذه منذ ثلاثين ســنة ، ما علم بها أحد .

ويقول بشار بن برد :

ان الــكريم ليخفى عنــك علتــه

حتى تــراه غنيــا ، وهو مجهــود

وجماع القول فى كل ذلك قوله تعالى فى وصف فريق من خلاصــة المؤمنين : (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف) .

وطبيعى أن واحدا من هؤلاء لم يولد بارادة قوية ، ولكنه رأى الاسلام يثنى ثناء مستطابا على من يكتمون البلاء ،ورأى كذلك أن الكرامة الانسانية التى تفضل الله بها على الانسان تأبى أن يذل الانسان بالشكوى لغير الله ، فجاهد نفسه ، وظل يجاهدها على كتمان البلاء فأخذت ارادته تنمو بالتدريج حتى استحصفت وقويت ، وكل ذلك بفضل تعاليم الاسلام .

وأشد من كتمان البلاء كتمان الصـــدقة ، فالنفس نزاعة الى التظاهر بفعل الخير وفيها داء خفى يدب دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء ، فى الليلة الظلماء . ذلك هو الرياء ، وقد حارب القرآن هذا الداء ، ودعا الى كتمان الصدقة : (يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر) . (ان تبدوا الصدقات فنعما هى وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) .

وهكذا اذا تعود المسلم أن يكتم ما يتصدق به ظلت ارادته تنمو حتى تصبح فى نفسه سجية تصدر عنها أفعاله ، وكأنه لا يتكلف ولا يتعمل ، لأنه طالما راض نفسه على مكروهها ، وأرادها على الشدة .

ومن وسائل الاسلام لتربية الارادة (الصوم) ففضائل الصوم كثيرة ، ولعل من أجلها العمل على تربية الارادة فى الرجل المسلم ، حتى يقوى على طاعة الله ، وحتى يقوى على دوافع الشر ، فلا يخضع لها .

ولقد يبدهك أصحاب الشهوات حين تنصحهم بالتخلى عنها ، قائلين : العادة طبيعة ثانية ، والانسان ابن عادته ، وأمثال هـــذه العبارات التى تدل على الخضوع الذليل لما اعتادوا ، ولو أنهم فقهـــوا معنى ما كلفـــوا به من الامتناع عن الطعام والشراب ، والشهوات مدى شهر كامل لعرفوا أنه من السهل الميسور أن يتغلب الانســـان على العـــادة ، وأن يخلص نفســـه من أوزارها ، وأن الاسلام أراد من فريضة الصيام — فيما أراد — أن تقـــوى الارادة على التخلص من كل ما يضر بالمسلم ، فى دينه ، ودنياه .

ان الارادة القوية لا يقف أمامها شىء ، وهى — عند المسلم — معين أى معين على فعل الطاعات ، والابتعاد عن المعاصى .

* * *

٣ ـ العاطفة الدينية :

قد يتبين العقل الطريق واضحة ، وقد تقوى الارادة ، ولكن يتنكب الانسان الجادة ، ويحيد عن قصد السبيل ، فليست المعـــرفة وحدها كافية لتوجيه الانســـان الى الخير — كما أكد بعض الفلاســـفة — والا لما أخطأ

العلماء ، وزل كثير من العارفين ، فكان لابد أن تكون من وراء العقل ومع الارادة عاطفة دينية سليمة ، موجهة الى أفضل السبل ، وأحسن الأعمال .

والانسان قد يخضع لدوافع عديدة ، تتحكم فى سلوكه ، ولكن خضوعه لعاطفته الدينية لا يعدله خضوع لأية قوة أخرى .

ألم يقل الأنصار — رضى الله عنهم أجمعين — للنبى صلى الله عليه وسلم : والله لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك .

ألم يترك المهاجرون — رضوان الله عليهم — مكة ، وهى أحب البلاد اليهم ، وفيها أموالهم ، وأولادهم ، وعشائرهم .

أليس قد لقى أصحاب محمد المستضعفون ألوانا من العذاب فى مكة على يد السادة من قريش ، ولم يفتنهم شىء من ذلك عن دينهم .

ألم يكن أناس من قبلنا كانت تنشر رءوسهم بالمناشير ، فلا يثنيهم القتل ، والتمزيق عن عقيدتهم ؟.

بلى . قد كان كل ذلك ، وهو أثر من آثار العاطفة الدينية المسيطرة على النفس المؤمنة ، وهذه العاطفة هى أصلح الغرائز الانسانية لمعالجة التطرفات ، فهى القوة العليا المعدلة لما يطرأ على السلوك من خلل .

لذلك عنى القرآن الكريم بهذه العاطفة ، فى تكوينها ، وتنميتها ، وتهذيبها أكمل عناية ، وحاطها بأسباب البقاء أتم حياطة .

فأول ذلك عنايته بتربية النفوس على الحق ، والخير ، وغرس عقيدة التوحيد الخالص فيها .

وكل آياته فى العقيدة ، وفى الأخلاق ، وكل تشريعاته فى العبادات تهدف الى هذه الغاية .

وقد أشارت أول آية نزلت من القرآن الى مكانة التربية ، وعظم شأنها : (اقرأ باسم ربك) هكذا (ربك) من الربوبية ، ومن التربية ، فقد كان من الممكن أن يجىء أى اسم من أسماء الله تعالى فى هذا الموضع ، لكن ايثار لفظ (الرب) يدل على اشعار النبى صلى الله عليه وسلم بأن هذا الذى اصطفاه للرسالة هو (ربه) ومربيه ومؤدبه ، وصانعه على عينه .

وقد قال المعنيون باحصاء ألفاظ القرآن : ان كلمة (رب) وردت فى القرآن لكريم أكثر من ألف مرة ، وهذا من أقوى الدلالات على مبلغ عناية القرآن بتربية هذه لعاطفة .

وهذه العاطفة — كما أشرت — لازم من لوازم الفطرة ، والانسان — مهما بغى ، وتجبر ، وكابر — لا غنى له عن التدين .

قال أحد الفلاسفة الفرنسيين يجيب عن هذا السؤال : لماذا أنا متدين ؟ (انى لم أحرك شفتى بهذا السؤال مرة الا أرانى مسوقا للاجابة عليه بهذا الجواب ، وهو : أنا متدين لأنى لا أستطيع أن أكون خلاف ذلك ، لأن التدين لازم معنوى من لوازم ذاتى) .

وقد يفجر الفاجر ، وقد يهمل تعاليم دينه جملة ، وتفصيلا ، ولكنه يثور حين يشعر بأى مساس بعقيدته ، ويدافع عنها كما يدافع عن أغلى شىء لديه.

فللدين مكان ثابت فى النفس ، لا يبرحه ، وان تراكمت عليه بعض الأتربة النفسية حينا ، لكنه يظهر ، ويتوهج حين تضطره المناسبات ، والظروف .

ومن وسائل الاسلام فى تربية هذه العاطفة محاربة التقليد الأعمى للآباء والأجداد ، والكبراء والسادة ليحفظ عليها ذاتها ، واستقلالها ، فتؤدى وظيفتها كاملة فى ضبط النفس ، وكبح جماحها ، فان التبعية تضعف عوامل النماء ، وتفقد التابع أهم عتاده فى مواجهة ما يطرأ من شئون .

وللعقل سلطان قوى على النفوس ، وربما زاغ العقل ، أو ضل ، فأوجد الله فى نفوسنا هذه العاطفة ، وغذاها بما يحفظ عليها كيانها لتحد من استقلال العقل وتطامن من سلطانه ، فلا يكون السيد المطلق فى أوامره، ونواهيه .

ومن مظاهر تربية العاطفة الدينية عناية الاسلام باصلاح القلب ، وقد أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أن صلاح القلب هو أساس كل صلاح ، فقال : (ألا ، وان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب) .

ومن اصلاح القلوب اشعارها بأن الله مطلع على ما تكنه ، وسيحاسبها عليه ، وأن الله معها ، فينبغى أن تراقبه ، وأن تشعر دائما بقربه منها : (ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ان الله بكل شىء عليم).

لا شك أن شعور المسلم بأن الله يراقبه ، يجعل قلبه فى مراقبة لله دائمة وهذه المراقبة تنير القلب ، وتهديه الى الخير ، وتباعد بينه وبين الشر.

ومن وسائل اصلاح القلوب اشعارها بهيبة الله ، وعظمته ، وكثير من آيات القرآن تبعث فى النفس المؤمنة هذه الهيبة ، وهذه العظمة .

فاذا عمرت القلوب بمراقبة الله ، واستحضرت دائما هيبته نجت من سطوة الغرائز حين تجمح ، وأعانت العقل والارادة ودفعت بهما الى الامام حين تتخاذل عن الحق والخير .

* * *

٤ ـ القــدوة الحسـنة

أودع الله ــ سبحانه ــ فى النفس الانسانية غريزة (المحــاكاة) وهى غريزة اجتماعية تبعث فى النفس الاهتمام بما يفعله الآخرون ، وتزين لها أن تحاكيهم فى كل ما يبعث البهجة والسرور فيها ، من هذه الأفعال .

وهذه الغريزة تعمل من أول يوم يدرك فيه الطفل ما حوله ، فهو يحاول أن يقلد كل الذين يخالطهم فى أفعاله الحسية ، والمعنوية .

والمحاكاة ذات أثر فعال فى معتقدات النــاس ، وسلوكهم ، ذلك أن الأفعال تصدر بسببها تلقائيا دون تسلط العقل ، مع ما يصحبها من الرغبة فى الفعل ، ومن رأى بعض علماء النفس : أن المعلومات التى نسـتفيدها من المحاكاة أشد وقعا فى نفوسنا ، وأعظم اثارة للشرور فى قلوبنا من المعلومات التى نستفيدها عن طريق الحواس .

وعلماء التربيـــة ، وعلمـــاء النفس يكادون يجمعـــون على أن أخلاق الانسان تتكون فى السنوات الأولى من حياته ، فتتأصل فى نفسه ،وتصبح عادات له ، وربما بلغت حد الطبائع .

فالأبوان فى المنزل هما المربيان الحقيقيان لأطفالهما ، لا بقولهمافحسب، بل بفعلهما أيضا ، وهو الأول ، والأعمق أثرا ، فعلى ما يكون عليه الأبوان من خلق ينشأ الأطفال وعلى ما تكون عليه الأم من سلوك ينهج أبنـــاؤها ، وبناتها ، فاذا كان الرجل فاضلا مستقيما شب أبناؤه على الفضل والاستقامة، واذا كان معوج السلوك ، مختل الخلق ، نشأ أبناؤه على ذلك .

وقد تنبه الى ذلك الشاعر العربى الأول ، فقال :

وينشـــأ ناشىء الفتيان منـــا
على ما كان عـــوده أبـــوه

واذا كانت الأم طاهرة الذيل ، نظيفة السلوك ، نشـــأ بناتها فاضلات ، مستقيمات وفى الأمثال العامية ما يؤكد ذلك .

وعبثا يحاول الوالد أن يغرس الفضيلة فى نفوس بنيه ، أو ينشئهم على حب الخير ، والاستقامة ، وهو عابث بالأخلاق الفاضـــلة ، حائد عن جادة الخير ، وما أصدق قول الشاعر :

اذا كان رب البيت بالدف ضـــاربا
فشـــيمة أهل البيت كلهـــم الرقص

وأيد الفلاسفة المتقدمون ، والمتأخرون أثر المنزل فى حياة الطفل ، حتى رأى بعضهم أن الأطفال حين يذهبون الى المدرسة فى السادسة أو الثامنة من أعمارهم انما يذهبون بأخلاق قد تكونت تقريبا، وعادات متأصلة فى النفوس، والقلوب ، بل بعادات عقلية أيضا ، وكل ما يستطيعه المعلمون ـــ حينئذ ـــ انما هو أشعة النور .

هذا حق ، ولكن من الحق أيضا أن هـــذه الأخلاق مهما تأصلت فى النفس ، بل الغرائز نفسها اذا انحرفت ، وتأصل انحرافها من الممكن تغييرها، ومن الواضح فى ذلك قول الله تعالى : (ان الانسان خلق هلوعا ، اذا مسه

الشر جزوعا ، واذا مسه الخير منوعا ، الا المصلين ... الآيات) وذلك أن العبادات المذكورة فى هذه الآيات — بل كل العبادات — تشعر القلوب بعظمة الله وكبريائه ، فتنمو العاطفة الدينية — كما أسلفنا فى الفصل السابق — وبذلك تتنزه النفوس عن اتيان الفواحش ، ما ظهر منها ، وما بطن ، وتعمل جاهدة على التخلص من كل رذيلة ، فاذا أعاقتها الارادة الماضية قضت على ما استقر فيها من أخلاق سيئة واستبدلت بها أخلاقا محمودة .

ويرى الامام الغزالى أن الجبلات كلها قابلة للتغيير ، غير أن بعضها سريع القبول ، وبعضها بطىء القبول ، ومرجع ذلك الى قوة الغريزة ، وامتداد مدة وجودها ، وتأكد الحق — أو ضعفه — بكثرة العمل بمقتضاه أو قلته .

واذا كان الأمر — كذلك — وكان للمحاكاة أثرها الذى أشرنا الى شىء منه ، كانت (القدوة الحسنة) احدى الوسائل الناجحة فى تكوين الأخلاق الفاضلة ، وفى تغيير الأخلاق من سيىء الى حسن .

ولما كانت الغرائز لا تؤتى ثمرتها المرجوة الا اذا نمتها التربية الصحيحة نبه الله عباده المؤمنين الى أن يقتدوا برسوله الكريم : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) .

ونهى عن الركون الى الظالمين ، والميل اليهم ، والاختلاط بهم : (ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار) .

وقد اختلف المفسرون فى معنى الركون . وأيا ما كان فان فيه الرضا بما يعمله الظالمون ، سواء كانوا كفارا ، أو مسلمين ، ومخالطتهم ، وزيارتهم ، ومؤانستهم ، وكل ذلك يترك أثره فى النفس ، فتصيبها عدواهم ، وهذا يؤدى بها الى النار .

ولقد أمر الله فى القرآن رسوله الكريم أن يعرض عن الذين يخوضون فى آيات الله : (واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره واما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) والأمر موجه للرسول ، ولمن آمن به ، وانما أمرهم بذلك

لأن أقل ما فى الاقبال على الخائضين ، والقعود معهم ، اقرارهم على خوضهم ، واغراؤهم بالتمادى فيه ، وأكبره أنه رضاء به ، ومشاركة فيه .

ولذلك — كما يقول السيد رشيد رضا — حذر السلف الصالحون من مجالسة أهل الأهواء ، أشد مما حذروا من مجالسة الكفار ، اذ لا يخشى على المؤمن من فتنة الكافر ما يخشى عليه من فتنة المبتدع ، لأنه يحذر من الأول على ضعف شبهته ما لا يحذر من الثانى ، وهو يجيئه من مأمنه (١) .

وفى معنى هذه الآية ، ما جاء فى سورة النساء : (وقد نزل عليكم فى الكتاب أن اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره انكم اذا مثلهم) . وفى الكلمة الأخيرة : (انكم اذا مثلهم) تنفير شديد من القعود مع الكافرين بآيات الله ، المستهزئين بها ، وما من شك فى أن من أسباب هذا النهى أن من قعد مع انسان ، ومال اليه تأثر به ورضى عن قوله ، وهذا هو معنى هذه الكلمة .

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تنهى عن موالاة من يحاد الله ، ورسوله، وموادتهم . ومن بعض أسرار ذلك كما قلت خوف أن يتطبع الموالى لهم ، بطبائعهم ، أو ينحاز الى عقائدهم .

وقد بسط مسكويه فى كتاب تهذيب الأخلاق أثر مخالطة أهل السوء على النفس الانسانية ، فقال وهو يتحدث عن دواء النفوس : (اذا كانت خيرة فاضلة تحب نيل الفضائل ، وتحرص على اصابتها ، وتشتاق الى العلوم الحقيقية ، والمعارف الصحيحة ، فيجب على صاحبها أن يعاشر من يجانسه ، ويطلب من يشاكله ، ولا يأنس بغيرهم ، ولا يجالس سواهم ، ويحذر كل الحذر من معاشرة أهل الشر ، والمجون ، والمجاهرين باصابة اللذات القبيحة ، وركوب الفواحش ، المفتخرين بها ، المنهمكين فيها ، ولا يصغى الى أخبارهم مستطيبا ، ولايروى أشعارهم ، مستحسنا، ولا يحضر مجالسهم مبتهجا .

وذلك أن حضور مجلس واحد من مجالسهم ، وسماع خبر واحد من أخبارهم يعلق من وضره ، ووسخه ، بالنفس ما لا يغسل عنها الا بالزمان

(١) تفسير المنار ج ٧ ، ص ٥٠٦ ، ط أولى

الطويل ، والعلاج الصعب ، وربما كان سببا لفساد الفاضل المحنك ، وغواية العالم المتبصر ، حتى يصير فتنة لهما ، فضلا عن الحدث الناشىء ، المسترشد) .

والأصل فى ذلك هو ما بينه الرسول الكريم حين شبه الجليس الصالح بحامل المسك ، والجليس السوء بنافخ الكير ، فالأول اما أن يعطى جليسه من مسكه ، أو يبيعه واما أن يجد الجليس منه ريحا طيبا ، والثانى اما أن يحرق ثوب جليسه ، أو بدنه ، واما أن يجد الجليس منه ريحا خبيثة .

وانى لأعجب كلما مر بخاطرى قول هذا الواعظ :

انظر لقولى ، ولا تنظر الى عملى ينفعك قولى ولا يضرك تقصيرى

فهذا رجل يخاطب العقل ، ويتجاهل القلب ، والواعظ الناجح هو الذى يتجه الى القلب فيؤثر فيه ، ولن يصل الى هذه الغاية الا اذا كان القدوة ، فيما يأمر به ، وفيما ينهى عنه ، وكيف تؤثر الموعظة الحسنة فى النفوس ، وصاحبها أبعد الناس عن العمل بها .

ولذلك كان الحسن البصرى — رحمه الله — اذا أمر بشىء أول المسارعين الى فعله ، واذا نهى عن شىء أول التاركين له :

ما أقبح التزهيد من واعظ يزهد الناس ، ولا يزهد
لو كان فى تزهيده صادقا أمسى ، وأضحى بيته المسجد
يخاف أن تنفذ أرزاقه والرزق عند الله لا ينفذ

ولذلك كان الواجب على العاقل أن يصحب الأخيار ، ويتجنب الأشرار: (رب من صادقته مثل الجرب) .

وقديما قال بعض الصالحين : كلما فترت فى العبادة نظرت الى محمدبن واسع — وكان من كبار الزهاد — واقباله على الطاعة ، فيرجع الى نشاطى فى العبادة ، ويفارقنى الكسل .

والانسان منسوب الى من يصادق ، ولذلك قال ابن مسعود — رضى الله عنه — ما من شىء أدل على شىء ، ولا الدخان على النار ، من صاحب على صاحب) وقال عدى بن زيد :

عن المـرء لا تسأل ، وسـل عن قـرينه
فـكل قـرين بالمقـارن يقتـدى
اذا كنت فى قـوم فصـاحب خيـارهم
ولا تصحب الأردى ، فتردى مـع الردى

وجاء عن بعض الحكماء قوله : (اعرف أخاك بأخيه قبلك) ،وروى أن الناس قدموا الى مكة المكرمة — زادها الله شرفا — فقال بعضهم لأهل مكة : قدمنا الى بلدكم ، فعرفنا خياركم من شراركم فى يومين ، قالوا له : وكيف ؟ قال : لحق خيارنا بخياركم ، وشرارنا بشراركم ، فألف كل شكله.

وقال أبو الحسن عبد الكريم بن فضال القيروانى :

واذا أردت ترى فضـيلة صـاحب فانظـر بعـين البحث من ندمانه
فالمرء مطـوى عـلى عـلاته طى الـكتاب ، وصـحبه عنوانه

هكذا كانت القدوة ، وسيظل أثرها ما بقى الناس يستجيبون لغرائزهم الفطرية فيهم ، ولذلك عنى القرآن الكريم بها ، وجعلها ضابطا من ضوابط النفس ، ان تهيأت للنفس بيئة صالحة ، ومخالطون على دين ، وخلق .

٥ ـ القرآن رد العرب الى الفطرة

جاء القرآن الكريم ، وقد بلغ الفساد ذروته فى معتقدات العـرب ، وأخلاقهم ، وحياتهم الاجتماعية ، والسياسية ، فشرع لهم دينا أخرجهم من الظلمات الى النور ، ولم تكن هذه الظلمات التى تردوا فيها الا فسـاد فطرهم السليمة ، وانحراف طبائعهم القويمة .

ولم يمس عقائدهم ، ولا أخلاقهم التى تسير فى اتجاه الفطرة السليمة ، بل أقرهم عليها .

وجدهم يعبدون الأصنام ، ويعبدون الكواكب وغيرها ، وهذهالعبادة لا تقرها الفطرة ، لأن الانسان لا يشعر فى قرارة نفسه — عند التأمل — ان هذه المعبودات تستحق العبادة ، ولذلك أخبر القرآن أن هؤلاء العرب لو سئلوا من خلق السموات والأرض لأقروا بأنه الله .

وسنعقد لهذه القضية فصلا من فصول الكتاب .

ووجدهم يقترفون ألوانا من الرذائل لا تتفق مع الشعور الكريم للانسان المهذب فنهاهم عنها .

فالفطر السليمة تنفر — مثلا — من زواج امرأة الأب ، أو من الجمع بين الأختين ، أو اكراه جواريهم على البغاء ، فشرع لهم تحريم كل ذلك .

والطبع السليم ينفر من الزنا ، ومن الخمر ومن الربا فحرمها كلها عليهم . والطبقية المقيتة ، والعصبية الجائرة ، والظلم ، والبغى بغير الحق لا يقر شيئا من ذلك الا الطبائع الفاسدة . فشرع الاسلام المساواة ، ورد الناس اليها بأقوم حجة وأوضحها : (يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم) وحارب العصبية والقبلية وأعلن أن المؤمنين اخوة ، ومن شأن الاخوة ألا تفرقهم عصبية : (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا) .

ونهاهم الرسول أن يصدروا فى أى عمل عن عصبية فمن قتل تحت راية عمية ، تغضب لغضبه ، أو تقاتل لعصبيته فقتلته جاهلية (١) .

وحرم القرآن كما حرمت السنة ، الظلم والبغى فى آيات وأحاديث كثيرة ، وهكذا نجد القرآن فى كل ما حرم ، وما أحل مراعيا للفطرة ،وقد قال بعض الباحثين : ان الاسلام بنى على أصلين عظيمين : اقامة الفطرة ، وسلطان العقل ، وأن الاسلام نبه جميع عوامل التكميل فى النفوس وأعد غرائزها لقبول كل ما هو حق ، وجميل ، وأبطل جميع عوامل الفساد فيها .

ولا يحد القرآن من اتجاه الغريزة الا اذا تعارضت مع غريزة أخرى ، وكان أثر هذه الغريزة الأخرى أجدى على النفس ، وأعود عليها بالنفع فى دنياها وأخراها ، ولنأخذ مثلا لذلك حب الأبناء ، وحب الله ورسوله ، وكلاهما غريزة عميقة الجذور فى النفس ، ولكن الغريزة الأخيرة هى سر

---

(١) راية بالتنوين ، وبالاضافة ، وعمية بكسر العين وضمها ، وتشديد الميم . والمراد بالراية الحرب ، والحرب العمية هى المشتبهة التى لا يهتدى فيها الى القصد ، ولا يتبين فيها وجه الرشد ، فهى كالعمياء التائهة .
(من المجازات النبوية للشريف الرضى ص ٤٢٦) .

السعادة فى الحياتين ، وهى أصل لكل خير يأمله الانسان ، فى حياة دنيوية طيبة ، وحياة أخروية ناعمة راضية ، فاذا كانت الأولى تقف دون هـذه ، أو تحد من كمالها كانت موضع التحذير من القرآن ، فالله تعالى يحـذر المؤمنين أن يوادوا من حاد الله ورسوله ، قال سبحانه : (لا تجـد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخـوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الايمان ، وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهـار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم المفلحون)

وبهذه المناسبة نلاحظ أن القرآن يقل أو يكثر مع العاطفة النفسـية على حسب قوتها ، أو ضعفها فهو — مثلا — لا يوصى بالاحسـان الى الأبناء ، ولا ينهى عن ايذائهم الا فى حالات خاصة كأن يقع بالفعل من بعض الجناة ما لا يتفق بحال من الأحوال مع عاطفة الأبوة : « ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ان قتلهم كان خطئا كبيرا (١) » . « ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم » (٢) .

بل ، على العكس من ذلك حذر القرآن من الاسراف فى حب الأبناء ، والاشتغال بهم ، (انما أموالكم وأولادكم فتنة) . (لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله) (يأيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم) .

هذا ، فى حين أكثر من الوصاية بالاحسان الى الوالدين وقرن الاحسان اليهم بعبادة الله فى بعض آيه : (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاوبالوالدين احسانا) . (وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا) . ووصى الانسان بوالديه حسنا فى أكثر من آية ، وما ذلك الا لأن عاطفة الابن نحو والديه لا تبلغ عاطفة الوالدين نحوه ، فكانت فى حاجة الى دافع قوى يدفعها الى الخير ، والى الاحسان فى معاملة الوالدين اللذين ربيا ابنهما صغيرا ، لا سيما أمه التى حملته كرها ، ووضعته كرها .

وصدق الله العظيم : (ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) .

---

(١) الاية ٣١ من سورة الاسراء .
(٢) الآية ١٥١ من سورة الانعام

الله في قلوبنا

١ ـ اللجوء الى الله في الشدة طبيعة نفسية .

٢ ـ الاعراض عن الله فى الرخاء مخالف للفطرة .

٣ ـ التذكير بالنعم رد الى الفطرة .

٤ ـ آيات سورة الروم .

٥ ـ الآيات التى تحـدثت عن خلقى الاقبال والاعراض كلها مكية .

٦ ـ أول اشارة الىهذه الطبيعة فى القرآن .

٧ ـ أول حديث مباشر عن هذه القضية .

٨ ـ عود الى تأكيد هذه القضية .

٩ ـ فرعون يؤمن .

١٠ ـ قوم يونس .

١١ ـ فذلكـة .

عناية القرآن بهذه الظاهرة ، وتكرار الحديث عنها .

١ ـ مس الضر .

٢ ـ اذاقته النعمة .

٣ ـ اليأس والدعاء العريض .

٤ ـ ركوب البحر .

٥ ـ موقف الأقوام السابقين .

٦ ـ عود الى قوم فرعون .

٧ ـ بنو اسرائيل .

٨ ـ لماذا يبتلى الله عباده ؟

٩ ـ ظاهرة التكرار فى القرآن .

١٠ـ الدعاء ... والاجابة .

١ ـ اللجوء الى الله فى الشدة طبيعة نفسية .

ان الانسان الذى لم يفقد انسانيته ، مهما أسرف فى البعد عن الله بما يصيب قلبه من اعتقاد فاسد ، أو بما ينحرف بفطرته من اغراق فى المعاصى، وارتكاس فى الذنوب ، أو بما يختم على سمعه وبصره من عناد وكبرياء وغفلة ، فلا يعى ما جاء به الرسل من توحيد الله ، ولا يرى ما يوجهون نظره اليه من آيات فى الكون وفى النفس تشهد بقدرة الصانع الحكيم الذى لا اله الا هو ...

هذا الانسان لا يكاد يبتلى بشىء من الخوف والجوع ، أو بنقص فى الأموال أو فى الأنفس حتى يهرع الى الله ، ويرجع الى ساحته ، يسأله كشف الضر ، ويدعوه قائما وقاعدا ، وربما صدر عنه هذا كما تصدر عنه الأفعال التى لا ارادة له فيها ، فكما تطرف عينه ، وكما ترتعد عند شدة الخوف فرائصه يخفق قلبه باسم الله ، وتتجه نفسه الى رحمته ، ويشخص ببصره الى السماء ، يطلب العون ، ويذرف الدمع على ما فرط فى جنب الله ، وينسى كبرياؤه وعناده ، بل ، وينسى ما كان يدعو من دون الله ، ان كان قد جعل لله شريكا ، وتستيقظ فى نفسه تلك الطبيعة الفطرية الصافية ، وتبدد ما غشاها من ظلمات الشرك ، أو ماران عليها من أدران المعاصى .

أما المؤمن الذى لا يفتأ يذكر الله فى كل حال ، ويستعينه فى كل أمر اذا نزلت به شدة يكون اقباله على ربه أشد ، ودعاؤه اياه أندى (١) ، وطمعه فى رحمته أوسع .

وكل هذا واقع مشاهد ، فى أنفسنا ، وفيمن حولنا ، وثابت مؤكدفيما قرأنا من أخبار الأمم والأفراد ، وهو ـ بالتالى ـ يؤكد لنا أن اللجوء الى الله عند النوازل والحوازب طبيعة نفسية ، وخليقة جبلية .

٢ ـ الأعراض عن الله فى الرخاء مخالف للفطرة .

والانسان الذى يكون الله جلت قدرته ملء سمعه وبصره وقلبه عند الخوف أو المرض أو الفقر ، أو أية نازلة تنزل به ، هو الذى يبتعد عن ساحة

(١) النـدى ـ بفتحتين ـ بعد الصوت ، وهو ندى الصوت ، كغنى : بعيده ، ومنه قول الشاعر :

فقلت : ادعى ، وادعو ، ان اندى ... لصوت ان ينادى داعيان

ربه قليلا أو كثيرا ـ حسب نصيبه من الايمان ـ عند الأمن والصحة والغنى، وربما رجع الى شركه ، وكفره بآيات الله .

وأحسن الناس حالا ـ بعد الصديقين والصالحين الذين يذكرون الله فى لهيب النقمة ، كما يذكرونه فى ظل النعمة ـ أولئك الذين يؤدون الفرائض ، ويتركون المحرمات ، ولكن تقربهم الى الله بالنوافل ، وكثرة ذكرهم اياه بالتسبيح والتحميد والدعاء وشغل قلوبهم بهيبته ورحمته ـ كما كان ذلك شأنهم أيام المحن والنوازل ـ كل ذلك يقل أو يمحى .

والمعرضون عن غفلة أو عن مرض القلوب مهما غمرتهم النعماء، وتوالت عليهم الآلاء يظلون سادرين فى غفلتهم ، تائهين فى بيداء اعراضهم ، عامهين فى غيهم ، الى أن ينبههم من هذه الغفلة ، ويردهم عن هذا الغى ضريمسهم، أو حادث ينزل بما يحرصون عليه ، من نفس ، أو مال .

وهذا الاعراض عن الله مع توالى النعم مخالف للطبيعة البشرية ولا يتفق مع الفطرة التى فطر الله الناس عليها .

ذلك أنه لا يختلف اثنان فى أن النفوس جبلت على حب من أحسن اليها ، والحب أعلى درجات التقرب ، فمن أحب شيئا سلك اليه كل وعر وذلول ، وجعل ذكره همه ، ووكده ، يذكره اذا أصبح ، ويذكره اذا أمسى ، وكما قال العاشق الصوفى عمر بن الفارض :

أدر ذكر من أهوى ولو بملام ... فان أحاديث الحبيب مدامى
ليشهد سمعى من أحب ومن نأى ... بطيف ملام لا بطيف منام
فلى ذكرها يحلو على كل صيغة ... وان مزجوه عذلى بخصام

٣ ـ التذكير بالنعم رد الى الفطرة .

والمنعم ـ وبخاصة واهب الحياة والمال والولد ـ من حقه أن يشكر ولا يكفر ، ولذلك كان من أساليب القرآن فى الدعوة الى الحق والهداية ، والتنفير من الغواية والاعراض التذكير بالنعم ، فان فى ذلك رد الناس الى جبلتهم ، وتنبيههم الى مقتضى طبائعهم ، فبنو اسرائيل حين بالغوا فى الغى

والعناد ذكرهم الله بنعمه عليهم : « يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين » « اذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب » ، « واذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون » . « واذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون » . وحكى القرآن عن سيدنا موسى أنه أيضا ذكرهم بنعم الله عليهم : « واذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا ، وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين » . والمؤمنون بمحمد عليه السلام ذكروا بالنعم فى كل موضع أريد منهم فيه أن يمتثلوا أوامر الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » .

« يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ هم قوم أن يبسطوا اليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

وفى أول سورة النحل عدد الله كثيرا من النعم التى امتن بها على عباده من ارسال الرسل ، وخلق السموات والأرض بالحق ، وخلق الانسان من نطفة ، وخلق الأنعام فيها دفء ومنافع ، وانزال المطر من السماء ، منه شراب ، ومنه شجر ، وبه ينبت الله الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ، وتسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم ، وما ذرأ فى الأرض مختلفا ألوانه ، وتسخير البحر يأكل الناس منه لحما طريا ، ويستخرجون منه الحلى التى يلبسونها . « وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله » والقاء الجبال الرواسى فى الأرض تحفظها أن تميد ، وتفجير الأنهار ، وتمهيد السبل ، ورفع العلامات ليهتدى السالكون فيها .

وبعد أن عدد هذه النعم ، وبخ المخاطبين الذين يسوون بين من لايخلق ومن يخلق ، وذكرهم بأنهم ان عدوا نعمة الله لا يحصوها ، وبين لهم أنه يعلم سرهم وعلانيتهم ، وأن الشركاء الذين يدعونهم من دون الله مخلوقون ، وأموات غير أحياء ، ثم ختم كل ذلك بالمقصود من تعداد هذه النعم :

« الهكم اله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة ، وهم مستكبرون » ومضت السورة فى توكيد وحدانية الله ، وتوبيخ المنكرين ، ثم عادت الى تعداد نعم أخرى . « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » . « والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا الى حين ، والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر ، وسرابيل تقيكم بأسكم ، كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون » وهكذا يعدد القرآن نعم الله على عباده ، ويذكرهم بها ، حتى يعرفوا فضله عليهم ، ويقوموا بما أمر به حق قيام ، ويتقوه حتى تقاته، ولكن بعض المنحرفين (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون).

وشكر المنعم على احسانه مقتضى الفطرة السليمة ، فهو جبلة خيرة ، ذلك أنها من الدين القيم « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » .

وقد ندد القرآن بأولئك الذين يتنكرون لفطرهم السليمة ، ويستكينون لشياطين الانس والجن فى كثير من مكارم الأخلاق ، ومنها هذه الخصلة التى نتحدث عنها ، وهى الاعراض عن الله عند الرخاء ، وما يتبع ذلك من كفران وجحود ، وعدم اللجوء اليه عند الشدة .

ولعل أجمع الآيات لأحوال المعرضين هى آيات سورة الروم :

٤ ـ آيات سورة الروم

« واذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين اليه ، ثم اذا أذاقهم منه رحمة اذا فريق منهم بربهم يشركون ، ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون ، أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون ، واذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها ، وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم اذا هم يقنطون ، أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » .

ففى هذه الآيات تصوير دقيق واضح لحال بنى البشر ، عندما يمسهم الضر ، وعندما يذيقهم الله رحمته .

فهم عندما يمسهم الضر يدعون ربهم مخلصين نياتهم ، فاذا أذاقهم منه رحمة من سعة أو صحة أو أمن افترقوا ، فمنهم من يظل على اخلاصه لله ، ومنهم من يشرك به غيره ، وحال أخرى لهم ، فهم اذا أحسوا طعم النعمة فرحوا ، وان أصابهم قحط أو مرض أو خوف قنطوا ، وهؤلاء القانطون هم الذين عصوا الله حتى استحقوا أن تصيبهم السيئة بدليل قوله :

« بما قدمت أيديهم » فكان المراد فى الشق الثانى صنف خاص من الناس ، أما الذين تصيبهم السيئة لمجرد الابتلاء فانهم لا يقنطون من رحمة الله ، وانما يزدادون اقبالا عليه ، واخلاصا له ، وهؤلاء هم المؤمنون حقا .

وفى الآيات ــ بجانب كشف هذه الحالات ــ بيان عن مصير الفريق الذين تبطرهم النعمة فيشركون بربهم ، فان مصيرهم سيكون الى الكفر بما آتاهم الله من نعم ، وما أسبغ عليهم من فضل وتهديد لهم بأن يتمتعوا على حد قوله تعالى : « اعملوا ما شئتم انه بما تعملون بصير » عاقبة هذا التمتع ، وما يجر عليكم من نقمة ووبال .

وفيها توبيخ لهم ، فالله لم يعطهم حجة تشهد لهم ، وتبين سبب شركهم ، واذا لم يكن عندهم هذا السلطان فكيف يتجرأون على الاشراك بالله ، ولا شاهد ينطق بصحته .

وفى الآيات لفت أنظارهم الى أنه لا داعى للقنوط من رحمة الله ، فهم قد علموا أن الله هو الذى يوسع الرزق على من يشاء ويضيقه على من يشاء ، فكان من الواجب عليهم أن يرجعوا الى الله تائبين من المعاصى ، سائليه رفع الشدة عنهم ، لا أن يقنطوا من رحمته .

وقد جاء فى القرآن الكريم ما يؤيد بوضوح ودقة هذه الحال الأخيرة (الفرح عند النعمة والقنوط عند النقمة) قال تعالى فى سورة الحج : « ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فان أصابه خير اطمأن به ، وان أصابته فتنة انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة » ، فهؤلاء بعض الناس ، وهم

يعبدون الله عبادة غير خالصة ، فهى على طرف الدين لم تتغلغل فى جوهره ، فان نال خيرا فرح به ، واطمأن اطمئنانا ظاهرا ، قلقا لاثبات له ، وان أصابته فتنة من مكروه يعتريه فى نفسه أو أهله أو ماله ارتد عن عبادة الله ، وبذلك خسر الدنيا لأنه فى شر ومحنة ، وخسر الآخرة ، لأنه كفر بربه ، فذهب عنه ثواب الصابرين ، وقد يكون خسرانه الدنيا فقدانه فيها الحياة الطيبة التى أكدها القرآن للمؤمنين فى قوله تعالى : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون» والحياة الطيبة حياة اليسار والسعة ان كان من ذوى اليسار والسعة مع دفع المنغصات عنه ، وحياة القناعة والرضا ، وتوقع الأجر العظيم ان لم يكن صاحب يسار ، وقد تنبه لذلك من عهد قديم فيلسوف الاغريق أرسطو ، فقال :(ان الرجل الشريف الذى لايطلب السعادة الا من الفضيلة لايمكن البتة أن يصير بائسا ، ما دام أنه لن يرتكب البتة أفعالا مذمومة وسيئة .

وعلى رأينا ان الانسان الفاضل حقا ، الانسان الحكيم حقا يعرف أن يطيق جميع تقلبات الدهر من غير أن يفقد شيئا من كرامته (١) .

٥ ـ الآيات التى تحدثت عن خلقى الاقبال والاعراض كلها مكية .

وقد نزلت آيات أخر تتحدث كل منها عن حالة من الحالات السابقة التى تضمنتها آيات الروم ، أو تجىء بمثل عملى وقع لأحد من الأقوام السابقين ، أو للمعاصرين للنبى محمد صلى الله عليه وسلم — وسنستقصى هذه الآيات ، ونشرح ما تضمنته فيما يلى من حديث ـ وكل هذه الآيات جاءت فى السور المكية الا آية الحج ، ويظهر أنها نزلت لحادثة خاصة .

ولعل السر فى ذلك ـ والله أعلم ـ أنه كان من مقاصد السور المكية بجانب تثبيت توحيد الله فى النفوس دفع أية شائبة تشوب هذا التوحيد ، والاعراض عن الله وقت الرخاء ان كان من المؤمنين فهو نقص فى ايمانهم ، وخدش فى عقيدتهم ، وان كان من المشركين فهو امعان فى الكفر ، لما فيه من لؤم النفوس ، وفساد القلوب ، اذ ترى النعم تتوالى عليها ثم هى مع ذلك

(١) علم الاخلاق الى نيقاماخوس ص ٢١٢ ترجمة لطفى السيد .

لا تعترف بواهب هذه النعم ، فاذا أضيف الى ذلك أن هذه النفوس تلجأ الى خالقها عندما يصيبها شر تبين مدى ما هى عليه من سفه وحمق وعناد ، لا سيما وهى تعترف فى قراراتها بأن الله هو خالق السموات والأرض وخالقهم :

« ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم » . « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله » . « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله » .

وهذه الطبيعة — وان كانت عامة فى كل بنى الانسان — كانشيوعها واضحا فى المجتمع المكى قبل بعثة الرسول ، وبعدها ، فعباد الأصنام هؤلاء كانوا يعترفون بوجود الله ، وأنه الخالق الرازق ، والمحيى والمميت ، ولكنهم كانوا يعبدون هذه الأصنام لتكون واسطة بينهم وبين الله ، وقد أبان القرآن عن عقيدتهم هذه فى قوله تعالى : «ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » وفى قوله عز وجل : « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » وفى قوله موبخا لهم: « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ، ومانرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، لقد تقطع بينكم ، وضل عنكم ما كنتم تزعمون » .

وقد يبدو شىء من التناقض — فى الظاهر — بين عبادتهم هذه الأصنام من دون الله وبين قولهم انهم (شفعاؤنا عند الله) فقيل : من دون الله حال أى متجاوزين الله سبحانه لا بمعنى ترك عبادته بالكلية ، بل بمعنى عدم الاكتفاء بها ، وجعلها قرينا لعبادة الأصنام ، كما يفصح عنه سياق النظم الكريم . وقال أهل المعانى : توهموا أن عبادتها أشد فى تعظيم الله من عبادتهم اياه ، وقالوا : لسنا بأهل أن نعبد الله ، ولكن نشتغل بعبادة هذه الأصنام فانها تكون شافعة عند الله .

ويبدو — والله أعلم — أن ما قاله أهل المعانى انما كان فى أسلاف عباد الأصنام ، أعنى الذين اتخذوها أولا ثم صارت عبادتها وحدها ، وقولهم انهم شفعاؤهم عند الله تقليد ، فكلمة (من دون الله) أى (غيره) ولا نعرف أن

كفار قريش كانوا يعبدون الله بأى نوع من أنواع العبادة غير الحج الذى لم يكن موافقا لشريعة ابراهيم عليه السلام ، نعم كانوا يعترفون بوجود الله ، وبأنه خالق السموات والأرض وخالقهم ــ كما أسلفنا ــ ولكنهم جروا على آثار أسلافهم في عبادة الأصنام مع الاعتقاد بأنها آلهــة ، تقربهم الى الاله الأكبر ، وما قاله بعضهم من اثبات أنواع أخرى من العبــادة لهم يعوزه التحقيق .

أما قوله (أتنبئون الله بما لا يعلم) فهو تهكم بهم ، وهو انكار قصد منه الالزام لأن الذى لا يعلمه الله لا وجود له ، وقوله : (فى السموات ولا فى الأرض) تأكيد للنفى ، لأن ما لا يوجد فيهما فهو منتف عادة .

وهذه الكلمة فى الآية الأخيرة (زعمتم) تلقى ضوءا على مدى تقدير القرآن لهذه العقيدة فى أنفسهم ، فهى مجرد « زعم » منهم وكأن الآية تشير الى أنهم لم يكونوا جادين فى هذه العقيدة ، فان الذى يعبد صنما معتقدا أنه وسيلته الى الاله لا يقصر فى عبادة الله ، بل ان عبادته له تكون أكثروأعمق، فاذا أضفنا الى ذلك أن الآية كررت هذا اللفظ فجاء فى آخرها (وضل عنكم ما كنتم تزعمون) كان لنا أن نميل الى هذا الذى فهمناه ، وهو أنهم كانوا غير صادقين فى قولهم انهم يعبدون الأصنام لتكون شفعاءهم عند الله .

ونعود الى ما كنا فيه من حديث .

٦ ــ أول اشارة الى هذه الطبيعة فى القرآن .

لم يجىء الحديث صريحا عن هذه الطبيعة بادىء ذى بدء ، وانما جاء ضمنا فى بعض الآيات التى أخبرت النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ بما كان من الأمم السابقة ، وقد كانت أولى الآيات (١) التى أشارت الى هذا السلوك من الأمم آيات (الأعراف) وهذه السورة أول ما أنزل من طوال المفصل ، جاء فيها قوله تعالى : « وما أرسلنا فى قرية من نبى الا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون ، ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة ، حتى عفوا وقالوا قــد مس آباءنا الضراء والسراء فأخــذناهم بغتة وهم لا يشعرون » .

(١) اعتمدت فى هذا وأشباهه على الرأى المشهور الراجح فى ترتيب السور .

فهذه سنة الله مع الأمم يرسل اليهم الرسل يحذرونهم وينذرونهم ، ويبشرونهم ، فاذا كذبوا أنبياءهم ، واستكبروا على اجابة دعوتهم أخذهم بالفقر والجدب ، والمرض والضر ، ليتجهوا الى الله ، ويلقوا عن أنفسهم أردية الكبر ، فاذا تمادوا فى طغيانهم ، ولم تثنهم المصائب والأحداث عن غيهم رفع عنهم الضراء ، وابتلاهم بالسراء ، فأغدق عليهم النعم من صحة وغنى ، ولكنهم يغفلون ، فيظنون أن هذه عبادة الدهر ، يعاقب فى الناس بين السراء والضراء ، ولم يتنبهوا الى أن الله تعالى يبتلى الأقوام بالضر ، ويبتليهم بالكثرة والنمو فى أموالهم وأنفسهم ، ويظلون مستكبرين بطرين ، فيأخذهم بالعذاب بغتة .

وقد كان طبيعيا أن يلجأ القوم الى الله حين تدلهم عليهم الخطوب ، وتعركهم الأحداث ، وكان طبيعيا حين ترد عليهم النعمة فى الأبدان والأموال أن يطيعوا ويشكروا ولكن هؤلاء الذين تحدثت عنهم هاتان الآيتان تبلدت نفوسهم ، وانعكست طبائعهم ، وأعماهم الكبر والغرور والبطر والأشر عن حقائق الديانات ، وحقائق نفوسهم ، فكان جزاؤهم أخذهم بالعذاب بغتة وهم لا يشعرون .

وقد جاءت هذه المعانى فى سورة الأنعام ، وهى فى ترتيب النزول بعد سورة الأعراف ، فكانت آيات الأنعام أكثر تفصيلا ، قال تعالى : « ولقد أرسلنا الى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ، فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ، فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون ، فقطع دابر القوم الذين ظلمو ، والحمد لله رب العالمين » .

فقد بينت هذه الآيات ما أجمل فى آيتى الأعراف ، فهذه الأمم لم يتضرعوا الى الله بدليل (فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا) لأن معنى هذا نفى التضرع ، وقد كان السبب فى موقفهم هذا (قسوة قلوبهم) و (تزيين الشيطان) لهم أعمالهم ، فأعجبوا بها ، وغفلوا عن سر هذا الابتلاء ، وأنه بسبب كفرهم ومعاصيهم ، ثم تمادوا فنسوا أن يتعظوا بما أصابهم ، وهذا

نهاية عتوهم وجبروتهم : أن تحيق بهم المكاره ، ولكنهم ينسونها ويغفلون عن موضع العظة فيها ، فأغدق الله عليهم الأموال ، وأصح أجسامهم ،ليتنبهوا فيشكروا فضل الله عليهم ، ولكن النعماء زادتهم استكبارا ، وبعدا عن التوبة والرجوع الى الله فأخذهم الله بغتة فاذا هم واجمون ، متحسرون ، آيسون ، وبذلك قطع الله دابرهم ، واستأصل شأفتهم ، وأراح الناس من هؤلاء الظلمة المتكبرين ، والحمد لله رب العالمين على نصر الرسل ، واهلاك الكافرين .

غير أننا نلاحظ أن آيتى « الأعراف » ابتدأت بجملة مقصورة : (وما أرسلنا فى قرية من نبى الا أخذنا) ومعنى هذا القصر أن كل قرية أرسل لها نبى كان من أهلها هذا الذى قصه القرآن علينا ، أخذهم بالنقمة ، ثم قساوة قلوبهم ، ثم ابتلاؤهم بالنعمة ، ثم بطرهم واعراضهم ، وأخيرا اهلاكهم .

وقد أشار بعض المفسرين الى المراد من هذا القصر فقال (فى قرية)أى من القرى المهلكة ، فكأن القرآن يحصر هذه الحالة فى القرى المهلكة ، أما القرى التى لم تهلك فلم يسلك أهلها هذا السلوك ، وقال بعض آخر : (فى قرية من نبى) أى فكذبوا ، فقدر كلمة (كذبوا) بعد قوله تعالى (نبى) . ومعناه أيضا أن الأخذ بالبأساء والضراء .. الى آخره وقع على المكذبين لأنبيائهم ، أما القرى التى لم تكذب أنبياءها فلم يأخذهم الله هذا الأخذ .

أما آيات الأنعام فقد جاءت مطلقة من هذا القصر : (أرسلنا الى أمم فأخذنا أهلها) فلا دلالة فيها على أن ذلك كان مع جميع الأمم الذين أرسل اليهم الرسل .

كما نلاحظ أن آيات الأنعام جاءت فيها كلمة (من قبلك) فهى حكاية عن أحوال الأمم التى جاءت قبل أمة محمد عليه السلام ، أما آيتا الأعراف فقد خلتا من هذا القيد ، فشملتا أمة محمد ، ولكن الأفعال الماضية ، أخذنا ــ عفوا ــ مس آباءنا ــ أخذناهم . كلها تدل على ما دلت عليه كلمة (من قبلك) .

وربما طاف ببعض الأذهان أن يضع أمام قوله تعالى : « فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء » قوله سبحانه : « ولو أن أهل

القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » وقوله عز وجل في شأن الجن : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا، لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا » وفى شأن نوح وقومه : « فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ».

ويقول فتح الله أبواب الخيرات على الذين نسوه ، ووعد من يطيعونه أن يفتح عليهم بركات من السماء والأرض ، وأن يسقيهم ماء كثيرا ، وأن يمدهم بأموال وبنين ويجعل لهم جنات وأنهارا ، فالنعم اذن تغدق على العصاة ، وتغدق على الطائعين ، ولا وجه لهذا التساؤل ، لأن الجهة منفكة ــ كما يقول المناطقة ــ وذلك أن الله يغدق على العصاة ــ ليزيدوا طغيانا على طغيانهم ، فيهلكهم ، ويغدق على الطائعين جزاء ما قدموا من طاعات فيجازيهم فى الدنيا ، ولجزاء الآخرة أوفى وأجزل : (فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين) .

هذا . وفى آية الجن تفسيران يرجعان الى الاختلاف فى معنى الطريقة :

الأول : أن المراد بالطريقة الطريقة المثلى ، أى لو ثبت أبوهم الجان على ما كان عليه من عبادة الله والطاعة ، ولم يستكبر عن السجود لآدم وتبعه ولده على الاسلام لأنعمنا عليهم ولوسعنا رزقهم .

الثانى : المراد بالطريقة طريقتهم التى كانوا عليها قبل الاستماع ، ولم ينتقلوا عنها الى الاسلام لوسعنا عليهم الرزق مستدرجين لهم لنفتنهم فيه ، لتكون النعمة سببا لاتباعهم شهواتهم ووقوعهم فى الفتنة ، وازديادهم اثما ــ ١ هـ من الكشاف .

قلت : والآية بمعنييها تشير الى الآيتين (فلما نسوا .. الآية) . (ولو أن أهل القرى .. الآية) . وكم فى كتاب الله المعجز من أسرار .

ثم نعود الى سورة الأعراف فنجدها ألقت ضوءا أسطع على هذه القضية ، فحددت قوما بأعيانهم ، وذكرت ما كان منهم ازاء ما اختبرهم الله به ، وبدأت فذكرت أن الله ابتلاهم بالجدب والقحط ، ليفيقوا من غفلتهم ،

فقال تعالى : (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون) . قال الزمخشرى : فى شرح قوله تعالى (يذكرون) « فيتنبهوا على أن ذلك لاصرارهم على الكفر ، وتكذيبهم لآيات الله ، ولأن الناس فى حال الشدة أضرع خدودا ، وألين أعطافا ، وأرق أفئدة ، وقيل : عاش فرعون أربعمائة سنة ولم ير مكروها فى ثلثمائة وعشرين سنة ، ولو أصابه فى تلك المدة وجع أو جوع أو حمى لما ادعى الربوبية » ثم أخذت الآيات تشرح حال آل فرعون بعد هذا الابتلاء ، فذكرت أولا أنهم خدعوا فى أنفسهم ، وأساءوا الى موسى نبى الله ، وادعوا أن ما جاءهم من خصب ورخاء انما كان لأنهم أهل لذلك ؛ وما أصابهم من قحط ونقص فى الثمرات انما كان بشؤم موسى وقومه بنى اسرائيل ، وقد رد الله عليهم بأن قولهم غير صحيح : « فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ، ألا انما طائرهم عند الله ، ولكن أكثرهم لا يعلمون » وذكرت ثانيا أنهم تمادوا فى غيهم ، وتحدوا نبيهم ، ونسوا قدرة الله وجبروته ، وركبوا رءوسهم فقالوا مخاطبين موسى — كما حكى عنهم القرآن : « وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين » وفى هذا من الاستهزاء بموسى ، والاستكبار عن الحق ما فيه ، فقد سموا ما يتوعدهم به موسى ، وما وقع لهم بعضه فعلا (آية) يريدون بذلك السخرية ، لأنهم لو اعتقدوها آية لما قالوا لتسحرنا بها ، فلما بغوا وعتوا ، واستكبروا أخذهم الله بألوان من العذاب شديدة : « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات ، فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين » ولنترك جار الله الزمخشرى يحدثنا عن مواقفهم من هذه المحن ، قال : (الطوفان ما طاف بهم وغلبهم من مطر أو سيل ، قيل : طغى الماء فوق حروثهم ، وذلك أنهم مطروا ثمانية أيام فى ظلمة شديدة لا يرون شمسا ولا قمرا ولا يقدر أحدهم أن يخرج من داره ، وقيل : أرسل الله عليهم السماء حتى كادوا يهلكون ، وبيوت بنى اسرائيل وبيوت القبط مشتبكة فامتلأت بيوت القبط ماء حتى قاموا فى الماء الى تراقيهم ، فمن جلس غرق ، ولم تدخل بيوت بنى اسرائيل قطرة ، وفاض الماء على وجه أرضهم ، وركد ، فمنعهم من الحرث والبناء والتصرف ودام عليهم سبعة أيام ، وعن أبى قلابة : الطوفان : الجدرى ، وهو

أول عذاب وقع فيهم ، فبقى فى الأرض ، وقيل : هو الموتان (١) ، وقيل الطاعون ، فقالوا لموسى : ادع لنا ربك يكشف عنا ونحن نؤمن بك ، فدعا ، فرفع عنهم ، فما آمنوا فنبت لهم تلك السنة من الكلأ والزرع ما لم يعهد بمثله ، فأقاموا شهرا ، فبعث الله عليهم الجراد فأكلت عامة زروعهم وثمارهم ، ثم أكلت كل شيء حتى الأبواب ، وسقوف البيوت ، ولم يدخل بيوت بنى اسرائيل منها شيء ، ففزعوا الى موسى ، ووعدوه التوبة ، فكشف عنهم بعد سبعة أيام ، خرج موسى عليه السلام الى الفضاء فأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجع الجراد الى النواحى التى جاء منها ، فقالوا ، ما نحن بتاركى ديننا فأقاموا أشهرا ، فسلط الله عليهم القمل ، وهو الحمنان (٢)فى قول أبى عبيدة كبار القردان وقيل : الدبا (٣) وهو أولاد الجراد ، قبل نبات أجنحتها ، وقيل البراغيث ، وعن سعيد بن جبير : السوس فأكل ما أبقاه الجراد ، ولحس الأرض وكان يدخل بين ثوب أحدهم وبين جلده فيمصه وكان يأكل أحدهم طعاما فيمتلىء قملا ، وكان يخرج أحدهم عشرة أجربة الى الرحى فلا يرد منها الا يسيرا ، وعن سعيد بن جبير : أنه كان الى جانبهم كثيب أعفر (٤) فضربه موسى بعصاه فصار قملا ، فأحدث فى أبشارهم وأشعارهم ، وأشفار عيونهم وحواجبهم ، ولزم جلودهم كأنه الجدرى فصاحوا وصرخوا ، وفزعوا الى موسى فرفع عنهم ، فقالوا : قد تحققنا الآن أنك ساحر ، وعزة فرعون لا نصدقك أبدا ، فأرسل الله عليهم بعد شهر الضفادع فدخلت بيوتهم ، وامتلأت منها آنيتهم ، وأطعمتهم ، ولم يكشف أحد شيئا من ثوب ولا طعام ولا شراب الا وجد فيه الضفادع ، وكان الرجل اذا أراد أن يتكلم وثبت الضفدع الى فيه ، وكانت تمتلىء منها مضاجعهم ، فلا يقدرون على الرقاد ، وكانت تقذف بأنفسها فى القدور ، وهى تغلى ، وفى التنانير وهى تفور ، فشكوا الى موسى وقالوا : ارحمنا هذه المرة ، فما بقى الا أن تتوب التوبة النصوح ، ولا نعود فأخذ عليهم العهود ، ودعا فكشف الله عنهم ، ثم نقضوا العهد ، فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياههم دما ،

---

(١) بضم الواو : موت يقع فى الماشية ، ويفتح
(٢) بفتح الحاء ، وسكون الميم واحدته حمنانة
(٣) مفرده : دباة
(٤) فى القرطبى : أنه كان بعين شمس .

فشكوا الى فرعون ، فقال : انه سحركم،فكان يجمع بين القبطى والاسرائيلى على اناء واحد فيكون ما يلى الاسرائيلى ماء ، ومايلى القبطى دما ، ويستقيان من ماء واحد فيخرج للقبطى الدم ، وللاسرائيلى الماء حتى ان المرأة القبطية تقول لجارتها الاسرائيلية : اجعلى الماء فى فيك ثم مجيه فى فى فيصير الماء فى فيها دما ، وعطش فرعون حتى أشفى على الهلاك ، فكان يمص الأشجار الرطبة ، فاذا مضغها صار ماؤها الطيب ملحا أجاجا ، وعن سعيد بن المسيب : سال عليهم النيل دما ، وقيل سلط الله عليهم الرعاف ، وروى أن موسى عليه السلام مكث فيهم بعدما غلب السحرة عشرين عاما ، يريهم هذه الآيات ، وروى أنه لما أراهم اليد والعصا ونقص النفوس والثمرات قال : يارب (ان عبدك هذا قد علا فى الأرض فخذه بعقوبة تجعلها له ولقومه نقمة ، ولقومى عظة ، ولمن بعدى آية) فحينئذ بعث الله عليهم الطوفان ثم الجراد ، ثم ما بعده من النقم » .

هذا ما دونه الزمخشرى فى تفسيره (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل) . وانما سقته بتمامه لأغراض :

١ — ان دل على مقدار تصور المفسرين والأخباريين لهذه المحن التى نزلت بفرعون وقومه ، فانها مهما اتسع خيال المتأمل فى هذه الآيات وعمق، فانه ربما يعجز عن الصورة الصحيحة البشعة التى كان فيها هؤلاء (المجرمون) على حد تعبير القرآن الكريم فقد وصفهم القرآن بالاستكبار، وهو دليل على أن امتناعهم عن الايمان كان بعد بلاء عظيم ، ووصفهم بالاجرام ، وكفى به دليلا على سوء فعلهم ، ثم وصف ما وقع عليهم فى الآية التالية (بالرجز) : « ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ، ولنرسلن معك بنى اسرائيل، فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه اذا هم ينكثون » والرجز العذاب ، كما يدل على عظم ما وقع عليهم أنهم وعدوا موسى بالايمان وبارسال بنى اسرائيل معه مؤكدين ، مما يدل على شدة ضيقهم ، وأخيرا عبر القرآن بكلمة واضحة الدلالة على شدة الابتلاء : « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » .

٢ — أن الزمخشرى أدرك أن كل هذه الأخبار لم تستند الى سند علمى صحيح ، ولذلك حكاها بلفظ (قيل) الا ما أسنده الى عالم معروف، وبذلك خرج من العهدة .

٣ — أعطى نموذجا لما أدخله المفسرون من أخبار فى تفسير القرآن ، ومع أن الزمخشرى صاحب ذهن علمى متحفظ ، خضع لهذه الأخبار ، وحكاها ، وان سلك الطريق الأمثل فى روايتها .

٤ — تبدو الروح الاسرائيلية واضحة فى بعض هذه الأخبار ، فهى تحرص على أن الاسرائيليين كانوا بمنجاة من هذا العذاب مع شدة مجاورتهم وملاصقتهم للقبط ، وأصل القضية صحيح ، فان من كان فى ذلك الوقت من الاسرائيليين كان مؤمنا بموسى ، ولم يكن دور المعاندين منهم قد جاء بعد ، وسيتبين فى هذا الحديث أن المخالفين من الاسرائيليين كانوا فى هذه الظاهرة التى تتحدث عنها أكثر عنادا واجراما من آل فرعون .

* * *

من كل ما تقدم وضح لنا مواقف للمشركين بالله حيال ما ينتابهم من شدائد وما يغمرهم من نعم ، فمنهم من يلجأ الى الله فى الشدة ، ويعرض عنه عندما تزول هذه الشدة ، ومنهم من يستبد به العناد والكبرياء فلا يذكر الله فى شدة ولا فى رخاء ، وهو فى ذلك متنكر لفطرته ، مغالب لطبيعته .

ومنهم من يدعى — عندما تجيئه النعمة — أنه أهل لها ، وينكر ضمنا أى فضل لله عليه ، فاذا أصابته السيئة ادعى أن هذا من شؤم الرسول .

وكل ذلك جاء فى أسلوب قصصى ، أما الحديث عن هذه الظواهر بأسلوب مباشر فهو ما تتناوله فيما يلى من حديث .

* * *

٧ — اول حديث مباشر عن هذه القضية .

جاء ذلك فى سورة بنى اسرائيل فى قوله تعالى : « واذا أنعمنا على الانسان أعرض ، ونأى بجانبه ، واذا مسه الشر كان يئوسا ، قل كل يعمل على شاكلته ، فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا » .

فهنا أمران :

الأول : اعراض الانسان عن ذكر الله ، واستكباره عندما ينعم الله عليه.

الثانى : شدة يأسه من رحمة الله عندما يمسه الفقر أو المرض أو تنزل به أية نازلة .

ويتضمن التعبير (بالاعراض) أنه كان مقبلا على ربه قبل أن ينعم عليه ، ولعل مما يشير الى ذلك قوله تعالى قبل هذه الآية : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا » فالقرآن نعمة من النعم الكبرى ، بل هو أكبر النعم التى منحها الله عباده ، ومع ذلك فالذين ينتفعون به هم المؤمنون ، أما الظالمون فانهم يزدادون به ــ وهو النعمة الكبرى ــ خسرانا ، وهذا هو دأبهم ، فانهم يعرضون حين يتفضل الله عليهم فتكون النعمة عليهم نقمة .

وقد علل القرآن لهاتين الحالتين من الانسان : الاعراض مع النعمة ، وشدة اليأس عندما يمسه الشر، علل لهما بأن كل انسان يصدر عن مزاج نفسى انتهى اليه بعد ما طال تقلبه فى ميدانى الخير والشر ، فمن كانت نفسه شريفة طاهرة صدرت عنه أفعال جميلة ، وأخلاق زكية طاهرة ، فهو يشكر الله على النعماء ، ويلجأ اليه فى البأساء ، وهذا هو ما يتساوق مع الطبع الأصيل ، والفطرة الأولى السليمة ، ومن كانت نفسه كدرة خبيثة صدرت عنه أفعال خبيثة رديئة فاسدة ، فهو يعرض عن طاعة الله ، وذكره عندما ينعم عليه ، وهو ييئس ويقنط عندما ينزل به الضر ، وهو فى كل ذلك ــ وان كان مخالفا للجبلة الأولى صادر عن نفس أفسد طبيعتها الانغماس فى الشرور والآثام ، وكدر فطرتها الغفلة عن الحق ، والاستكبار عن استماع أحسن الحديث من الرسل ، والدعاة الى الفضيلة والخير .

وهاتان الحالتان اللتان عرضتهما هذه الآية من سورة الاسراء (بنى اسرائيل) هما بعض أحوال تعترى الانسان فى حالتى النعمة والنقمة ، وقد مهدت السورة لهذا الحكم بمثال واقعى حجت به الذين كانوا يقفون فى وجه دعوة التوحيد التى جاء بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

كان من أهداف السورة اثبات وحدانية الله تعالى ، فأول كلمة فيها (سبحان) وهى تدل على نهاية تنزيه الله عن صفات المخلوقين ، وتقديسه فى ذاته وصفاته ، وأفعاله ، وأسمائه وفى الآية الثانية نفى أن يكون هناك رب غير الله يكل اليه بنو اسرائيل أمورهم : « ألا تتخذوا من دونى وكيلا » .

ثم تمضى السورة تتحدث عن بنى اسرائيل ، وعن الانسان ، وبعثه وحسابه يوم القيامة ، ثم تخاطب النبى صلى الله عليه وسلم فى صراحة : « لا تجعل مع الله الها آخر » . وسواء كان الخطاب له خاصة ، أو له ولأمته أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب ، فهو نهى صريح عن اتخاذ شريك لله تعالى ، لأن ذلك يؤدى الى أن يصير المشرك مذموما من الملائكة ، والناس ، مخذولا من الله تعالى .

ولا تكاد تمضى السورة فى الدعوة الى بر الوالدين وايتاء ذى القربى والمساكين حقوقهم ، وتنهى عن التبذير ، وعن البخل ، وعن قتل الأولاد ، وقربان الزنا ، وقتل النفس التى حرم الله الا بالحق ، وعن أكل مال اليتيم ، بل عن قربه ومسه ، وتأمر بالوفاء بالعهد وبايفاء الكيل والميزان ، ثم تنهى عن أن يتبع الانسان ما ليس له به علم ، وعن الخيلاء والكبر ، لا تكاد تمضى فى هذا النحو من القول حتى تعود مرة أخرى فتذكر بوحدانية الله ، فتختم كل هذه الأوامر والنواهى بخطاب موجه للرسول فتقول : « ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة ، ولا تجعل مع الله الها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا » قال العلامة أبو السعود فى تفسير هذه الآية . (الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام ، والمراد غيره ممن يتصور منه صدور المنهى عنه ، وقد كرر للتنبيه على أن التوحيد مبدأ الأمر ومنتهاه ، وأنه رأس كل حكمة وملاكها ، ومن عدمه لم تنفعه علومه وحكمه وان بذ فيها أساطين الحكمة وحك بيافوخه عنان السماء ، وقد رتب عليه ما هو عائدة الاشراك أولا حيث قيل : (فتقعد مذموما مخذولا) ، ورتب عليه ههنا نتيجة فى العقبى فقيل : (فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا) .

ثم تبدأ السورة الخطاب مع كفار مكة ، فتصرف معهم القول ، وتصفهم بأوصاف لا تليق بالعقلاء ، وفى أثناء ذلك تقرر توحيد الله ، وقدرته : « قل

لو كان معه آلهة كما يقولون اذا لابتغوا الى ذى العرش سبيلا ، سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ، تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وان من شيء الا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم) .

وتسجل عليهم اعراضهم عن هذا التوحيد ، وتشبثهم بآلهتهم : « واذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا) ثم يتحداهم بأن هؤلاء الذين يدعونهم من دون الله لا يملكون أن يكشفوا عنهم ضرا ، ولا أن يحولوه الى غيرهم ، بل ان هؤلاء الآلهة ممن يعقلون كالملائكة والمسيح وعزير يطلبون لأنفسهم من ربهم القربة بالطاعة والعبادة يبتغيها من هو أقرب الى الله تعالى فكيف بمن دونه : « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه لايملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا ، أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ، ويخافون عذابه ، ان عذاب ربك كان محذورا » .

ثم تضع السورة أيديهم ، وتلفت أنظارهم الى واقعة معينة لتكمل ما بدأته من نفى نفع الآلهة التى يدعونها من دون الله ، فيذكرهم الله ببعض النعم التى هى من دلائل التوحيد ويبين حالهم عندما يقعون فى ضيق وشدة، فهم حينئذ لا يذكرون الا الله ، أما ما كانوا يدعونهم من دونه فلا يخطر ببالهم أحد منهم ، كما يبين حالهم عندما يكشف الضر عنهم ، فانهم حينئذ يعرضون عن الله : « ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله انه كان بكم رحيما ، واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا اياه فلما نجاكم الى البر أعرضتهم ، وكان الانسان كفورا » .

ومعنى (ضل) هنا ــ كما يقول الزمخشرى ــ ذهب عن أوهامكم وخواطركم كل من تدعونه فى حوادثكم الا اياه وحده ، فانكم لاتذكرون سواه ، ولا تدعونه فى ذلك الوقت ، ولا تعقدون برحمته رجاءكم ، ولا تخطرون ببالكم أن غيره يقدر على اغاثتكم ، أو لم يهتد لانقاذكم أحد غيره من سائر المدعوين ، ويجوز أن يراد ضل من تدعون من الآلهة عن اغاثتكم ، ولكن الله وحده هو الذى ترجونه وحده على الاستثناء المنقطع .

* * *

ففى هذه الآية الثانية ــ على التفسير الأول ، وهو تفسير واضح ــ تصريح بقضيتنا التى جعلناها روح هذا البحث (اللجوء الى الله فى الشدة ، والاعراض عنه فى الرخاء) وهو أول بيان فى القرآن الكريم جمع بين هذين المعنيين ، وان كانت آيات الأعراف أشارت الى ذلك (ولما وقع عليهم الرجز ... الآيات) غير أن هذه صرحت بأن آل فرعون طلبوا من موسى أن يدعو ربه ، أما آية الاسراء هذه فجعلت المخاطبين يلجئون مباشرة الى الله ، وينسون آلهتهم ، وفى آيات الأعراف وعد من آل فرعون بالايمان له ، وبارسال بنى اسرائيل معه اذا كشف عنهم الرجز ، أما فى آية الاسراء فاخلاص فعلى ، ودعوة لله وحده ، ولجوء اليه مع تطهير أنفسهم من كل شرك .

وقد ترتب على نكث آل فرعون بما وعدوا موسى به أن انتقم الله منهم فأغرقهم فى اليم ، أما هنا فقد أخذ القرآن يحجهم ، ويبين لهم مدى الخطأ والغفلة فى سلوكهم ، وينكر عليهم موقفهم ، فذكرهم بما لا ينبغى أن ينسى ، وهو أن الله الذى يقدر على اغراقهم فى البحر ، يقدر على أن يخسف بهم جانب البر ، وعلى أن يرسل عليهم حاصبا من الريح ، وأنهم قد تعرض لهم حاجة فى الرجوع الى ركوب البحر ، فيسيرون فيه ، وحينئذ من المحتمل أن يمسهم الضر فى البحر ، فلا يجدون ملجأ الا الله : « أفأمنتم أن يخسف بكم من جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا ، أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا » .

فالبر والبحر عند الله سواء ، وله فى كل جانب سواء كان برا أو بحرا سبب مهيأ من أسباب الاهلاك ، فشأن العاقل اليقظ أن يستوى خوفه من الله فى كل مكان ، وما اغتر بالله الا مخدوع .

وقد سبق فى الأعراف التحذير من بطش الله ، والانكار على الغافلين المغترين بالأمن والسلامة من أهل القرى : « أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون ، أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ، أفأمنوا مكر الله ، فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون » .

ويبدو واضحا فى هذه الآيات تشديد النكير لزيادة التوبيخ على أولئك الذين تغريهم السلامة ، وتخدعهم مواتاة الأيام لهم ، ولو رجع الانسان الى طبيعته الساذجة ، واعتصم بتفكيره البدائى البسيط لما اغتر بما هو فيه من نعمة وأمن ، فان الأحداث تتعاقب أمام سمعه وبصره كل يوم ، بل كل ساعة ، بل كل لحظة :

يا راقد الليل مسرورا بأوله

ان الحوادث قد يطرقن أسحارا

والمراد بمكر الله ، استدراجه لهم بالنعمة ، وأخذهم بغتة ، وفى بعض التفاسير والمراد بمكر الله ــ هنا ــ فعل يعاقب به الكفرة على كفرهم ، وأضيف الى الله لما كان عقوبة على ذنبهم ، فان العرب تسمى العقوبة على أى وجه كانت باسم الذنب الذى وقعت عليه العقوبة .

وكما أن الغفلة والاغترار من صفات المكذبين المخدوعين ، فان توقع البلاء ، وخوف غضب الله من صفات المؤمنين الصادقين ، وقد روى عن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه : لو وضعت احدى قدمى فى الجنة ، والأخرى خارجها لما أمنت مكر الله .

وروت عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا تغير الهواء ، وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه ، فيقوم ويتردد فى الحجرة ، ويدخل ويخرج .

ويمثل حال الفريقين قول بعض الصالحين ، وقد سأله الناس أن يدعو الله لهم بالغيث فقال : أنتم تنتظرون المطر ، وأنا أنتظر الحجارة .

فهم مغترون غافلون عن ذنوبهم ، والرجل متنبه خائف أن تعجل لهم العقوبة فى الدنيا .

وربما تضاعفت البلوى ، اذا لم تكن متوقعة ، ولذلك كان أشد المصائب وقعا على النفوس ما كانت فى غفلة عنه ، والعاقل من وطن نفسه على أن للزمن تقلبات ، وأنه لا يدوم حزن ولا سرور ، ولا فقر ولا رخاء،وأن الصفو يعقبه الكدر :

أحسنت ظنك بالأيام اذ حسنت ... ولم تخف سوء ما يأتى به القدر
وسالمتك الليالى فاغتررت بها ... وعند صفو الليالى يحدث الكدر

* * *

وفى هذه الآية ــ « واذا مسكم الضر فى البحر » ــ دليل واضح على وحدانية الله تعالى ، فان النفوس بمقتضى جبلتها التى فطرت عليها لم تلجأ الا اليه ، وهذا اقرار قلبى طبيعى بأنه سبحانه الذى يكشف الضر ، وينجى من الشدائد .

وقد روى أن بعض الشاكين قال لبعض الأئمة : أثبت لى وجود الله تعالى ، ولا تذكر لى الجوهر والعرض ، فقال له : هل ركبت البحر ؟ قال : نعم . قال : فهل عصفت الريح ؟ قال : نعم . قال : فهل أشرفت بك السفينة على الغرق ؟ قال : نعم قال : فهل يئست من نفع من فى السفينة ، ونحوهم من المخلوقين لك ، وانجائهم اياك مما أنت فيه ؟ قال : نعم . قال : فهل بقى قلبك متعلقا بشىء غير أولئك ؟ قال : نعم . قال : ذلك هو الله ، عز وجل .

وهذا الدليل من أوضح الأدلة على وجود الله تعالى ، فان الله ــ سبحانه ــ كما يستدل عليه بالمنطق والبرهان يستدل عليه بالاحساس والوجدان ، وكما يشاهده المؤمنون فى عالم الحس يشاهدونه فى عوالم النفس ، فالله ــ دائما ــ فى قلوبنا .

وكيف ينكره الجاحدون ، وهم يجدونه فى أنفسهم وقلوبهم كلما شعروا بحاجة الى معونته وأفضاله ؟ وكيف يغفل عنه المؤمنون وهو ملء أسماعهم ووجدناتهم فهم يشعرون ــ دائما بأنه معهم ، « ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ، ولا خمسة الا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أين ما كانوا » .

وقد يسخر من هذا الدليل أولئك المفتونون بالغرب ، المستهينون بكل ما هو شرقى ، فهم ينظرون الى القائل قبل أن يتأملوا ما يقول ، فاذا كان القائل شرقيا ، وبخاصة المسلمين سخروا ، ومطوا شفاههم ، ورسموا ابتسامات عريضة مريضة على أفواههم ، ومع أنى مؤمن بالحكمة القائلة :

(من الخطأ محاولة اقناع من لا يريد أن يقتنع) أحب أن أضع أمام أنظار هؤلاء المكابرين كلمات لعالم غربى ، يعد أحد أئمة العلم فى العصر الحديث، لا أقول لعلهم يرجعون الى صوت العقل ، ونداء القلب ، بل أقول لعلهم يبدأون فى التخلى عن سخافاتهم ، ويضعون أقدامهم — مع بعض الأمل فى الوصول الى الغاية — فى أول الطريق اللاحب المضاء بكل ما أقام الأنبياء والحواريون ، والعلماء الفاقهون عليه من مصابيح وأعلام .

يقول كريسى موريسون فى كتابه (العلم يدعو الى الايمان) : (ان كون الانسان فى كل مكان ، ومنذ بدء الخليقة حتى الآن قد شعر بحافز يحفزه الى أن يستنجد بمن هو أسمى منه وأقوى وأعظم يدل على أن الدين فطرى فيه ، ويجب أن يقر العالم بذلك ، وسواء أحاط الانسان صورة محفورة بشعوره بأن هناك قوة خارجية للخير أو الشر أم لم يفعل فان ذلك ليس هو الأمر الهام ، بل الحقيقة الواقعة هى اعترافه بوجود الله) (١) .

ولعل هذا الدليل الواضح يفحم أولئك الذين لا يريدون أن يعترفوا بوجود الله الا اذا أدركوه بواسطة (أنبوبة اختبار) فهم من العمى والحمق بحيث لا يعترفون بشىء وراء المادة .

وما أحمق ذلك العالم الروسى الذى طاف بسفينته فى الفضاء فلما سئل عن الله قال : لقد بحثت عنه كثيرا فى الفضاء فلم أجده .

ليبحث عنه فى نفسه فانه سيجده ، ولو أنه فى رحلته هذه اضطربت به السفينة وأوشكت أن تهوى به الى مكان سحيق ، وأيقن أنه الهلاك لامحالة، لو أن ذلك حدث له لوجد الله الذى لم يجده فوق السحاب ، ولا بين طبقات الأثير — كما يخرف — !

* * *

٨ — عود الى تأكيد هذه القضية .

بعد سورة الاسراء نزلت سورة « يونس » وهى كأخواتها المكيات عنيت بقضية الألوهية ، وكانت هذه القضية من أهدافها الرئيسية ، بل كانت

(١) ص ٢٠٠ والكتاب ترجمة الاستاذ محمود الفلكى .

قضية الألوهية وما يتبعها من اثبات الرسالة ، وتأكيد البعث والجزاء ، وما يتعلق بكل ذلك ، كان هذا هو ما تضمنته هذه السورة .

ولما كان اللجوء الى الله فى الشدة ، والتخلى عن الشركاء والشفعاء دليلا واضحا من أدلة التوحيد كان طبيعيا أن يرد لهذه الظاهرة ذكر فى السورة .

وربما كانت سورة يونس أكثر السور حفلا بهذه الظاهرة ، فقد تكرر الحديث عنها فى مواضع مختلفة من السورة .

قلت ان السورة عنيت بقضية التوحيد ، وما يتعلق بها ، فقد بدئت بالرفع من شأن القرآن ، وبالتعجب من المنكرين لرسالة محمد ، وفى الآية الثالثة تقرير لحقيقة التوحيد ونفى للشركاء ، ودعوة الى عبادة الله وحده ، وتعجب من غفلة المشركين عن استحقاق الله وحده للعبادة ، وهو الذى خلق السموات والأرض ، واستوى على العرش يدبر الأمر : « ان ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يدبر الأمر ، ما من شفيع الا من بعد اذنه ، ذلكم الله ربكم فاعبدوه ، أفلا تذكرون » .

وتمضى السورة فى وصف الله تعالى بصفات الاله الحق ، فهو الذى اليه مرجع الخلق جميعا ، وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو صاحب الجزاء ، وهو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، وهو الذى فى كل شىء له آية ، تدل على وحدانيته ، ففى اختلاف الليل والنهار ، وفيما خلق فى السموات والأرض آيات للمتقين .

وهو الذى يدعوه الناس فى الضراء : « واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » .

وهذه الآية من أجمع الآيات لظاهرة (اللجوء الى الله فى الشدة ، والاعراض عنه فى الرخاء) وهى بيان للطبيعة الحقيقية للانسان ، ففيها تكذيب لأولئك الذين يستعجلون الشر ، ويدعون به ، كما تنبىء عنه الآية السابقة لهذه الآية : « ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى

اليهم أجلهم ، فنذر الذين لايرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون » فقد تهور أهل مكة ، واستهانوا بما أنذرهم القرآن به من وقوع الاستئصال فيهم ، كما وقع فى الأمم السابقة ، الذين كذبوا رسلهم ، فقالوا ـ كما حكى القرآن عنهم — : « واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » . فرد الله عليهم : « يستعجلونك بالعذاب ، ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب ، وليأتينهم بغتة » ثم أكذبهم فى هذه الآية ، فبين لهم أنه ليس من طبيعة الانسان أن يطلب الشر لنفسه ، وانما طبيعته اذا أصابه الشر أن يهرع الى ربه ، وأن يسأله كشف الضر عنه ، ويبالغ فى هذا الدعاء ، فهو يدعو مضطجعا ، وقاعدا وقائما ، وعلى كل حال من أحواله ، فهم لم يكونوا صادقين فى استعجال العذاب ، وانما كان غرضهم تعجيز الرسول ، واظهار أنه غير جاد فيما توعدهم به .

غير أن المخجل حقا أن يعود الانسان سيرته الأولى بعد زوال الضر عنه ، فيمر ويمضى فى شئونه كأن شيئا لم يحدث ، فيغفل عن ربه ، ان كان مؤمنا بوحدانيته ، ويجثو تحت أقدام آلهته الذين اتخذهم لله أندادا ، ان كان مشركا .

وهذا هو حال المسرفين من كفار مكة ، وقد زين لهم عملهم هذا حتى ظنوه دينا ، فهم يعرضون عن ذكر الله ويبالغون فى الاستهزاء بالرسول ، وبما أنذرهم به من عذاب فيستعجلونه .

ويحذرهم القرآن عاقبة القرون التى أهلك أهلها لما ظلموا ، ويذكر اقتراحهم على الرسول أن يأتى بقرآن غير هذا أو يبدله ، ورد الرسول عليهم ، ثم ينكر عليهم عبادتهم من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ويبين لهم أن الناس كانوا أمة واحدة موحدة فاختلفوا ، ولولا كلمة سبقت من الله لقضى بينهم ، ثم يعود الى بيان حال عجيبة من أحوالهم ، هى من جملة الحالات التى تعترى الانسان عند الخير والشر : « واذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم اذا لهم مكر فى آياتنا ، قل الله أسرع مكرا ان رسلنا يكتبون ما تمكرون » .

ذكر المفسرون فى سبب نزول هـذه الآية أن كفـار مكة لما تمادوا فى عنادهم دعا عليهم النبى فقال : اللهم اجعلها عليهم سـنين كسنى يوسف ، فأجيبت دعوته ، وأصابهم قحط شديد بلغ من شدته أن أكلوا العظام ، والميتة من الجوع ، فأتوا رسول الله يطلبون منه أن يدعو الله ليكشف الضر عنهم ، فدعا لهم ، فنزل المطر فعادوا الى حالهم الأولى ، من استكبارهم ، وطعنهم فى آيات الله ، ومعاداة الرسول ، والكيد له ، ولم يعترفوا بفضل الله عليهم ، بل أضافوا المطر الى أسبابه الظاهرية ، فعن أبى هريرة : ان الله ليصبح القوم بالنعمة ويمسيهم بها فتصبح طائفة منهم بها كافرين ، يقولون ، مطـرنا بنوء كذا (١) .

وهذه الآية أحد أجوبة عن قول أهل مكة ـ كما حكى عنهم القرآن فى الآية التى سبقت هذه الآية : « ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه ، فقل انما الغيب لله فانتظروا انى معكم من المنتظرين » .

وتقرير الاجابة فى الآية أن عادة مشركى مكة المـكر واللجاج ، وعدم الانصاف ، لأن الله تعالى حين رحمهم بانزال المطر بعدما قحطوا سبع سنين ، أضافوا تلك المنافع العظيمة الى الأنواء والكواكب ، فاذا كانوا كذلك فان اجابة اقتراحهم بانزال آية ـ كما طلبوا ـ لا تحملهم على الايمـان ، لأنهم ينكرون البدهيات ، ويعاندون فى الحق ، ولا يعترفون لله ولا لرسوله بفضل، فما الفائدة من اجابتهم الى ما يطلبون .

وهذه الآية مكملة للآية السـابقة : (واذا مس الانسـان الضر دعانا لجنبه .... الآية) وذلك أن فى الآية السابقة حالتين : حالة مس الضر ، وحالة رفع الضر ، وفى هـذه الآية حالة أخرى هى اذاقة الرحمة بعـد رفع الضر . وللانسان مع هذه الحالات الثلاث حالات ثلاث أيضا ، فهو مـع مس الضر لاجىء الى الله ، وهو مع رفع الضر غافل عن الله ، وهو مع النعمة بعد الضر متجن على الله ، وسيأتى فى آيات أخرى تقييد لكل حالة من هذه الحالات .

---

(١) الانواء : النجوم ، وكان العرب يسندون الامطار لها ، ويربطونها بها .

ثم ضرب الله مثلا لهؤلاء الناس ، أصحاب الأحوال العجيبة ، ونبههم الى حالة تقع لهم كثيرا ، وهى حالة ركوبهم البحر ، واضطرارهم فيه الى اخلاص النية لله ، ثم عودتهم الى الاعراض بعدما ينجون .

وقد سبق التنبيه الى هذا الموقف فى سورة الاسراء ، غير أنه كان هناك مجملا فما زاد على (مس الضر فى البحر) أما ما هو الضر ، وكيف صوره القرآن ، وما هى الحال التى كانوا عليها قبل أن يمسهم الضر ، وماذا قالوا عندما اشتد بهم الحال ، فذلك ما شرحته هذه الآية :

« هو الذى يسيركم فى البر والبحر ، حتى اذا كنتم فى الفلك ، وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان، وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين ، لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ، فلما أنجاهم اذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق ، يأيها الناس انما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ، ثم الينا مرجعكم ، فننبئكم بما كنتم تعملون » .

وأول ما يمس السمع هذا التذكير من الله بنعمته على خلقه(التسيير) فى البر باقدارهم عليه ، وبما سخر لهم من مطايا يستوون على ظهورها ، ولهم فيها منافع ، وتحمل أثقالهم الى بلد لم يكونوا بالغيه الا بشق الأنفس ، و (التسيير) فى البحر بما هداهم اليه من صنع السفن ، ومعرفة الملاحة ، وما يهيئه من موافقة الأجواء لهم ، ويقابل هذا فى آية الاسراء (ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله) غير أن هذه اقتصرت على التذكير بنعمة السير فى البحر ، وتلك جمعت بين السير فى البر ، والسير فى البحر .

ثم وصفت هذه الآية ما يلقاه راكبو البحر من متعة بما يكون لهم من الراحة والأمن من دوار البحر ، والمناظر الجميلة ، والهواء الطيب .

وبينما هم على هذه الحال من المتعة ، والفرح دهمتهم ريح عاصف ، وأطبق عليهم الموج من كل مكان ، فاضطربوا ، وخافوا ، وفتح لهم الخوف فى كل موجة قبرا ، وظنوا أنه الهلاك لا محالة .

وحينئذ اتجهت قلوبهم الى خالقها وأخلصت له نياتها ، وأقسموا مؤكدين لئن نجوا من هذا الضيق الذى ملك عليهم كل حواسهم ليكونن من الشاكرين .

وفرج الله عنهم الكربة ، وأعاد الريح عليهم رخاء ،وسكن الموج الهائج، فأمنوا واطمأنوا ، واستقرت قلوبهم فى صدورهم ، وكان مقتضى الطبع السليم أن يوفوا بما عاهدوا الله عليه من اخلاص العبادة له ، ودوام شكره ، ولكنهم تنكروا لطباعهم السليمة ، وبغوا فى الأرض بغير الحق .

وقليل منهم من استجاب لوجدانه الصادق ، ولتفكيره القويم ، فقد روى أنه لما كان فتح مكة فر عكرمة بن أبى جهل ، فركب البحر ، فأصابتهم عاصف ، فقال أصحاب السفينة لأهل السفينة : أخلصوا ، فان آلهتكم لا تغنى عنكم شيئا ، فقال عكرمة : لئن لم ينجنى فى البحر الا الاخلاص ما ينجينى فى البر غيره ، اللهم ان لك عهدا ، ان أنت عافيتنى مما أنا فيه أن آتى محمدا حتى أضع يدى فى يده فلأجدنه عفوا كريما ، فجاء فأسلم .

وفى صنيع هؤلاء دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع الى الله فى الشدائد ، قال السيد الألوسى ، صاحب تفسير (روح المعانى) : «أى دعوه تعالى من غير اشراك لرجوعهم من شدة الخوف الى الفطرة التى جبل عليها كل أحد من التوحيد ، وانه لا متصرف الا الله سبحانه المركوز فى طبائع العالم » .

واذا كان مشركوا مكة ، وغيرهم يرجعون عند الشدائد الى الله ، وينسون أن لهم أصناما كانوا يعبدونها ، ويرجون منها الخير ، فان بعض جهلة زماننا ينسون عند الشدائد ربهم ، ويدعون غيره بحكم العادة التى تأصلت فى نفوسهم من الاعتقاد فى نفع الأولياء ، وأصحاب الأضرحة .

قال السيد محمد صديق حسن الفنوجى النجارى أحد علماء الهند فى كتابه : (الدين الخالص) : (وقد سمعت أن الله تعالى ذكر عن الكفار أنهم اذا مسهم الضر تركوا غير الله من السادة والقادة والطواغيت فلم يدعوا أحدا منهم ، ولم يستغيثوا بهم ، بل أخلصوا لله وحده ، لا شريك له .

وأنت ترى (. . .) المدعين للايمان من المسلمين ، وفيهم من يدعى أنه من أهل العلم والفضل ، وفيه الصلاح والزهد ، والاجتهاد فى العبادة اذا مسه الضر ، وأهمه أمر من أمور الدنيا قام يستغيث بغير الله من الأولياء كـ (معروف الكرخى) و (الشيخ عبد القادر الجيلانى) و (سالا رومدار) ونحوهم .

وأشنع ، وأفظع ، وأقبح ، وأعظم جرما ، وأظم ضلالة أنهم يستغيثون بالطواغيث والأجداث ، وأهل القبور ، والمردة من الجن والشياطين ، ويذبحون لهم ، وينذرون لهم ، ويسافرون الى أنصابهم ، ويفزعون الى أحبارهم ورهبانهم ، فاذا لله وانا اليه راجعون) (١) .

٩ ـ فرعون يؤمن .

بعد ذلك سبحت السورة سبحا طويلا لتحقق أهدافها ، وحجتهم فى أثناء هذا السير الطويل بأنهم يعترفون بأن الله هو الخالق الرازق : « قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ، فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال فأنى تصرفون».

وذكرت أن الله يبدأ الخلق ثم يعيده وأنه يهدى الى الحق ، وليس من شركائهم من يقدر على شىء من ذلك .

وأن لله ما فى السموات والأرض ، ووعده الحق ، وهو يحيى ويميت، وأنه لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، وأنه جعل للناس الليل والنهار ، وأنه هو الغنى لم يتخذ ولدا سبحانه .

ثم تلت شيئا من قصة نوح ، وشيئا من قصة موسى وفرعون ، وفى أثناء هذه القصة الأخيرة ذكرت عبرة بالغة لمن كان له قلب ، وهذه العبرة تتعلق بما يتصل بموضوعنا .

---

(١) الدين الخالص جـ ١ ص ١٨٦ . ط . المدنى . وقد حذفنا من كلامه كلمة (المشركين) التى وضعنا مكانها نقطا ، لأنا نتحرج من ذكر هذا الوصف لبعض المؤمنين .

ففرعون بغى وتجبر ، وقال أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى ، وادعى الألوهية ، بل قال : أنا ربكم الأعلى ، ولكن لما وقعت به شدة رجع الى الله ، وعرف أنه الاله الحق : « وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا ، حتى اذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين ، الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ،فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ، وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » .

آمنت — لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل — أنا من المسلمين. ثلاث عبارات فى معنى واحد ، والغرض من هذا الصنيع تأكيده أنه رجع عن ضلاله ، وعن غيه ، وآمن بالله وحده ، مخلصا له ، وما كان ذلك منه الا عندما أيقن أنه هالك ، ورأى بعينيه الموت يقترب منه اقترابا شديدا ، فكان تكراره لهذا المعنى دليلا على شدة ما أصابه من الذعر ، وهذا ما يشاهد عندما تنزل بانسان نازلة ، فيفقد أعصابه ، فهو ينطلق فى غير تحفظ ، وبغير حدود ، يردد الكلمات التى تدل على أنه عدل عن تلك الخطة التى يرى أنه من أجلها نزل به البلاء .

وهذا سلوك فطرى نراه فى الأطفال عندما يعاقب واحد منهم على فعل ارتكبه فكلما وقع عليه الضرب يقول : حرمت ، حرمت ، ويظل يكررها .

ومن المعروف المشاهد أن كثيرا من الأطفال الصغار حينما يرفع عنهم العقاب الذى من أجله استغاثوا ، ووعدوا ألا يعودوا ، كثير من هؤلاء ينسون هذا الوعد ، ويعودون الى أعمالهم الطفيلية .. وهكذا يفعل المسرفون على أنفسهم .

ولم يستجب الله لفرعون دعاءه ، لأن الأمر كان قد بلغ غايته ،وانتهى الى مستقره ، وحينئذ لا تنفع توبة ، ولا يقبل ايمان ، كما قال تعالى فى سورة النساء : « انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم ، وكان الله عليما حكيما ، وليست التوبة

الذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن ، ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما » .

وقد قال العلماء فى سبب رد توبة من حضره الموت ان توبته جاءت بعد زمن التكليف والاختبار ، وتوبته حينئذ لا فائدة من ورائها ، لأنها لا تتبع بعمل صالح حيث جاء الأجل ، ولذلك صحت توبة من تاب من قريب لأن الرجاء باق ، ويصح منه الندم ، والعزم على ترك الفعل ، وعنده فسحة من الوقت ليعمل صالحا ، وقال بعضهم ان الايمان عند الموت اضطرار ، فهو انفعال لا فعل لصاحبه ومن البديهى أن التوبة من الكفر والمعصية ، انما تنفع بالرجوع الى الطاعة على أن اليائس من الشىء بالفعل لا يعقل أن يكون صادقا فى ادعائه اياه ، أو طلبه بالقول ، ولعل فرعون أراد بقوله حينئذ أنه من جماعة المسلمين أنه موطن نفسه على أن يكون منهم ان نجاه الله تعالى ، وأنه كان يرجو بهذا أن ينجيه الله تعالى كما نجاه وقومه من كل نازلة من عذاب الله حلت به ، وبقومه (١) .

قلت : وفى الآية بيان وجه الانكار على فرعون ، وتعليل رد ايمانه : (الآن ، وقد عصيت قبل ، وكنت من المفسدين) .

ففرعون قد عصى قبل ذلك ، وكثرت منه المعاصى ، ولم يذكر الله لحظة فى حياته الا عندما تنزل به شدة ، وكان كثير الافساد فى الأرض ، ويشرح هذا الافساد ما حكاه القرآن فى مواضع مختلفة عن طغيان فرعون ، وعلوه فى الأرض بغير الحق ، ومثل هذا ليس جديرا برحمة الله تعالى ، لأن قبول ايمانه عندما أدركه الغرق معناه دخوله فى رحمة الله ، وانتفاعه بفضله ، وهو لم يعمل أى عمل يؤهله لهذه المنزلة ، والله يعطى فضله لمن يشاء ، ولكنه يحرم رحمته على المتمادين فى عصيانهم ، السادرين فى كفرهم ، الذين لا يذكرونه الا عندما يوقنون بانتهاء حياتهم .

والعجب من المفسرين لا يمرون بحادثة من هذه الأحداث التى ذكرها القرآن الا حاكوا أو حكوا حولها القصص ، ومما رووه عن كعب الأحبار:

---

(١) تفسير المنار جـ ١ ص ٤٧٦

أمسك الله نيل مصر عن الجرى فى زمانه ، فقالت له القبط : ان كنت ربنا فأجر لنا الماء ، فركب وأمر بجنوده قائدا قائدا وجعلوا يقفون على درجاتهم، وقفز حيث لا يرونه ، ونزل عن دابته ، ولبس ثيابا له أخرى ، وسجد ، وتضرع لله تعالى فأجرى الله له الماء ، فأتاه جبريل — وهو وحده — فى هيئة مستفت ، وقال : ما يقول الأمير فى رجل له عبد قد نشأ فى نعمته ، لا سند له غيره ، فكفر نعمه ، وجحد حقه ، وادعى السيادة دونه ، فكتب فرعون : يقول أبو العباس الوليد بن مصعب بن الريان : جزاؤه أن يغرق فى البحر : فأخذه جبريل ، ومر،فلماأدركه الغرق ناوله جبريل عليه‌السلام خطه .

فهذه القصة تحمل فى طياتها عوامل هدمها ، فهل أعوز فرعون —وهو ما هو — الاستتار عن أعين جنده حتى (يقفز) و (ينزل عن دابته) و (يلبس ثيابا أخرى) و (يتضرع الى الله) وجنده وقوف ، ولماذا لم يفعل ذلك فى قصره دون أن يشعر به أحد ، بل لو أراد ذلك فى الصحراء ، أوعلى شاطىء النيل لما أعجزه أن يقيم لنفسه خيمة ساترة ، أو بيتا لا يراه فيه أحد ، وهل كانت سلسلة نسب فرعون أسماء عربية (أبو العباس الوليد — مصعب — الريان) (١) .

وما فائدة احتجاج جبريل عليه عندما أدركه الغرق بتقديم خطه له ؟ وما قيمة الأخبار التى يرويها كعب الأحبار ؟ هذا الرجل الذى أدخل فى الاسلام كثيرا من الاسرائيليات ، ولم يكن يتورع عن الكذب . ان الزمخشرى مع تحرجه فى رواية الأخبار ، ومع صفاء ذهنه ورجاحة عقله روى هذه القصة ، ولا يخرجه من العهدة تضعيفها بعدم نسبتها الى راو معين فقد كان عليه أن ينبه على مواضع الزيف فيها .

١٠ـ قوم يونس .

ولما ذكر الله قصة فرعون ، وأن الايمان لم ينفعه حين رأى الهلاك رأى العين أتبعها بقصة يونس — وكانوا مائة ألف أو يزيدون كما جاء فى

(١) هذا هو اسم فرعون موسى كما ورد فى النجوم الزاهرة ج ١ ص ٥٨ ، وقد جاء فى هذا الكتاب أن الذى بنى الهرمين هو : شداد بن عاد ، وقيل : سويرد ، وقيل : سويد وكل هذا حدس وتخمين ، وقد جاء فك الكتابة الهيرغليفية بالنبأ اليقين فى هذا وأمثاله .

سورة الصافات ـــ وبين أنهم آمنوا قبل أن يحل بهم العذاب فنفعهم ايمانهم .

روى عن جماعة من المفسرين أن قوم يونس كانوا بقرية تسمى (نينوى) من أرض العراق قبل الموصل ، وكانوا يعبدون الأصنام فأرسل الله اليهم يونس عليه السلام يدعوهم الى توحيد الله ، وترك ما هم عليه فكذبوه ، وامتنعوا عن الايمان بما جاء به فلما يئس من ايمانهم أنذرهم بعذاب مهلك سيقع بهم بعد ثلاث ليال ، فقالوا : هو رجل لا يكذب فارقبوه فان أقام معكم فلا عليكم ، وان ارتحل عنكم فهو نزول العذاب لا شك ، فلما كان الليل تزود يونس وخرج عنهم فأصبحوا فلم يجدوه ، وأحسوا بدنو العذاب حتى قال ابن عباس : انهم غشيتهم ظلة ، وفيها حمرة حتى وجدوا حرها بين أكتافهم ، فحينئذ أجمعوا أمرهم على التوبة فلبسوا المسوح ، وردوا المظالم الى أهلها ، حتى كان الرجل يأتى الحجر قد وضع عليه أساس بنيانه فيقتلعه ويرده الى صاحبه ـــ كما روى عن ابن مسعود رضى الله عنه .

ويرى بعض المفسرين أن الله خص قوم يونس من بين سائر الأمم بقبول توبتهم بعد معاينة العذاب ، وهذا لا ينافى قوله صلى الله عليه وسلم: (ان الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر) لأنه استثناء من هذه القاعدة ،وبهذا نطق القرآن : (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها الا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين) .

فقوله تعالى : (كشفنا عنهم عذاب الخزى) يدل على أن العذاب غشيهم فعلا ، فلما صحت توبتهم رفعه الله عنهم ، والكشف لا يكون الا بعد الوقوع ، أو اذا قرب وقوعه .

والجمهور يرون أن التوبة لا تنفع مع معاينة العذاب ، ويقولون ان معنى كشف العذاب أن الله منع عنهم العذاب الذى أوعدهم به يونس ، ويؤيد رأيهم أول الآية ، وذلك أن التحضيض على الايمان المفهوم من (فلولا كانت قرية آمنت) لا يكون الا على ايمان ينفع أهله ، وهو الايمان المعتاد بعد ارسال الرسل ، وقبل أن يحل بهم العذاب ، والآية تدل على أن كثيرا

من أتباع الأنبياء لم يؤمنوا بجملتهم فينفعهم الايمان لكن قوم يونس آمنوا جميعا حين رأوا دلائل صدق الوعيد من نبيهم .

وأيا ما كان فان قصة قوم يونس لون من ألوان الاخلاص لله ، والرجوع اليه وقت الشدة .

١٨ـ فذلكة .

وخلاصة ما قدمنا من نظرة فى سورة يونس أن هذه السورة عرضت أربعة ألوان من مواقف الناس فى الشدة والرخاء .

١ — اذا مس الانسان الضر دعا وأناب ، فاذا ذهب عنه الضر نسى ربه .

٢ — اذا أذيق نعمة بعد ضراء مسته طعن فى آيات الله .

٣ — اذا ركب البحر فخاف من الغرق دعا الله بالنجاة فاذا نجا بغى فى الأرض بغير الحق .

٤ — ذكر مثلين واقعيين ، أحدهما ايمان فرعون عندما أدركه الغرق فلم ينفعه ايمانه ، وثانيهما ايمان قوم يونس حين أحسوا بدنو العذاب منهم ، فكشف الله عنهم الخزى .

وقد ردد القرآن هذه الألوان الأربعة فى سور عدة من القرآن ، وسنبين ما جاء من الآيات فى كل لون ، ونبين أوجه المخالفة بين الآيات المتشابهة ، ثم نذكر حكمة هذا التكرار فى القرآن الكريم .

عناية القرآن بهذه الظاهرة ، وتكرار الحديث عنها .

١ ـ مس الضر .

ورد هذا المعنى مرتين فى سورة (الزمر) . الأولى فى قوله تعالى : (واذا مس الانسان ضر دعا ربه منيبا اليه ، ثم اذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو اليه من قبل ، وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله ، قل تمتع بكفرك قليلا ، انك من أصحاب النار) .

والمراد بالانسان هنا (الكافر) وقد وصف الجنس بحال بعض أفراده ، والتخويل اعطاء نعمة عظيمة ، أى جعله خائل مال من قولهم : هو خائل مال ،

وخال مال اذا كان متعهدا له ، حسن القيام عليه ، و (ما كان يدعو اليه) أى نسى الضر الذى كان يدعو الله تعالى — فيما سبق — الى كشفه ، وقيل : نسى ربه الذى كان يتضرع اليه ، وما بمعنى (من) ايذانا بأن نسيانه بلغ الى حيث لا يعرف مدعوه ما هو ، فضلا عن أن يعرفه من هو و(ليضل) بفتح الياء وضمها بمعنى أن عاقبة جعله لله أندادا ضلاله أو اضلاله عن سبيل الله ، و (تمتع بكفرك) من باب الخذلان والتخلية ، وفيه من الاقناط من النجاة مالا يخفى .

والآية قد جاءت فى موضعها الطبيعى من جملة آيات تدعو الى توحيد الله واخلاص العبادة له ، فهى الآية الثامنة من سورة الزمر ، والآيات التى سبقتها كلها تدعو الى التوحيد الخالص وتستدل على أن الله هو المستحق لأن يعبد وحده ، فقد بدئت السورة بأن القرآن أنزله العزيز الحكيم ، فأوامره ونواهيه نافذة من غير مدافع ، وجميع ما فيه مبنى على أساس الحكم الباهرة ، ثم بينت شأن هذا الكتاب ، وأنه أنزل بالحق ، فكل ما فيه حق ، لا ريب فيه ، ثم اتجهت السورة الى المقصود الأسمى منها ، وهو افراد الله بالعبادة لأنه وحده الذى يستحقها ، فينبغى أن يخلص قلب كل مؤمن من الشرك ، ومن الرياء ، ومن كل شائبة تشوب اخلاصه ، وقد كان أحسن ما قيل فى تفسير قوله تعالى : (الا من أتى الله بقلب سليم) ، أى أتى الله ، وليس فى قلبه أحد غيره ، وقد قيل لبعض العباد حين حضرته الوفاة: ما كان عملك ؟ فقال : لو لم يقرب أجلى ما أخبرتكم به : وقفت على باب قلبى أربعين سنة ، فكلما مر به غير الله حجبته عنه .

فهذا هو معنى عبادة الله مخلصا له الدين . وقد جاء جزء الآية الثانية من هذه السورة : (فاعبد الله مخلصا له الدين) وجاءت الآية الثالثة : (ألا لله الدين الخالص ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ، ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون) .

وقد سبق أن قلت ان كلمة (من دون) معناها يعبدون غير الله ، ويتركون عبادته سبحانه ، وأنه لم يعرف أن المشركين من العرب كانوا يعبدون الله بأى نوع من أنواع العبادة ، بل كانت كل عبادتهم موجهة الى

أصنامهم ، نعم كانوا يعترفون بالله خالقا رازقا ولكنهم كانوا يعبدون آلهة أخرى ، من الملائكة والكواكب والأصنام ، قلت هذا ، ولكن بعض العلماء يرى أن العرب المشركين (كانوا يتعبدون ويحجون ، ويعتمرون ، ويتصدقون ويكفون عن أشياء من المحرمات خوفا من الله تعالى) (١) . ولا تحضرنى آية واحدة فى القرآن تشير الى أن مشركى العرب كانوا يعبدون الله ، بل الذى يحضرنى نفى هذه العبادة عنهم بصورة قاطعة ، وذلك قوله تعالى لنبيه محمد : (قل يأيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد) .

وقد قال المفسرون فى سبب نزول هذه السورة : ان رهطا من قريش قالوا يا محمد هلم فاتبع ديننا ، وتتبع دينك . تعبد آلهتنا سنة ، ونعبد الهك سنة ، فقال : معاذ الله أن أشرك به شيئا ، فقالوا : فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ، ونعبد الهك ، فنزلت .

وقال بعض المفسرين — ومنهم الزمخشرى وأبو السعود — فى تفسير قوله تعالى : (ولا أنتم عابدون ما أعبد) أى وما عبدتم فى وقت من الأوقات ما أنا على عبادته .

وبعد أن دعت السورة (أعنى سورة الزمر) الى عبادة الله مخلصا له الدين أخذت تستدل على أن الله واحد ، لا شريك له ، فنفت أن يكون لله ولد ، وقد قالوا الملائكة بنات الله ، وقالت النصارى المسيح بن الله وقالت اليهود عزير بن الله و (لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء) فهو لم يرد اتخاذ ولد ، ولو أراد لم يزد على ما فعل من اصطفاء ما يشاء من خلقه وهم الملائكة ، الا أنكم لجهلكم حسبتم اصطفاءهم اتخاذهم أولادا ، سبحانه ، تنزهت ذاته عن أن يكون له ولد . (ثم دل بخلق السموات والارض وتكوير كل واحد من الملوين (الليل والنهار) وتسخير النيرين (الشمس والقمر) وجريهما لأجل مسمى ، وبث الناس على كثرة عددهم من نفس واحدة ، وخلق الأنعام : على أنه واحد لا يشارك ،

---

(١) الدين الخالص للسيد محمد صديق حسن الهندى ج ١ ص ١٨٣

قهار لا يغالب) ذلكم الله ربكم له الملك ، فأنى تصرفون ، أى فكيف تعدلون عن عبادته الى عبادة غيره .

والله غنى عن كفر من كفر ، وهو يجازى شكر من شكر ، وهو عليم بما تضمره القلوب وتكنه الصدور .

وهنا يجىء موضع هذه الآية الكريمة : (واذا مس الانسان ضر دعا ربه منيبا اليه) فهى تعجيب من حال هؤلاء المشركين ، فهم يدركون فى حال الشدة — عجز ما كانوا يدعونهم حال الرخاء . وينيبون الى الله ، داعين مستغيثين مما هم فيه ، وتنكشف عنهم الشدة ولكن الآية تترك حالهم حينئذ ، وتنتقل الى حال أرقى ، حال غمرهم بالنعم ، وتخويلهم الأموال الكثيرة ، وكان الظن بهم أن يظلوا مخلصين دينهم لله ، ناسين ما كانوا يدعون من دونه شاكرين لله أنعمه ، مقدرين كشف الضر عنهم ، وافاضة الخيرات عليهم ، ولكنهم للؤم طباعهم ، ووضاعة نفوسهم ينسون ربهم ، ويجعلون له شركاء أندادا .

وقد وجه القرآن أنظارهم فى صورة استفهام الى أنه لا يستوى رجل يذكر الله فى الضراء ، وينساه فى السراء ، ورجل دائم على أداء العبادات فى حالتى الضراء والسراء ، فلا يستوى من يعلمون حقائق الأمور فيعملون بمقتضى علمهم ، ومن يجهلون هذه الحقائق ، فلا يذكرون الله الا عند الحاجة اليه ، ولو علموا لأدركوا أنهم فى كل حين محتاجون الى الله ، وأن هؤلاء الشركاء الذين يتخذونهم أندادا لا يملكون ضرا ولا نفعا ، ولكن المشركين لا يتأثرون بالقوارع الزاجرة ، ولا يصيخون الى صوت العقل ، وانما يتذكر أصحاب العقول الراجحة : (أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما ، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، انما يتذكر أولو الألباب) .

هذه هى المرة الأولى ، أما المرة الثانية ففى قوله تعالى فى الآيةالخمسين من هذه السورة : (فاذا مس الانسان ضر دعانا ، ثم اذا خولناه نعمة منا قال انما أوتيته على علم ، بل هى فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون) .

وهذه الآية تختلف — كما هو واضح — عن الآية السابقة في جزئها الثاني ، ذلك أن الانسان هناك عندما أصابته النعمة نسي ربه ، أو نسي الضر الذي كان أصابه ثم لجأ الى آلهته التي يدعوها من دون الله ، أما هنا فانه أبى أن يعترف بأن الله هو واهب النعمة ، فهو يدعي أن ما أصابه من خير انما كان بجده واجتهاده وبسبب خبرته بوجوه الكسب ، وربما أراد أن الله يعلم أنه مستحق لهذه النعمة لما فيه من فضل ، ولذلك رد عليه القرآن بكلمة واحدة (بل هي فتنة) فالله لم يعطه النعمة لأنه لها أهل ، والنعمة لم تكن لأنه خبير بشئون الكسب ، بل الله خوله اياها ليمتحنه أيشكر أم يكفر .

ثم أخبر القرآن أن هذا الادعاء قديم في السابقين ، فقد قالوا هذه الكلمة (انما أوتيته على علم) وقد جاء في قصة قارون أن الله حين أعطاه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة بغى وتجبر ، وأنكر فضل الله عليه وتنفج — كما في قصته في سورة القصص — : (قال انما أوتيته على علم عندي) . فهو من هؤلاء الذين جاءوا قبل كفار قريش ، وورد ذكرهم في هذا الموضع من سورة الزمر : (قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ، فأصابهم سيئات ما كسبوا ، والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين) .

ولم يترك القرآن هذا الموضع حتى رد في صراحة على هؤلاء الذين يدعون استحقاقهم للغنى ، أو قدرتهم على أن يغنوا أنفسهم ، (أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) .

وقد جاءت هذه الآية في موضعها المناسب من السورة ، فقد عادت السورة بعد الآية السابقة : (واذا مس الانسان ضر دعا ربه منيبا اليه) تتحدث عن اخلاص العبادة لله : (قل اني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين، وأمرت لأن أكون أول المسلمين):(قل الله أعبد مخلصا له ديني ، فاعبدوا ما شئتم من دونه) وتوجه الأنظار الى قدرة الله ، فهو الذي أنزل من السماء ماء ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ، وهو الذي نزل أحسن الحديث (القرآن) وضرب فيه للناس من كل مثل ، ومن هذه الأمثلة مثل رجلين من الأرقاء أحدهما قد اشترك فيه جماعة متنافرون متنازعون كل منهم يدعي

أنه ملكه الخاص به ، فهم يتجاذبونه ويتعاورونه ، فى مهن شتى ، فهو متحير فى أمره ، لا يدرى ماذا يأخذ ، وماذا يدع ، أما الثانى فهو خالص لمالك واحد ، قائم على خدمته وحده ، فأى هذين أحسن حالا . والمراد تمثيل حال من يعبد آلهة متعددة ، ومن يعبد الها واحدا ، ذاك موزع القلب واللب ، وهذا مجتمع الرأى ، مبصر طريقه ، لا شك أن الثانى أجمل شأنا ، وأهدأ قلبا ، وأطيب نفسا (ضرب الله مثلا ، رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل ، هل يستويان مثلا ، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) . والمراد من هذا المثل ــ كما هو واضح ــ هو الدعوة الى افراد الله بالعبادة ، والى نبذ ما عداه من أرباب .

وأكدت السورة أن الله كاف عبده ، وأن من دونه لا يخيفون أحدا ، وأن الله — وحده ــ هو الهادى ، وهو المضل ، وأعلنت — كما أعلنت سور أخرى — أن المشركين حين يسئلون عن خلق السموات والأرض يعترفون بأنه الله ، وتؤكد أن الآلهة الأخرى لا تكشف ضرا أراده الله ، ولا تمسك رحمة أرادها الله ، وأن المشركين الذين يتخذون من دون الله شركاء جاهلون ، فهل يتخذونهم ولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون ، وأن لله الشفاعة جميعا .

« واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون » . فقلوب هؤلاء القرشيين تمتلىء غيظا وهما ، ويظهر الانقباض على وجوههم اذا أفرد الله بالذكر ، ولم تذكر معه آلهتهم ، وتمتلىء قلوبهم سرورا حتى تنبسط أبشار وجوههم اذا ذكرت آلهتهم ، وهذا كله حمق منهم ، وتنكر لطبائعهم ، وغفلة عما ركب فى جبلتهم من الاقرار بكل قوة وجبروت ، وليس أدل على ذلك من أنهم اذا مسهم الضر دعوا الله ، ولجأوا اليه ليكشف الضر عنهم .

ويلاحظ أن الآية الأولى فى هذه السورة جاءت بالواو : (واذا مس) والآية الثانية جاءت بالفاء (فاذا مس) وقد أجاب الزمخشرى اجابة جديرة به ، فقال : (السبب فى ذلك أن هذه وقعت مسببة عن قوله : (واذا ذكر الله وحده اشمأزت) ، على معنى أنهم يشمئزون عند ذكر الله ، ويستبشرون

بذكر الآلهة ، فاذا مس أحدهم ضر دعا من اشمأز من ذكره دون من استبشر بذكره ، وما بينهما من الآى اعتراض ، وأما الآية الأولى فلم تقع مسببة ، وما هى الا جملة قبلها فعطفت عليها بالواو . فان قلت من أى وجه وقعت مسببة ، والاشمئزاز عن ذكر الله ليس بمقتض لالتجائهم اليه ، بل هو مقتض لصدوفهم عنهم ؟ قلت : فى هذا التسبب لطف ، وبيانه أنك تقول : زيد مؤمن بالله فاذا مسه ضر التجأ اليه ، فهذا تسبب ظاهر ، لا لبس فيه ، ثم تقول : زيد كافر بالله فاذا مسه ضر التجأ اليه فتجىء بالفاء مجيئك به ثمة ، كأن الكافر حين التجأ الى الله التجاء المؤمن اليه مقيم كفره مقام الايمان ومجريه مجراه ، فى جعله سببا فى الالتجاء ، فأنت تحكى ما عكس فيه الكافر ، ألا ترى أنك تقصد بهذا الكلام الإنكار والتعجب من فعله) .

٢ ـ اذاقته النعمة .

جاء فى سورة (هود) — وهى السورة التالية لسورة يونس فى الترتيب المصحفى ، وفى ترتيب النزول قوله تعالى : (ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه انه ليئوس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى انه لفرح فخور . الا الذين صبروا وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير) .

وهذه السورة كأختها سورة يونس عنيت عناية خاصة بالدعوة الى التوحيد الخالص فافتتحت بوصف دقيق لآيات القرآن ، وأخبرت أنه أنزل من لدن حكيم خبير ، فقد نظمت آياته نظما دقيقا رصينا محكما ، لانقص فيه ولا خلل ، وفصلت فبين فيها ما يحتاج اليه العباد ، ولابد أن تكون هذه الآيات فى نهاية الروعة والبلاغة ، والأداء الحسن ، فان الذى أحكمها وفصلها حكيم يضع كل شىء فى موضعه ، خبير لا يفوته شىء من كبار الأمور وصغارها (الر . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) وبعد هذا الافتتاح مباشرة جاءت الآية الثانية محذرة من عبادة غير الله — وهذا هو المقصود الأول من كل ما نزل من القرآن فى هذه الفترة المكية ، بل هذا هو المقصود الأول والأكبر من الدعوة الاسلامية ومن كل دعوة سبقتها — وفيها وعيد بعذاب الله تعالى ان لم يترك هؤلاء القوم

ما هم عليه من الكفر وعبادة غير الله ، ووعد بثوابه ان آمنوا به ،وأخلصوا العبادة له ، وتركوا آلهتهم التى كانوا يدعونها من دونه : (ألا تعبدوا الا الله انني لكم منه نذير وبشير) وكان — كما قلنا غير مرة — من دلائل التوحيد الخالص فى نفوس الناس أن يشركوا بالله عند النعمة ، ويلجأوا اليه عند الشدة ، ولكنهم فى ذلك مختلفون ، فمنهم من جرى على طبيعته السليمة، وفطرته القويمة فعرف ربه فى السراء والضراء ، ومنهم من تبطره النعمة فينسى واهبها ، فاذا أصابه الضر رجع الى جبلته فذكر ربه ودعاه ، ومنهم من فسدت فطرته كلية وقسا قلبه فهو يدعو غير الله عند اشتداد الكرب واليأس أولا يدعو أحدا استكبارا منه وغفلة واذا لم تلجئه الضراء الى ربه فبالحرى لا تلفت نظره النعمة الى فضل خالقه ، ولاشك أن أمر هذا الانسان عجيب فهو — كما قلنا — مع اعترافه بأن الله تعالى هو الخالق لكل شيء، القادر على كل شيء ، القابض الباسط ، مع ذلك يجعل بينه وبين الله وسطاء يدعوهم ، ويستشفع بهم ، وهو مع ذلك يبطر ويتكبر اذا تفضل الله عليه بالسعة أو الصحة أو الأمن ، فاذا نزع منه نعمة من هذه النعم لم يدرك الحقيقة الكبرى ، ولم يعرف أن كل شيء من عند الله فيرجو رحمته فى الشدة ، ولكنه يقنط ويبأس ، ويفقد الصبر ، والتسليم للقضاء ، والأمل فى أن تعود اليه تلك النعمة .

أما الموحدون المخلصون دينهم لله — وهم النوع الأول الذى ذكرناه فى هذه الخلاصة الوجيزة — فهم يعتقدون أن كل شيء مسخر لله ، وأن بيده مفاتيح الخير ، وأنه القاهر فوق عباده ، فان نالتهم رحمة شكروا ، وان زالت عنهم نعمة صبروا ، وفى ذلك يقول الرسول الكريم — كما جاء فى صحيح مسلم : (عجبا لأمر المؤمن ، ان أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد الا للمؤمن ، ان أصابته سراء شكر ، فكان خيرا له ، وان أصابته ضراءصبر فكان خيرا له) .

وفى ذلك يقول الله تعالى فى هذه السورة : (ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه انه ليئوس كفور ، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته

ليقولن ذهب السيئات عنى انه لفرح فخور ، الا الذين صبروا ، وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير) .

وقد جاءت هذه الآيات فى سياق الدعوة الى التوحيد الخالص ،وجاءت بعد قوله تعالى : (وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا) لتبين أن أصحاب العقيدة الصحيحة السليمة مطمئنون الى أن كل ما يصيبهم من عند الله ، أماأصحاب العقيدة المزعزعة المضطربة فلا تكاد تستقر نفوسهم ، بل تتقسمهم الشكوك، فلا يثبتون على السراء ، ولا يثبتون على الضراء ، بل لعل فتنة النعمة أشد ابتلاء من فتنة الشدة والكرب ، ولذلك قال بعض الصالحين : ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا ، وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر .

والفرق بين هذه الآيات وما سبقها أن المراد بالانسان هنا (الجنس) على الحقيقة ، فالحكم هنا على جميع الناس بدليل الاستثناء فى قوله (الا الذين صبروا) أما فى الآيات السابقة فيتعين فى بعضها حمل (الانسان)على نوع منه ، وهم المشركون ، ويترجح هذا الحمل فى بعض آيات أخر .

ولم يرد فى الآيات السابقة (نزع النعمة) وان كان حاصلا ، اذا أنعمنا على الانسان أعرض ، واذا مسه الشر يئس ، ومعناه مسه الشر بعد نزع النعمة عنه ، فيمسه الفقر بعد الغنى ، أو المرض بعد الصحة ، أو الخوف بعد الأمن ، أو النقص فى الأولاد بعد أن كان ينعم بهم .. وهكذا .

وفى هذه الآيات أمران : اليأس والكفران بعد نزع النعمة عنه ،وشدة الفرح وكثرة الفخر عندما تجيئه النعمة بعد الضر .

وفيما سبق من آيات وصف الانسان بشدة اليأس اذا أصابه شر — كما فى سورة الاسراء ، ولكن سبق هذا وصفه بالاعراض والتكبر عندما ينعم الله عليه ، ووصف بشدة اليأس والقنوط من فضل الله عندما يمسه الشر كما فى سورة فصلت ، وقد سبقه هناك أنه لا يسأم من دعاء الخير .

ففى آيات هود وصف بشدة اليأس والكفران ، وفى آيات فصلت وصف بشدة اليأس وشدة القنوط ، وهما شىء واحد ، والمراد توكيد

يأسه ، مع ما فى آيات هود من وقوع النعمة فعلا ، وما فى آيات فصلت من مجرد كثرة دعائه بها .

وفيما سبق من آيات على آيات هود وصف الانسان بنسيان ربه ، أو نسيان ضره اذا أسبغ الله عليه نعمه ، أو دعواه بأنه يستحق هذه النعم كمافى سورة الزمر ، وكما فى سورة فصلت بالنسبة لهذا المعنى الأخير (هذا لى) وتزيد هذه السورة فى آياتها هذه وصف الانسان بانكار البعث ، ولو افترض أنه وقع فهذا الانسان من غروره وجهله يعتقد أنه لم رجع الى ربه لتكونن له الحسنى لما يعتقده من أن الله انما أعطاه ما أعطاه فى الدنيا لما له من مكانة عند الله ، فستنفعه هذه المكانة فى الآخرة — على فرض مجيئها — كما نفعته فى الدنيا .

وفى بعض الآيات السابقة وصف الانسان بالمكر فى آيات الله عندما يذيقه الله الرحمة بعد الضراء .

ومن الممكن أن يخرج كل هذا على أن للانسان أحوالا ، واختلاف سلوكه باختلاف حالاته ، أو على أن هذا السلوك يختلف باختلاف الناس ، فبعضهم يفعل هذا ، وبعضهم يفعل ذاك .

والأساس الأول أن طبيعة الانسان بعامة — كما سبق أن قلنا — هى اللجوء الى الله فى الشدة ، وشكره فى النعمة ، ولكن التربية الفاسدة ، والتقليد الأعمى ، والغفلة والجهل قد تنسيه هاتين الطبيعتين فيتصرف مراغما لفطرته ، متجاهلا جبلته .

واذا أردنا تعليلا نفسيا لهذا الأعراض أسعفنا علم النفس الاجتماعى ، فذكرنا أن فى النفس البشرية نزعة قوية نحو الجماعة ، وخضوعا ملموسا لقوانينها ، فاذا تمكن من الفرد هذا الخضوع للجماعة ، وتأصل فى نفسه اعتقاد فاسد من اعتقاداتها التى درجت عليها فانه من الصعوبة بمكان أن يتحول الفرد عن هذا الاعتقاد بعد أن جمد عليه زمنا طويلا ، فهو — عندما تزول حاجته الى دعوة خالقه — يرجع الى موروثه فى نفسه فيجعل لله أندادا، وعبثا تحاول أن تحجه بالمنطق والبرهان لأن أقرب ما يثيره فى وجهك أن

يقول كما قال المقلدون الجامدون على ماضيهم منذ زمن قديم : (انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون) .

وفى هذا المعنى يقول أحد فلاسفة الغرب : (ان أول ما تلاحظه العيون غير المغرضة هو الصعوبة الكبرى التى يجدها مذهب التوحيد حتى يظل نقيا ، كما لو كان هناك منحدر ينتهى بالمرء الى تعداد الشخصيات الالهية ، فالملائكة والشياطين والقديسون أو خلفاء الآلهة ــ كما يسميهم سانت ايف ــ يظلون فى نظر الطبقات الشعبية نوعا خفيا من مذهب تعدد الآلهة) (١) .

وهذه الملاحظة صحيحة ، ولكنا نبحث هنا عن سببها ، ويبدو أن الخضوع للجماعات هو السر الأصيل فيها ، فالطفل منذ طفولته المبكرة ينمو فيه سلوك اجتماعى ، ويظل هذا السلوك الذى يسير فى اتجاه الجماعة ينمو ويزداد حتى يرسخ فى نفس الانسان ، ويزيده ضلال البيئة ، والتخلف الذهنى رسوخا ، ولا يكاد ينجو منه الا الذين سمت عقولهم ، واستنار تفكيرهم بنور التأمل الواعى فى الحياة والأحياء ، فسلطان الجماعة قوى غالب وكما يؤكد لنا علماء النفس من أن (الناس يعدلون آراءهم ومعتقداتهم تبعا لما يقوله ويفعله الآخرون ، ويتجهون شعوريا أو لا شعوريا نحو معيار الجماعة) (٢) .

وللعلامة أبى السعود المفسر كلام رائع يتعلق بالتعبير فى آيات هود التى نحن بصدد الحديث عنها ، قال : (وفى التعبير عن ملابسة الرحمة والنعماء بالذوق المؤذن بلذتهما ، وكونهما مما يرغب فيه ، وعن ملابسة الضراء بالمس المشعر بكونها فى أدنى ما ينطلق عليه اسم الملاقاة من مراتبها ، واسناد الأول الى الله عز وجل دون الثانى ما لا يخفى من الجزالة والدلالة على أن مراده تعالى انما هو ايصال الخير المرغوب فيه على أحسن ما يكون ، وأنه انما يريد بعباده اليسر دون العسر ، وانما ينالهم ذلك بسوء اختيارهم

---

(١) مبادىء الاجتماع الدينى ص ٢٣٤ تأليف روجيه باستيد ترجمة الاستاذ محمود قاسم .
(٢) ميادين علم النفس ص ٣١٨ . ط . دار المعارف (المجلد الاول) .

نيلا يسيرا كأنما يلاصق البشرة من غير تأثير ، وأما نزع الرحمة فانما صدر عنه بقضية الحكمة الداعية الى ذلك وهى كفرانهم بها كما سبق ، وتنكير الرحمة باعتبار لحوق النزع بها) .

* * *

وقد أشرت فى المقارنة بين الآيات التى تضمنت هذا المعنى الى آيات سورة فصلت وقد آن أن نذكر هذه الآيات لأنها من هذا الوادى الذى نسير فيه : (لا يسأم الانسان من دعاء الخير وان مسه الشر فيئوس قنوط ، ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ، ولنذيقنهم من عذاب غليظ ، واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه ، واذا مسه الشر فذو دعاء عريض) .

وهذه الآيات تدخل تحت النوعين السابقين : (مس الضر) و (اذاقة النعمة) وقد آثرت أن أذكرها هنا ، بعدما طال الحديث فى هذين النوعين .

والواضح أن المراد بالانسان هنا نوع معين وهو الكافر ، فهو ــ كما قيل ــ وصف للجنس بوصف غالب أفراده لما أن اليأس من رحمة الله تعالى لا يكون الا من الكافر على أنه فى الآية الثانية يتضح المراد بالانسان ، لأن الذى ينكر الساعة لا شك فى كفره .

وقد قيل : للكافر أمنيتان : يقول فى الدنيا : ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى ، ويقول فى الآخرة : يا ليتنى كنت ترابا .

والعبارة الثانية ظاهرة فى التمنى ، أما العبارة الأولى وهى التى وردت فى هذه الآيات فالظاهر منها أن هذا الكافر لا يتمنى ، وانما هو يقول على سبيل اليقين . يدل على ذلك أنه ليس فى العبارة ما يدل على التمنى ، وأن فيهاتوكيدا بحرفى ان واللام،وبالجملة الاسمية ، وأن قبلها (هذا لى) فكما أنه أثبت لنفسه على سبيل القطع ــ فى زعمه ــ أن هذا حقه وصل اليه لأنه استوجبه بما عنده من خير وفضل ، وأعمال بر فكذلك هو قد استوجب ــ فى زعمه ــ الحسنى عند الله .

ولما قال هذا مؤكدا ، وأسرف فى الادعاء ، والغفلة ، فلم يكتف بكلمة واحدة ، بل قالها ثلاثا : هذا لى ــ ما أظن الساعة قائمة ــ لئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى — رد الله عليه ردا حاسما ، شديد الوقع على النفوس ، المهيأة للخير ، فللنبئن الذين كفروا بما عملوا . هكذا بصفة التوكيد ، فهو سبحانه ــ سيخبرهم ولا شك ــ بحقيقة أعمالهم الموجبة للعذاب ، وسيجدون أنها على عكس ما كانوا يعتقدون ، فهى لا تستوجب لا كرامة ولا قربة من الله ، وهم لم يكونوا مستحقين للنعم ، وانما تستوجب أعمالهم العذاب الأليم ، وكان من تمام هذا الوعيد الشديد قوله سبحانه : « ولنذيقنهم من عذاب غليظ » هكذا بتوكيد الفعل ووصف العذاب بالغلظ ، فهو عذاب لا يقادر قدره ، ولا يبلغ كنهه .

كما رد القرآن ردا حاسما على أولئك الذين يرون أن اختبار الله للانسان بالاكرام والتنعيم دليل على منزلته عند الله ، وابتلاءه بتقتير الرزق اهانة من الله له ، وقد جاء هذا فى سورة من أوائل السور التى نزلت بمكة هى سورة (الفجر) : (فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه ، فيقول ربى أكرمن ، وأما اذا ما ابتلاه ربه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن .كلا)

والآية تؤيد ما سبق من قول الانسان (هذا لى) اذا توجه الانكار فيها الى قول الانسان فى هذه الآية (ربى أكرمن) مريدا أن اكرام الله له انما كان عن استحقاق لمكان حسبه ونسبه ، وجلالة قدره ، أما اذا توجه الانكار فقط الى قوله (أهانن) على معنى أن الله اذا تفضل عليه بالخير اعترف بتفضيل الله تعالى ، واذا لم يتفضل عليه سمى ترك التفضل هوانا ، وليس بهوان فليست الآية مما معنا .

وهذه الآيات (أعنى آيات فصلت) كشبيهاتها جاءت بعد تمهيد لها بالتنبيه الى اخلاص التوحيد لله ، والى أن من عداه لا ينفع ولا يضر ، فقد جاء قبلها قوله تعالى : (اليه يرد علم الساعة ، وما تخرج من ثمرات من أكمامها ،وما تحمل من أنثى ولا تضع الا بعلمه ويوم يناديهم أين شركائى قالوا آذناك ما منا من شهيد ، وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا ما لهم من محيص .)

فالله سبحانه هو الذى يعلم متى تقوم الساعة ، ويعلم شأن الثمرة تخرج من كمها ، ويعلم متى تحمل الأنثى ، ومتى تضع .

والمشركون حين يناديهم الله ــ متهكما بهم ، وموبخا ــ أين شركائى ؟؟ يعترفون بأنه لا شريك له على الحقيقة ، وينفون أن أحدا منهم يشهد لهؤلاء بأنهم شركاء لله بعد أن عاينوا عدم نفعهم .

ويسجل القرآن أن الشركاء قد ضلوا عن أتباعهم ، وغابوا عنهم ، وأن هؤلاء الأتباع أيقنوا أن لا مهرب من الله الا اليه .

وقد كانت النتيجة الطبيعية لهذه الآيات الواضحة ، أن يرجع المشركون عن غيهم وأن ينيبوا الى ربهم ، ولكنهم لا يزالون على ما درجوا عليه من ضعف فى العقيدة ، فهم لا يسأمون من دعاء الخير فاذا مسهم الشر يئسوا ــ وهكذا .

ثم كانت آخر آية ورد فيها لفظ اذاقة النعمة هى آية (الشورى) وقد جاءت أثناء خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم فى شأن قومه ، وتهوين اعرضهم عنه ، وجاء عقبه أن لله ملك السموات والأرض فهو يصيب من يشاء بالخير ، ويصيب من يشاء بالشر : (فان أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ان عليك الا البلاغ ، واذا اذا أذقنا الانسان منا رحمة فرح بها وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فان الانسان كفور) .

وقد قال المفسرون ان المراد بالانسان هنا الجنس بدليل (وان تصبهم) والمراد بعض منهم ، وهم المجرمون لأنهم الذين يوصفون بنهاية الكفر المفهوم من كلمة (كفور) ولأن الاصابة بما قدمت أيديهم انما تستقيم فيهم .

ويبدو أنه لا داعى هنا لتخصيص المراد بالمجرمين ، فان المؤمنين يصابون بما قدمت أيديهم ، وأما الوصف بالكفر الشديد فهو من قبيل المبالغة .

وقالوا أيضا ان تصدير الشرطية الأولى باذا للتنبيه على أن ايصال النعمة محقق الوجود ، كثير الوقوع ، كما أن تصدير الشرطية الثانية بان للايذان بندرة وقوعها .

وهذا مبنى على قاعدة مشهورة معروفة عند البلاغيين تتعلق بما تفيده اذا وما تفيده ان .

ولكن لا أدرى كيف تكون السيئة نادرة الوقوع ، لا سيما اذا وافقناهم على أن المراد بالانسان هنا المجرمون ، فان ما مضى من آيات يدل على أن الله أصاب هؤلاء بالضراء كما أصابهم بالسراء ، على أن آيات كثيرة جاءت فيها (اذا) مع مس الضر وقد جاءت (ان) و (اذا) فى آيات فصلت مع كل من مس الضر ، واذاقة النعمة . فلا مندوحة لنا أن نقول ان قاعدة البلاغيين تصدق فى الغالب ، وأن هذه الآية التى معنا من غير الغالب، فوقوع السيئة بما قدمت أيديهم محقق ، وكثير الوقوع ، كما أن اذاقتهم النعمة محقق ، وكثير الوقوع ، والحكمة فى اختلاف الأسلوب انما هو التفنن فى التعبير .

ومن هذا القبيل قوله تعالى — فى سورة الروم — : (الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا ، فيبسطه فى السماء كيف يشاء ، ويجعله كسفا ، فترى الودق يخرج من خلاله ، فاذا أصاب به من يشاء من عباده اذا هم يستبشرون، وان كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ، فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها ان ذلك لمحيى الموتى ، وهو على كل شىء قدير ، ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون) .

فقد ذكر القرآن ان ارسال الرياح مبشرات من آيات الله ، وعدد الأغراض فى ارسالها ، فهى للبشارة بالغيث ، ولاذاقة الرحمة ، وهى نزول هذا الغيث ، وظهور النبات الذى يتبعه ، واجراء الفلك فى البحر ، وابتغاء فضل الله فى تجارة البحر ، ثم لشكر نعمة الله فى كل ذلك ، ثم جاءت بعد ذلك هذه الآيات مفصلة أحوال بعض الناس عند الرياح وانزال الغيث ، وحالهم قبل ذلك ، ثم حالهم حين يصفر النبات ويذوى .

(كسفا) أى قطعا ، فالسحاب يبسط متصلا تارة ، ومتفرقا تارة أخرى (الودق) المطر واثارة السحاب تحريكه ونشره (خلاله) فرجه ووسطه (لمبلسين) الابلاس فى اللغة : اليأس والقنوط من الخير والرحمة ، والتحير

والدهشة ، وانقطاع الحجة ، والسكوت من الحزن والخوف والغم . (فرأوه مصفرا) فرأوا النبات مصفرا بعد الخضرة .

وكلمة من قبله توكيد لكلمة من قبل ، وفائدة هـذا التوكيد الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد طال ، فاستحكم يأسهم ، وتمادى ابلاسهم فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك .

ومعنى الآيات أن هؤلاء العباد الذين يصيبهم الله بالخصب والسعة يزداد فرحهم واستبشارهم بنعمة الله ، وقد كانوا قبل ذلك يائسين مغتمين لتخلف المطر عنهم وجدب أرضهم ، وقلة خيراتهم تبعا لذلك ، ولكن هذا الاستبشار لا ينم عن عرفان بنعمة الله عليهم وايمان بسنته فى خلقه من بسط الرزق لمن يشاء ، وقبضه عن من يشاء ، فهم اذا رأوا حلول شر بما أنبتت أرضهم فاصفر بعد اخضرار أدركهم اليأس ، وكفران نعمة الله ، ولو كان الايمان راسخا فى نفوسهم ، ولو لم يكونوا مضطربين مزعزعين ، لما أخرجتهم النعمة عن الحدود الطبيعية للفرح ، ولما زادتهم النقمة الا لجوءا الى الله ، وتقربا اليه .

قال الزمخشرى معلقا على هذه الآيات (ليظلن ذمهم الله تعالى بأنه اذا حبس عنهم القطر قنطوا من رحمته ، وضربوا أذقانهم على صدورهم مبلسين، فاذا أصابهم برحمة ، ورزقهم المطر استبشروا ، وابتهجوا ، فاذا أرسل ريحا فضرب زروعهم بالصفار ضجوا وكفروا بنعمة الله ، فهم فى جميع هذه الأحوال على الصفة المذمومة ..

كان عليهم أن يتوكلوا على الله وفضله فقنطوا ، وأن يشكروا نعمته ، ويحمدوه عليها ، فلم يزيدوا على الفرح والاستبشار ، وأن يصبروا على بلائه فكفروا) .

وأما قوله تعالى : (فانظر الى آثار رحمة الله .. الآية) فهو اعتراض بين معنيين متكاملين ، أريد به لفت النظر الى قدرة الله وآثار الغيث فى احياء الأرض بالنبات بعد موتها بالجدب ، واشارة الى برهان قوى واضح ، ذلك أن الذى يحيى الأرض بعد موتها ، وهو أمر مشاهد لا سبيل الى الشك

فيه قادر على احياء الموتى فلا غرابة فى البعث ، ولا وجه لانكارهم نشر الناس من قبورهم ، والله قادر على كل شىء لا يعجزه اخراج النبات من الأرض الموات ، ولا احياء الأموات بعد ما فقدوا أرواحهم .

* * *

ويبدو أن بطر الانسان بسبب ما يصيبه من نعمة أمر قديم ، سار مع كل جيل ، وليس أدل على ذلك من قوله تعالى فى سورة الأعراف : (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين ، فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون) .

جمهور المفسرين على أن المراد بالنفس الواحدة آدم عليه السلام ، وعلى أن المراد بزوجها حواء ، ومعنى جعلها منها أنه خلقها من جنسها ، أو من جسدها لما يروى أنه تعالى خلق حواء من ضلع من أضلاع آدم ، ومعنى ليسكن اليها أى ليأنس بها ، ويطمئن لأن الجنس الى الجنس أميل ، وبه آنس ، وتغشاها معناها واقعها ، ومعنى خفة الحمل أنها لم تجد ما يجده الحبالى ، من المتاعب ، ومرت به أى استمرت تحمله الى وقت ميلاده ، فلما أثقلت أى حان وقت الوضع ، فحينئذ تشعر المرأة بثقل الولد عليها مهما كان خفيفا فى أثناء الحمل ، وقيل الحمل الخفيف هو من لدن يكون الجنين نطفة الى أن يتخلق ، وتشعر المرأة بثقله فى بطنها ، ومعنى أثقلت أى صارت ذات ثقل لكبر الولد فى بطنها .

وعند اثقالها بالحمل دعوا الله ربهما : لئن آتينا ولدا سليما لنشكرنك ، فلما آتاهما ما تمنياه جعلا لله شركاء فى هذا الولد .

ولما كان آدم عليه الصلاة والسلام بمنجاة من الشرك ، وكان هذا التفسير يلصق بآدم عظيمة من العظائم ، لجأ العلماء الى النظر والتخريج .

فقال القوم ان الشرك كان فى تسمية الولد (عبد الحارث) ولم يكن شركا فى العبودية أو الربوبية ، وهذا وان كان لا يليق بنبى الله آدم لكنه لا يقدح فيه كنبى .

وقال أكثر المفسرين ان هناك مضافا محذوفا فى قوله (جعلا) أى أولادهما وفى (آتاهما) أى أتى أولادهما ، قال الزمخشرى : وقد دل على ذلك بقوله : (فتعالى الله عما يشركون) حيث جمع الضمير وآدم وحواء بريئان من الشرك .

ورأى بعض المفسرين أنه ليس لآدم ولا لحواء ذكر فى الآية ، وانما المراد جنسا الذكر والأنثى من غير تعيين ، فالمراد بالنفس الواحدة جنس الذكر ، ومعنى خلق منها زوجها أى من جنسها ، وانما نسب الشرك الى الجنس مع أن فيه الأنبياء والموحدين لأن الجنس قد يطلق ويراد بعض أفراده وفى هذه الآية بيان حال المشركين من ذرية آدم ، وقد ورد مثل هذا فى القرآن قال تعالى : (ويقول الانسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا) ويقول سبحانه : (قتل الانسان ما أكفره) . والمراد بالجنس فى كل ذلك نوع خاص منه ، وقد مر مثل هذا غير مرة فى بحثنا هذا .

وسواء كان المراد بالنفس الواحدة آدم عليه السلام ، ونسب الشرك الى ذريته ، أو جنس الذكر والأنثى ، فالذى يعنينا ــ هنا ــ أن فريقا غير قليل من بنى الانسان يطلبون من الله النعمة ، ويؤكدون أنهم سيشكرونها حين يمن الله عليهم بها ، فاذا جاءتهم نسوا عهدهم هذا ، بل لم يكتفوا بكفران النعمة ، وزادوا على هذا الكفران أنهم يتخذون لله شركاء ، فى حين أن هؤلاء الشركاء ــ لو فطنوا ــ لا يستطيعون لهم نصرا ، ولا أنفسهم ينصرون .

* * *

٣ ــ اليأس والدعاء العريض .

فريقان من الجاحدين أشارت اليهما آيات (فصلت) وكلا الفريقين ضعيف النفس ، خائر العزم ، رقيق الدين ، ذلك أن الفريق الأول دائم السؤال للخير ، وهذا لا غبار عليه ، ولكن المذمة جاءت من مصاحبته لحالة مس الضر ، فقد كان المنطق أن من يداوم على طلب الخير لا يقنط حين يمسه الضر ، لأن اصراره على دعاء الخير يشعر باعتراف متمكن من نفسه بقدرة الله ووحدانيته ، فالذى يطلب منه الخير حقيق بأن يلتجأ اليه عند مس الضر

ليدفع الأذى ، ويكشف الغمة أما الفريق الثانى فهو أحمق اذا جاءته النعمة توهم أن ذلك لفضله ، ومكانته عند ربه ، وتجاوز كل حد فأنساه ما هو فيه من نعيم وترف أنه لا حساب ولا بعث ، فاذا مسه الشر رجع اليه عقله ، وتذكر أن الله ــ وحده ــ هو الضار النافع ، فأطال الدعاء ، وداوم عليه .

وعجيب أن يقترن انكار الساعة باذاقة النعمة ، وكشف الضر ، فقد وقعت جملة : (وما أظن الساعة قائمة) معطوفة على جواب معمول القسم الدال على وجوب (ان) فهى من معمولات الجواب ، فمن البديهى أن نقف طويلا عند الاقتران فى هذه الآية بين الشرط والجزاء ، ونتساءل كيف يكون انكار البعث مترتبا على رفع الضر ، وابدال النعمة به ؟

ولعل أقرب ما يقع فى خواطرنا أن هذا من عجائب الانسان ، اذا منحه الله ما يستوجب الحمد والايمان به وبرسله وباليوم الآخر عكس الآية ، وبالغ فى الجحود وجعل الافضال عليه سببا فى الكفر بما أجمع الأنبياء والمرسلون على وقوعه لا محالة .

وكأنه أحس أن هذه النعم تقتضيه أعمالا صالحة فى الدنيا ليلقى جزاءها فى الآخرة ، كما تقتضيه البعد عن مفاسد قد تجره النعمة اليها،وقد توعد على هذه المفاسد بالعذاب المهين . فهو ينساق مع شهواته ، ويبرر سلوكه ، حتى لا يكدر الملذات على نفسه ، بأن يقنع نفسه بأنه لا جزاء ، ولا حساب ، ولا ساعة .

وقد يرد هنا سؤال : أى الفريقين أضل سبيلا ، وأخسر عملا ؟ ونجيب ــ أولا ــ بما أجاب به بعض العرب ، وقد سئل : أى حماريك شر ؟ فقال : هذا ثم هذا . ونجيب ــ ثانيا ــ بأن الفريق الأول ــ بعد اتفاقهما فى الشر والضلال — أمعن فى الكفر ، وأبعد عن ارادة الحياة .

ذلك أن اليأس ــ اذا استحكم ــ لا يحل فى قلب حتى يفقده ايمانه بكل شىء ، ايمانه بالله ، وايمانه بنفسه ، وايمانه بالمثل العليا ، وايمانه بالحياة نفسها وليس أضر على عقيدة الانسان ، وعلى وجوده ــ كانسان عامل فى الحياة — من أن يفقد الايمان الذى يعينه على السير فى خضم الحياةالزاخر المضطرب المحفوف بالعواصف ، والمكاره والمخاوف .

فالمصباح الأول الذى يضىء للناس سبلهم المتشعبة فى هذه الحياة ، ويبين لهم مواضع أقدامهم فيها ، ويعينهم على السير قدما ، ويساعدهم على تحمل مشقات السير ، هو ايمانهم بأن الله النافع الضار ، وهو الذى يكشف الضر ، ويجيب المضطر اذا دعاه ، فاذا أطفأ انسان فى نفسه هذا المصباح ، فيئس من روح الله وقنط من رحمته وقع فى عمياء من دنياه . فلا يبصر ما يحوطه من صخور وأشواك .

والمصباح الثانى هو ايمانه بنفسه ، وبقدرتها على أن تتحمل وتتجلد اذا ضاقت عليه الدنيا ، واشتد الضر ، فاذا يئس فأطفأ هو المصباح فقد نفسه ، وشعر بأنه يعيش بلا قلب ولا ارادة ، ولا عزيمة ، وشر ما يبتلى به انسان أن يشعر أنه ليس انسانا .

أما ايمانه بالمثل العليا فهو يجعله دائما فى حركة دائبة ، وسعى مستمر للوصول الى الأعلى والأرقى ، ومثل هذا لا تنطفىء أبدا فى نفسه شعلة الايمان بالحق والخير والكمال الانسانى ، فاذا أصبحت هذه المعانى الرفيعة شيئا تافها فى نفسه صار هو أيضا كالهشيم الذى اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، لا هو فى السماء ، ولا فى الأرض ، ولا وزن له فى موازين الحياة والأحياء .

وأما ايمانه بالحياة نفسها ، وبأن فيها من الطيبات ، والمعانى السامية والخيرات ، ما يحمل كل حى على أن يأخذ نصيبه منها ، فهو الذى يجعله فى أمل مجدد ورجاء غض كلما أطبقت عليه المصائب فدقته دق الرحى ، وتوالت عليه النكبات فوقع فى ظلمة حالكة مضلة ومهلكة ، انبعث فى نفسه نور الأمل ، فبدد الظلمات شيئا فشيئا حتى يصبح ويمسى فاذا الغمم قد انجابت ، والبلايا قد هانت ، فان لم تكن قد اختفت من حياته فكأن قد .

والانسان المؤمن بربه وبنفسه وبالحياة اذا جفته الدنيا ، وأطبقت عليه وحشتها نظر فى نفسه فاستعان بأجمل وأقوى ما فيها من شجاعة ، وقوة ارادة ، ومعرفة حقة بتصرفات الحياة وتقلباتها ، وايمان راسخ بفضل الله ورحمته وعونه للمؤمنين به ، وحينئذ يعود اليأس أملا ، ويصبح القنوط رجاء ، ويقبل على الكفاح والعمل .

(والايمان الصحيح هو بشاشة الروح ، واعطاء الله الرضى من القلب ، ثقة بوعده ، ورجاة لما عنده ، ومن هـذين يكون الاطمئنان ، وبالبشاشة والرضى ، والثقة والرجاء يصبح الايمان عقلا ثانيا مع العقل ، فاذا ابتلى المؤمن بما يذهب معه الصبر ، ويطيش له العقل ، وصار من أمره فى مثل الجنون برز فى هـذه الحالة عقله الروحانى وتولى سياسة جسمه حتى يفيق العقل الأول (١) .

أما الذى يدعو حين يمسه الضر ، فلا تزال فيه بقية من حياة ، وبقية من أمل فهو يطلب العون ، وهذا الطلب ـ وحده ـ دليل واضح على أن نفسه لم تفقد الايمان بعد فهو لم يذهب عنه أن الخير قد ينبع من الشر : (فان مع العسر يسرا . ان مع العسر يسرا) ولم يذهب عنه أن الله مقلب الأمور والأحوال ، وأن الفجر لا بد أن يعقب الليل ، مهما اشتدت حلكته ، وأطبقت ظلماته ، واذا كان صاحبه اليأس قد فقد ارادة الحياة ، فان قلبه لا يزال يخفق بها ، وقد يشعر الانسان بأن كلمة فى الحياة قد فقدت معناها فيعيد كتابتها من جديد ، أو يضع مكانها كلمة أخرى لها معنى ربما كان أعمق ، أما الذى يشعر بأن كلمة الحياة نفسها قد فقدت مغزاها،فذلك الذى فقد الحياة فى قلبه وعقله . و (من الخير أن يعطف على أولئك الذين يبكون ، ولكن الذين هم فى حاجة أكثر الى العطف هم أولئك الذين تنازلوا قانطين عن حق البكاء) (٢) .

* * *

٤ ـ ركوب البحر .

كان الناس ـ ولا يزالون ـ يرون ركوب البحر أحد الأهوال التى يمر بها الانسان فى حياته ـ الا من اعتاد ذلك ـ ولذلك كان بعض أمراء المؤمنين يكره أن يكون بينه ، وبين جنده المجاهد فى سبيل الله بحر، خوف ألا تسرع اليه النجدة حين يتطلبها موقف القتال .

---

(١) وحى القلم للمرحوم الرافعى جـ ٢ ص ١٠٣ .

(٢) من كتاب (عندما يواجه المسلمون أنفسهم) ص ١٤٣ والكتاب من تأليف آرثر ـ ت ـ جيرسلد ، وترجمة الدكتور محمد العريان وفيه فصل جيد عن اليأس والقنوط .

ولذلك أيضا وقع خلاف بين العلماء : هل يجوز ركوب البحر أولا ؟

واذا كان الرأى الراجح أنه يجوز الا حين ارتجاج أمواجه ، وفى الزمن الذى يكون الأغلب فيه عدم السلامة ، وانما يجوز عندهم ركوبه فى زمن تكون فيه السلامة أغلب .

كما اختلف العلماء أيضا فى راكب البحر وقت الهول : هل حكمه حكم الصحيح ، فله التصرف فى جميع أمواله ، أو حكم المشرف على الموت ، فلا يجوز له أن يقضى فى ماله شيئا الا فى الثلث .

وقد قال ابن القاسم من علماء المالكية : ان حكمه حكم الصحيح ، وعقب ابن العربى على هذا الحكم قائلا : وابن قاسم لم يركب البحر ، ولا رأى ذودا على عود . ويريد أنه لو ركب البحر لوافق أصحابه الذين يرون أن راكب البحر وقت الهول لا يجوز له التصرف الا فى ثلث ماله .

وللقرطبى صاحب التفسير عبارة لطيفة فى هذا الشأن : (ومن أراد أن يوقن بالله أنه الفاعل وحده لا فاعل معه ، وأن الأسباب ضعيفة لا تعلق لموقن بها ، ويتحقق التوكل والتفويض فليركب البحر (١) .

ومن هنا ندرك السر فى أن القرآن ضرب المثل — فى الهول — بالناس يركبون البحر فيلجأون الى الله . وقد ذكرنا فيما سبق — بعض الآيات التى جاءت فى هذا المعنى ، وسنذكر هنا بقية الآيات .

جاء فى سورة الأنعام قوله تعالى : (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين ، قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون) .

ففى هاتين الآيتين جمع القرآن بين البر والبحر ، فان لكل منهما مخاطر ومخاوف ومهالك ، وهى ما سماها (ظلمات) وأثبت لهؤلاء الجاحدين أنهم حين يقعون فى هذه الظلمات ، فلا يعرفون طريق النجاة — يخضعون لله غاية الخضوع ، ويتذللون له غاية التذلل ، ويدعونه آخذين العهد الوثيق على

---

(١) جـ ٧ ص ٣٤١ ، ط ، ثانية .

أنفسهم لئن أنجيتنا من هذه الظلمات لنكونن من الشاكرين ، لفضلك الذى لا يدانيه فضل ، ، ولرحمتك التى لا ينبغى أن تجحد ، وأرشد الرسول الكريم محمد عليه الصلاة والسلام الى أن يقول لهم : ان الله وحده هو القادر على أن ينجيكم من هذه الظلمات ، ومن كل كرب ، غير أنكم ــ لسوء طباعكم ــ تحثون فى وعدكم الذى أكدتموه بالقسم ، وتشركون به سبحانه غيره .

وقد جاءت هاتان الآيتان فى جو كله يشع بقدرة الله وعظمته وأحقيته بالعبادة وحده ، فقد سبقها بيان احاطة علم الله ، وشمول قدرته ، فكل شىء حدث ويحدث فى البر أو فى البحر مثبت عنده فى كتاب مبين ، وأنه القادر فوق عباده ، والحافظ عليهم أعمالهم وأنه مولاهم الحق له الحكم ، وهو أسرع الحاسبين ، فمن حقه أن يلجأ اليه فيما ينوب الخلائق من شرور وكرب ، والحقيقة أن هذا أمر مركوز فى طباعهم ، فهم لا يشعرون بقدرة غير قدرته عندما يمسهم الشر ، ولكنهم يغفلون عما يقتضيه هذا من دوام تنزيه ، واخلاص التوحيد له وقت الرخاء ، وبعد أن بين لهم أن الله هو الذى ينجيهم من كل كرب ، وأنهم يدعون متضرعين ، ثم معاهدين أن يظلوا على شكره ، فاذا ما انقشعت الغمة ، وانجلت غياهب الخطوب رجعوا الى سوء معتقدهم ، ونسوا ما عاهدوا الله عليه ، بعد ذلك نبههم الى ما يقعون فيه من غفلة وجهل ، فان هذا الذى يجعلون له شركاء ، ويأمنون بأسه وجبروته ، وهم فى أمن ونعمة قادر على أن يبعث عليهم العذاب من كل جهة : (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ، ويذيق بعضكم بأس بعض ، انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون). وهكذا يذكرهم بقدرته على انزال العذاب بهم ، كما قدر على انجائهم من الكروب ، وهذا يشبه قوله تعالى فى آيات الاسراء التى سبقت : (أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر .. الآيتان) .

وفى هذا الختام الذى ختمت به الآية (انظر ... الخ) ما يفيد أن صاحب الفهم الثاقب ، والفقه الواعى لا يقع فيما وقع فيه هؤلاء ، فان الله يصرف الآيات من حال الى حال ، رجاء أن يقف هؤلاء على حقيقة الأمر

فيعتبروا ، ويرجعوا عن سلوكهم الشائن الذى لا يدل على فقه ولا على عقل ، وانما يدل على بلادة وحمق .

وقد سبق فى هذه السورة ما يشير ـ أيضا ـ الى أنهم لا يدعون فى حالة نزول العذاب بهم غير الله ، فهم يخصونه بالدعوة ، ولا يشركون معه غيره : (قل أرأيتكم ان أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون ان كنتم صادقين ، بل اياه تدعون فيكشف ما تدعون اليه ان شاء وتنسون ما تشركون) .

وجاء فى سورة لقمان قوله تعالى : (ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ،واذاغشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم الى البر ، فمنهم مقتصد ، وما يجحد بآياتنا الا كل ختار كفور) .

وقد سبقت هاتان الآيتان — أيضا — بما يؤكد انفراد الله سبحانه بالوحدانية ، وأنه عظيم القدرة ، بالغ الحكمة ، وقد دلل القرآن على ذلك بتعاقب الليل والنهار ، وتسخير الشمس والقمر ، مما يدل على حساب دقيق ، فنعلم بذلك عدد السنين والحساب ـ كما جاء فى سورة يونس ـ وكما أكد أن الله هو الحق أكد أن كل ما يدعى من دونه هو الباطل . (ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، وسخر الشمس والقمر ، كل يجرى الى أجل مسمى ، وأن الله بما تعملون خبير ، ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير) . ثم لفت الأنظار الى النعمة العظيمة وهى جريان الفلك فى البحر وقد سخر الله لنا البحر لما فيه من فوائد جليلة سبقت الاشارة الى بعضها ، وليرينا من آياته فى الآفاق ، ففى هذه الآيات ما يرشد ذوى العقول السليمة ، هؤلاء المؤمنين الذين يصبرون على البلاء ، ويشكرون النعماء ، وهنا يجىء المثل للمؤمنين الذين يخلصون لله الدعاء فى الضراء والسراء ، والمشركين الذين يجحدون بآيات الله ، فالجميع يخلصون الدعاء لله اذا اشتد الكرب فعلا الموج ، وتراكب — وعاد مثل الظلة — وهى كل ما أظلك من جبل أو سحاب ، أو غيرهما ويخلصون أنفسهم من كل شائبة شرك . ولكنهم حين

ينجيهم الله من هذا الهـول العظيم ، وينتهى بهم السـير آمنين الى البر يتفرقون ، فيبقى فريق منهم على ايمانه ، يذكر الله فى حال أمنـه وسلامته ، كما كان يذكره فى حالة خوفه واضطرابه ، فهو ثابت على ما عاهد الله عليه فى البحر من اخلاص الدين له ، وطرح ما سواه ، ومنهم من يعود الى كفره وينسى ما عاهد ربه عليه ، وقد عبر القرآن عن المؤمن الثابت على عهـده بالمقتصد ، وعبر عن المشرك الخانس بعهده بالختار الكفور (والختر أشد الغدر) .

وقد ذكر بعض المفسرين أن الفريق الأول هو المقتصـد فى اخلاصـه الذى كان عليـه فى البحـر ، يعنى أن ذلك الاخلاص الذى جاء به الخوف لا يبقى لأحد قط ، ولعل هذا أقرب الى الواقع ، فان الذى تصـفو نفسه ، وتتجه بكليتها الى الله عند الشدة ثم تبقى على درجة هذا الصفاء ، وهـذا الاتجاه والتضرع من الندرة بمكان ، وضعف الاخلاص حال الأمن عنه حال الخوف لا ينافى الايمان ، فطبيعة النفس البشرية أن حرصـها على الشىء يتناسب مع حاجتها اليه ، ولا شك أن حاجة الانسان للدعاء والتضرع أقوى فى حالة الخوف وليس معنى الاقتصاد فى الاخلاص التوجه الى غير الله ، أو اعتقاد غيره بحال من الأحوال ، ولـكن معناه أن اقبال الانسـان بكثرة الدعاء ، وعمقه ، وحرارته ، وما يتبعه من أنوا ع العبادة الأخرى كالصـلاة والصدقة هذا الاقبال يبلغ مداه عندما يشتد الكرب ، ويتضاءل كلما خفت حدة النازلة الحازبة .

وآخر ما نزل فى هذا المعنى ما جاء فى سورة العنكبوت ، فقـد كانت هذه السورة من آخر ما أنزل بمكة ولم ينزل بعدها الا سـورة المطففين ، ولذلك كانت آيات العنكبوت كالخاتمة لهذا المعنى ، والحديث فيها عن أهل مكة ، وقد جاءت هذه الآيات محيطة بعقيدة هؤلاء المشركين محتجة عليهم بما ينكر صنيعهم واشراكهم .

كشفت أولا عن حقيقة اعتقادهم فى أن الله هو الخالق والرازق،وأنكرت عليهم أن يصدفوا عن توحيده جلت قدرته ، ووصفت أكثرهم بأنهملايعقلون ما ركز فى نفوسهم من الاقرار لله بالانفراد بالخلق والرزق ، ولو أنهم عقلوا

ذلك لرأوا أنه يدل على بطلان الشرك ، وصحة التوحيد ، ثم أكدت لهم أن الحياة الدنيا لهو ولعب ، وأن الحياة الحقيقية انما هى الآخرة ، ولو علموا ذلك ما آثروا الحياة الدنيا على الآخرة ، ولما خالفوا عن أمر الله ، وتنكبوا الطريق الواضحة الى ثنيات الطرق ، فمقتضى اعتقادهم فى قرارة أنفسهم أن الله خالق السموات والأرض وأنه المنزل من السماء ماء فيشيع النماء والخصب مقتضى هذا ألا يشركوا به شيئا . بعد ذلك كرر عليهم الصورة المعهودة عندهم ، المعروفة لديهم ، وهى أنهم ــ كما يعترفون بالله خالقا ورازقا ــ يقرون له بالعبودية ، ويفردونه بالدعاء عندما يركبون البحر ، ولكنهم لا يكادون يخرجون الى البر حتى يعودوا الى شركهم وعنادهم فيكونون بذلك (كافرين بنعمة النجاة قاصدين التمتع بها ، والتلذذ لا غير ، على خلاف ما هو عادة المؤمنين المخلصين على الحقيقة اذا أنجاهم الله أن يشكروا نعمته فى انجائهم ، ويجعلوا نعمة النجاة ذريعة الى ازدياد الطاعة ، لا الى التمتع والتلذذ (١)) .

ثم وبخهم الله على نعمة أسبغها عليهم ، هى من أجل النعم ، وهى نعمة الأمن ، وعلماء النفس يؤكدون أن أضر الغرائز على الانسان هى غريزة الخوف ، فلا شك كان الأمن أجل نعم الله تعالى ، ولذلك جاء فى الحديث : (من أصبح آمنا فى سربه معافى فى بدنه ، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا) .

وقد كان العرب ــ كما هو معروف ــ يعيشون على الغارات ويقتتلون على موارد الماء ومنابت العشب ، حتى ليغير بعض القبيلة على بعض ، كما قال القطامى :

وكن اذا أغرن على قبيل ... وأعوزهن نهب حيث كانا (٢)
أغرن من الضباب على حلول ... وضبة انه من حان حانا
وأحيانا على بكر أخينا ... اذا ما لم نجد الا أخانا

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٩٦ الطبعة الأولى .

(٢) الضمير فى (كن) و (أغرن) و (أعوزهن) الى الخيل . والأبيات فى حماسة ابى تمام . شرح التبريزى جـ ١ ص ٣٢٩ . ط . التجارية . والحى الحلول الذين يكونون فى مكان واحد . والضباب يشمل عددا من القبائل . والقطامى شاعر مخضرم رقيق الحواشى ، كثير الامثال .

كان هذا شأن العرب خارج مكة ، أما أهل مكة فكانوا آمنين فى سربهم لا يفكر أحد فى الاغارة عليهم مع قلة عددهم : (فذكرهم الله هذه النعمة الخاصة عليهم ووبخهم بأنهم يؤمنون بالباطل الذى هم عليه ، ومثل هذه النعمة المكشوفة الظاهرة وغيرها من النعم التى لا يقدر عليها الا الله وحده مكفورة عندهم) .

قال تعالى : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ، وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون . الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ، ان الله بكل شيء عليم ، ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء، فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله ، قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون ، وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب ، وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون . فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين، فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون.ليكفروا بما آتيناهم،وليتمتعوا فسوف يعلمون . أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ، ويتخطف الناس من حولهم ، أفبالباطل يؤمنون ، وبنعمة الله هم يكفرون) .

ومما لوحظ أن هذه الآيات وردت للمشركين فى عبادة الله ، المؤمنين بربوبيته ، أما آيات لقمان فقد وردت فى الناس بعامة ، فى حين جاءت آيات يونس فى الكافرين بنعمة الله ، الباغين فى الأرض بغير الحق .

وقد يبعد هذا الأخير أن الخطاب عام لأن التسيير فى البر والبحر ليس خاصا بفريق دون فريق ، جاء فى حاشية الجمل على الجلالين فى حكمة الالتفات فى قوله تعالى : « حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم » : (قال الشيخ : والذى يظهر أن حكمة الالتفات هنا هى أن قوله : هو الذى يسيركم خطاب فيه امتنان ، واظهار نعمة المخاطبين ، والمسيرون فى البر والبحر مؤمنون وكفار ، والخطاب شامل ، فحسن خطابهم بذلك ليستديم الصالح الشكر ، ولعل الصالح يتذكر هذه النعمة .

ولما كان فى آخر الآية ما يقتضى أنهم اذا نجوا بغوا فى الأرض عدل عن خطابهم بذلك الى الغيبة لئلا يخاطب المؤمنين بمالا يليق صدوره منهم، وهو البغى بغير الحق ١ هـ سمين) .

وهذا — عندى — كلام وجيه ، فان البغى بغير الحق يصدر عن المؤمنين كما يصدر عن المشركين ، كما يصدر عن الكافرين .

ولعل الذى حمل بعض المفسرين على أن يجعل الحديث هنا عن كفار مكة وأن الكلام فى الآية مستأنف لبيان جناية أخرى لهم ، أن الحديث جرى قبل ذلك عن كفار مكة ، ولكن ما المانع أن يكون الكلام مستأنفا لبيان أحوال الناس بعامة ، وكفار مكة منهم فهم داخلون فى هذا العموم ، وهم كالناس يلجأون الى الله فى الشدة .

وبعض المفسرين (يحمل الانسان) فى الآيات التى ورد فيها ، والتى تضمنت هذا المعنى على (الكافر) وهذا وان كان واضحا فى بعض الآيات غير لازم فى بعضها الآخر ، وحتى على فرض أن المراد بالانسان فى كل ذلك الكافر ، وأنه يدعو الله فى شدته ، فالمؤمن أولى بهذا الدعاء ، فدل ذلك على أن الناس جميعا مجبولون على الرجوع الى الله فى الشدائد .

ومما تدل عليه كل الآيات التى ذكرناها فى ركوب البحر أن المضطر يجاب دعاؤه وان كان كافرا متى كان فى اجابته مصلحة ، ففيها كلها ذكر الانجاء ، حتى مع اشتداد الهول ، وكان هذا الانجاء فيها كلها نتيجة للدعاء والتضرع الى الله ، وهذا مصداق قوله تعالى فى سورة النمل : (أمن يجيب المضطر اذا دعاه ، ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أاله مع الله قليلا ما تذكرون) .

٥ ـ موقف الأقوام السابقين .

أردنا أن نشير الى الناحية التطبيقية لهذا المعنى فيما مضى من بحث ، فذكرنا أن القرآن أخبر فى بعض الآيات أنه ما أرسل الى قوم من نبى الا أخذهم الله بالبأساء ليتضرعوا فلم يتضرعوا ، وأخبر فى بعضها أن الله أرسل الى أمم قبل محمد فأخذهم بالبأساء والضراء ليتضرعوا فلم يتضرعوا ، ففتح عليهم أبواب الرزق ، ففرحوا وبطروا فأخذهم بغته .

ثم أخبر عن فرعون بأنه آمن لما أدركه الغرق فلم ينفعه ايمانه ، وعن قوم يونس بأنهم آمنوا لما أحسوا بدنو العذاب منهم ، فنفعهم ايمانهم ،ولم يحدث هذا لأهل قرية قبل قوم يونس .

وقد جاء فى أوائل سورة : (ص) قوله تعالى : (كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص) . قال المفسرون فنادوا : أى : دعوا واستغاثوا عند نزول البأس ، طلبا للنجاة ، ولكن قد فات وقت النجاة فليس الحين حين نجاة لهم .

وفى هذه الآية يخبر القرآن أن كثيرين من الأقوام أراد الله اهلاكهم فاستغاثوا ودعوا الله أن ينجيهم ، ويؤيد ذلك آيات الأنبياء : (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين ، فلما أحسوا بأسنا اذا هم منها يركضون ، لا تركضوا وارجعوا الى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسئلون ، قالوا يا ويلنا انا كنا ظالمين ، فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين) (١) .

فالله سبحانه وتعالى يخبر بأنه أهلك قرى كثيرة كانت ظالمة ،واستأصل أهلها ، وأنشأ بعدها أناسا آخرين ، لا يمتون اليهم بصلة ، لا فى النسب ولا فى الدين ، وأن هؤلاء الأقوام كانوا اذا أدركهم العذاب الشديدادراكا تاما هربوا مسرعين ، راكضين دوابهم ، فقيل لهم على سبيل الاستهزاء والتوبيخ : تمهلوا لا تركضوا ، وارجعوا الى ما كنتم فيه من الترف والنعيم، والغفلة ، وارجعوا الى مساكنكم التى كنتم تفتخرون ، وتعجبون بها لعل قوما يقصدونكم للسؤال والعطاء ، وهو تهكم بهم ، بعد تهكم ، فقالوا لما يئسوا من النجاة ، يا هلاكنا ، ورجعوا على أنفسهم باللائمة ، واعترفوا بذنوبهم ، واستغاثوا ، وما زالوا يرددون اللوم والاستغاثة حتى هلكوا عن آخرهم .

وفى آية الأعراف التى ذكرناها سابقا ، وهى — ان لم تكن ذاكرا لها — : (وما أرسلنا فى قرية من نبى الا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون) . وهم لم يتضرعوا بدليل أن القرآن لم يذكر ذلك ،وانما جاء بعقب هذا أن الله بدل مكان السيئة الحسنة لترجعهم النعم الى عقولهم، ووجداناتهم السليمة لما عجزت النقم عن ذلك .

---

(١) الآيات ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥

وهنا يبدو فى الظاهر التناقض بين آية (ص) وآية (الأعراف) فالأولى تقرر أن كثيرا من الأقوام تضرعوا عند البأساء ، والثانية تقرر أنه ما من أهل قرية تضرعوا عند البأساء .

وأقرب ما يتبادر الى الذهن فى التوفيق بين الخبرين أن التضرع لم يحدث فى حال السعة ، والفسحة من الأجل ، ولكنه حدث عند وقوع الهلاك فعلا ، أى عند ابتداء وقوعه ، ونظم آية (ص) يدل على ذلك (كم أهلكنا — فنادوا) فكأن النداء كان عقب الهلاك مباشرة ، والعلماء يقدرون هنا (أردنا أن نهلك) ولكن السر فى التعبير بوقوع الهلاك بالفعل أنه لم يكن هناك فاصل بين هذه الارادة وبين النداء ، فربما وقع جزء من العذاب فاستغاثوا ، فدمدم الله عليهم ، وأتم اهلاكهم ، ويوضح هذا أكمل توضيح موقف فرعون وايمانه عندما رأى الموت بعينيه .

وقد أشكل على ذلك قصة قوم يونس . ويقضى على هذا الاشكال أن قوم يونس مستثنون ، فهم قد تضرعوا قبل وقوع العذاب ، ولم يتضرع أهل القرى الأخرى .

وقيل ان الله خصهم بالنجاة مع أن دعاءهم كان عندما رأوا العذاب قد أظلهم .

ويؤيد ما ذهبت اليه أوضح تأييد ما جاء فى آخر سورة (المؤمن) فان الآيات صريحة فى أن الأمم السابقة ذهبت ولم يغن عنها كثرتها ولاقوتها ولا ما كان لهم من قصور ومصانع ، فانهم كفروا حين جاءتهم رسلهم بالبينات ، فلما رأوا عذاب الله واقعا بهم آمنوا به ، وكفروا بشركهم ،ولكن ما كان ينبغى لهذا الايمان أن ينفع لأنه وقع فى وقت لا ينفع فيه الايمان ، وهذه سنة الله فى الأمم السابقة ، لا ينفعهم ايمانهم لو آمنوا وفى الأجل فسحة ، ولا وزن لهذا الايمان ، ولا فائدة منه ، اذا جاء وقت نزول غذاب الاستئصال : (أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة ، وآثارا فى الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون، فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم ، وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون ، فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به

مشركين ، فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون) .

وقوله تعالى : (فرحوا بما عندهم من العلم معناه كفروا) والعلم الذى فرحوا به هو علمهم بشئون الدنيا ، وما كانوا يتعاطونه من بعض المعارف القاصرة ، وقيل هو وارد على سبيل التهكم بهم ، كأنهم يعتدون ما يجادلون به عن أنفسهم وما يردون به على الأنبياء من جهالاتهم علما .

والسياق واضح فى أن عدم اغناء مكسوبهم أو كسبهم عنهم نتيجة لكونهم أكثر من كفار قريش وأشد قوة ، وآثارا فى الأرض ، وأن مجيء البينات وكفرهم بها وايمانهم عند مجيء البأس ، وعدم نفع هذا الايمان كل ذلك تفسير وبيان لقوله تعالى : (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) .

٦ ـ عود الى قوم فرعون .

مر بنا أن قوم فرعون لجأوا الى موسى يعدونه بالايمان اذا كشف الله عنهم العذاب ، وقد أعاد القرآن هذه القصة فى سورة (الزخرف) وكانت قد سبقت فى سورة الأعراف ، وترتيب سورة الأعراف فى النزول التاسعة والثلاثون ، أما سورة الزخرف فهى السورة الثانية والستون ، فكأن هذه القصة أعيدت بعد ثلاث وعشرين سورة .

قال تعالى — فى سورة الزخرف — : (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا الى فرعون وملئه فقال انى رسول رب العالمين ، فلما جاءهم بآياتنا اذا هم منها يضحكون ، وما نريهم من آية الا هى أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون ، وقالوا يأيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك انا لمهتدون ، فلما كشفنا عنهم العذاب اذا هم ينكثون) .

بعد أن بين الله سبحانه أن جميع الديانات السابقة اتفقت على عقيدة واحدة هى افراد الله بالألوهية : (واسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) فلو أن الرسول صلى الله عليه وسلم سأل أمم الرسل السابقين وعلماءهم وأجابوا بما هو ثابت عندهم فى كتبهم لثبت له أن الله لم يجز لأحد عبادة وثن أو صنم أو كوكب أو أى مخلوق آخر ، ثم عقب ذلك بدعوة من هذه الدعوات التى جاء بها نبى من أولى

العـزم ولا يزال أتباعه كثيرين ، وقـد جاء بطاغية من الطغاة العتاة فأنذره وحذره بطش ربه ، ان هو أشرك معه أحدا فى العبـادة ، فـكانت عاقبـة هذا الطاغية الهلاك لما استكبر هو وجنوده ، وفى هذا — أيضا — تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم الذى بالغ فى دعوة قومه ، ولقى فيها ما لقى من مكاره ومشاق ، وهم مع ذلك لا يزدادون الا عنادا وتجبرا ، واستغراقا فى الضلال ، وقد ثبت الله قلبه ، فأخبره بأنه سبحانه مقتـدر عليهم لو أراد اهلاكهم ، واستئصالهم لفعل ، فهو سبحانه لا يعجزه شىء ، وهذا فرعون والملأ من قومه مع ما كان لهم من غنى وسلطان قد أخذهم الله بالجـدب والقحط والطوفان والجراد والقمل ، ثم دمر ما كانوا يصـنعون ، وليس كفار قريش بأشد قوة ، ولا أعظم سلطانا من فرعون وملئه ، ولولا أن الله أراد أن يؤخر عنهم العذاب لأخذهم أخذة رابية .

وهذه الآيات تعيد الى أذهاننا بعضا مما تضمنته آيات الأعـراف : (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ... الآيات) .

فقوم فرعون هنا سخروا من موسى ، ومن آياته ، وكلما أراهم الله آية عظيمة ازدادوا عنادا ، وبعدا عن الحق ، وتمرغا فى أوحال الضلال ، فأخذهم الله بالعذاب ، وهذا العذاب المجمل هو ما سبق تفصيله فى آيات الأعراف : (الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم) .

وكانت الحكمة الالهية من هذا الأخذ أن يرجعوا عن غيهم ، ويفيقوا من سباتهم ، وقد أفاقوا ولكن افاقة المعاند المكابر الساخر ، فهم لم يخلصوا نفوسهم من رواسب الكفر ، ولم يضيئوا قلوبهم بنور الله ، ولكنهم اكتفوا بأن وعدوا موسى ، أن يهتدوا اذا كشف الله عنهم العذاب ، وقد أراد موسى عليه السلام أن يلزمهم الحجة ، وأن يعرف مـدى صدق نياتهم فى هـذا الوعد ، فدعا ربه فاستجاب له ، فلما كشف الله عنهم العذاب نكثوا عهدهم ، ورجعوا — وان لم يتركوه فى الحقيقة — الى سابق كفرهم .

ويرى جمهور المفسرين أن نداءهم اياه (بالساحر) من باب التعظيم له عليه السلام ، فقد كان هذا هو اللقب العظيم الذى يطلق على كل عالم .

ويرى بعضهم أن هذا الوصف كان منهم على سبيل السخرية ، فكأنهم

لم يكونوا صادقى الرغبة فى الاهتداء ، ولم يكونوا يريدون أن يفوا بهذا العهد الذى قطعوه على أنفسهم .

وهذه الآيات تختلف عن آيات الأعراف ، فقد جاءت الآيات هنـاك جزءا من قصة طويلة كانت احدى قصص الأمم السابقين ، فكانت سـطرا فى هذه القصة العجيبة ، أما هنا فجاءت الآيات لمناسبة خاصة أشرنا اليها آنفا ..

وآيات الأعراف فصلت الرجز الذى أخذ الله به قوم فرعون ، أما هنا فأجمله فى كلمة (العذاب) .

وأشارت آيات الأعـراف الى لون من جبروتهم وحمـاقتهم ، فانهم اذا جاءتهم الحسـنة قالوا نحن مسـتحقوها ، أما اذا أصابتهم السيـئة فانهم ينسبونها الى شؤم موسى وقومه ، وليس فى آيات الزخرف شىء من هذا .

وفى آيات الأعراف اعراب عما وصلوا اليه من الاسـتكبار والعمى ، فانهم آيسوا موسى من الايمـان مهما جاءهم به من الآيات ، وقـد اكتفت آيات الزخرف بأنهم كانوا يضحكون من آيات الله .

وفى هذه الآيات وعدوا موسى بأنه اذا كشف عنهم العـذاب بدعائه اهتدوا ، أما فى آيات الأعراف فقد وعدوه بأمرين : الايمان به ، وارسال بنى اسرائيل معه .

وفى الأعراف جاء تمام القصة بالانتقام منهم واغراقهم . وتعليل ذلك بأنهم كذبوا بآيات الله ، وكانوا عنها غافلين ، ثم بأن أورث الله بنى اسرائيل الذين كانوا مستضعفين مشارق الأرض ومغاربها . وقد جاء كل ذلك عقب نكثهم بعهدهم .

أما هنا فقد استطردت الآيات الى ما كان من فرعون من ندائه فى قومه بأن له ملك مصر ، وبأن الأنهار تجرى من تحته ، وبأنه خير من موسى . والى أن فرعون استخف قومه فأطاعوه . وأخيرا أغرقهم الله أجمعين ،وجعلهم عبرة ومثلا لمن يجىء بعدهم من الأمم .

وليس فى آيات الأعـراف أن الله أغرقهم (أجمعين) وانمـا اكتفت بـ (أغرقناهم فى اليم) وفى يونس لم تتعـرض الآية صراحة لاغـراق آل

فرعون ، بل جاء فيها (حتى اذا أدركه الغرق) ، وفى البقرة (وأغرقنا آل فرعون) وفى الشعراء (وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين) .

وهكذا لو تتبعنا الآيات المتشابهة لوجدنا بينها اختلافا بالزيادةوالنقص والايجاز والاطناب ، بل لو تتبعنا جزئية من الجزئيات ، وأمعنا النظر فيها لوجدنا اختلافا أيضا ، وهذا يدلنا على أن التكرار بمعناه الدقيق ليس موجودا فى القرآن وسنزيد هذا المعنى ايضاحا فى نهاية هذا البحث .

٧ ـ بنو اسرائيل .

لعل القرآن لم يتحدث عن قوم من الأقوام السابقين أكثر مما تحدث عن بنى اسرائيل ، ولعل السبب فى ذلك أن تاريخهم امتد زمنا طويلا ، وتعاقب فيهم كثير من الأنبياء والرسل ، ولم يستأصلهم الله — كما استأصل أقواما من قبلهم — وان كانت جرائمهم ، ومخالفاتهم لا تقل عن جرائم من سبقهم من الأمم الضالة المكذبة ، فبقوا يحاربون أنبياءهم ، ويحاربون من جاء من بعد أنبيائهم ، فحاربوا عيسى ، وادعوا أنهم صلبوه ، وحاربوا محمدا صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم هزموا فى نهاية أمرهم وأخرجوا من ديارهم وأموالهم ، وخربوا بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين — كما جاء فى سورة الحشر — .

وشاء الله — وله الحكمة البالغة — أن يظلوا مع التاريخ يشيعون الفساد والعداوة ، وينشرون الشر فى كل قرن .

والذى يعنينا هنا من أمرهم هو موقفهم من ابتلاء الله لهم بالنعم والنقم وقبل أن نكشف سلوكهم فى هذين نشير الى قوله تعالى : (وقطعناهم فى الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسناتوالسيئات لعلهم يرجعون) فمنهم الصالحون كما قال تعالى : (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) . ومنهم الكافرون ، ومنهم الفاسقون ، ولكن أكثرهم — كما تشير اليه آيات كثيرة — كانوا منذ عهد موسى الى عهد محمد فاسقين ، ظالمين ، معاندين .

وفى هذه الآية أمران :

أولا — تقطيعهم أمما ، ومعناه تفريقهم فى كل قطر ، حتى لا تكون لهم شوكة وحتى يتحقق فيهم قول الله تعالى : (وضربت عليهم الذلة والمسكنة) .

ثانيا — ابتلاؤهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون .
وقد قص علينا القرآن فى آيات كثيرة ما منحهم من النعم الكثيرة ، وقد ذكرنا بعضها فى أول هذا البحث .

وقد كان من شأنهم أنهم كفروا هذه النعم ، وخالفوا عن أمر الله فى كل نعمة اختصهم الله بها ، وخاطبهم الله فى أول سورة فى الترتيب المصحفى يذكرهم بنعمته وبعهده .. (يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ، وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وايای فارهبون ، وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا وايای فاتقون ، ولا تلبسوا الحق بالباطل ، وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) .

والخطاب هنا ليهود المدينة ، وانما امتن الله عليهم بهذه النعم لأن النعمة على الآباء نعمة على الأبناء ، والمراد بالنعمة هنا جنس النعمة ، والمراد النعم التى منها انجاؤهم من آل فرعون ، وجعل منهم أنبياء وملوكا ، وانزال المن والسلوى عليهم ، وتفجير الماء من الحجر ، وفرق البحر بهم فنجوا ، وغرق أعداؤهم .

والمراد بالعهد كل ما عهد اليهم من اتباع الأوامر ، واجتناب النواهى ، ويدخل فى العهد ما عهد اليهم فى التوراة من الايمان بمحمد عليه الصلاة والسلام ، وعهد الله اليهم هو أن يدخلهم الجنة .

ومن المعروف أن هؤلاء كفروا نعم الله كما كفرها آباؤهم ، فلم يوفوا بعهد الله ، ولم يرهبوه ، ولم يؤمنوا بالقرآن ، ولا بمحمد كما قال تعالى : « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » . وقد اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا ، وخلطوا الحق بالباطل ، وكتموا الحق ، وهم يعلمون أنه الحق .

ومن كفران آبائهم بالنعم ما دل عليه قوله تعالى (وظللنا عليكم الغمام، وأنزلنا عليكم المن والسلوى ، كلوا من طيبات ما رزقناكم ، وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) .

وقد ذكر المفسرون أن بنى اسرائيل لما كانوا فى التيه ، واشتد عليهم حر الشمس جعل الله عليهم السحاب الأبيض كالظلة ، وقالوا لموسى : من لنا بالطعام فأنزل الله عليهم المن والسلوى ، ولكنهم لم يقابلوا هذا بالشكر بدليل قوله تعالى : « وما ظلمونا » أى بجحدهم هذه النعم ، ولكنهم ظلموا أنفسهم ، لأن وراء كفران النعم أضرارا بالغة تلحق بهم على حد قوله تعالى: « لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم ان عذابى لشديد » .

وهكذا نجد بنى اسرائيل الآباء والأبناء قابلوا النعم بالتمادى فى العصيان وهذا قليل من كثير .

أما ابتلاؤهم بالسيئات فلم يؤثر فيهم أيضا ، وقد ابتلاهم اللهبالحسنات والسيئات رجاء أن يرجعوا عن عنادهم — كما جاء فى آية الأعراف السابقة — ولكنهم لم يرجعوا ، وتاريخهم الطويل ، وحديث القرآن عنهم فى أكثر من سورة يدلنا على أن أنبياءهم لقوا منهم عنتا كثيرا ، فقد بلغ عتوهم وطغيانهم أن قتلوا أنبياءهم ، ولعل أشد آية عليهم قول الله تعالى: « لعن الذى كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » .

ومن أمثلة ما ابتلاهم الله به من السيئات ما ورد فى قوله تعالى : (واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ، ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون) .

فقد عاندوا نبيهم ، وأسرفوا فى العناد ، فطلبوا رؤية الله جهرة ، وعلقوا على ذلك ايمانهم فأنزل الله نارا من السماء أحرقتهم ، فدعا موسى ربه فأحياهم ، رجاء أن يشكروا هذه النعمة ويتعظوا بتلك الصاعقة ، ولكنهم ما كادوا يشعرون بالحياة وبالعافية حتى نسوا النعمة والنقمة جميعا .

وقد اختبرهم الله اختبارا لم يقع لأمة من الأمم قبلهم ولا بعدهم ، ذلك (رفع الطور فوقهم) .

قال القرطبى فى تفسيره يعلل رفع الطور (وذلك أن موسى عليه السلام لما جاء بنى اسرائيل من عند الله بالألواح فيها التوراة قال لهم : خذوها والتزموها . فقالوا لا الا أن يكلمنا الله بها كما كلمك ، فصعقوا ثم أحيوا ، فقال لهم : خذوها ، فقالوا لا ، فأمر الله الملائكة فاقتلعت جبلا من جبال فلسطين طوله فرسخ فى مثله ، وكذلك كان عسكرهم ، فجعل عليهم مثل الظلة ، وأتوا ببحر من خلفهم ، ونار من قبل وجوههم ، وقيل لهم : خذوها ، وعليكم الميثاق ألا تضيعوها ، والا سقط عليكم الجبل ، فسجدوا توبة لله ، وأخذوا التوراة بالميثاق) (١) .

وقد جاء أصل هذه القصة فى القرآن فى أربعة مواضع :

١ ــ (واذ أخذنا ميثاقكم ، ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة ، واذكروا ما فيه لعلكم تتقون . ثم توليتم من بعد ذلك ، فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين) (٢) .

٢ ــ (واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما اتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا ، وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم ، قل بئسما يأمركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين) (٣) .

٣ ــ (يسئلك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعدما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبينا . ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) (٤) .

---

(١) ج ١ ص ٣٧٢ .
(٢) آية ٦٣ البقرة
(٣) آية ٩٣ البقرة
(٤) ١٥٣ ، ١٥٤ ــ النساء .

٤ ــ (واذ تتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنـوا أنه واقع بهم خـذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون) (١) .

أكثر المفسرين على أن نبى اسرائيل تابوا الى الله من سيىء أفعالهم لما رأوا الجبل فوقهم وقد روى أنهم سجدوا على شق ، وأعينهم معلقة بالجبل، فلما رفع الله عنهم الاصر قالوا لا سجدة أفضل من هذه التى تقبلهـا الله ، فرفع بها عنا العقوبة ، فمضوا يسجدون على شق واحد .

ويستدل القائلون بتوبة بنى اسرائيل فى هذه الحالة بقوله تعالى فى آية البقرة الأولى « ثم توليتم من بعد ذلك » . ويقولون ان التولى لايكون الا بعد قبول ، ويفسرون فضل الله فى الآية : « ولولا فضل الله عليـكم ورحمته » بقبول التوبة ، والرحمة بالعفو .

ولكنهم فى قوله تعالى فى آية البقرة الثانية « قالوا سمعنا وعصينا » ما يعارض هذا الفهم ، فوفق بعضهم بين الآيتين بأن قال ان العصـيان لم يكن مع السماع ، وانما كان بعده بمدة ، فهو كقوله تعالى : (ثم توليتم) ويلاحظ أن آية النساء ، وآية الأعراف قد خلتا من التصريح برفضهم ، أو بقبولهم ، فالتعارض بين آيتى البقرة ، لكنه مفهوم بين من الآية الأولى، ومنطوق من الآية الثانية .

والذى تميل اليه النفس أن بنى اسرائيل لم يتوبوا ، ولم يقبـلوا بصدق واخلاص نية ما عرضه موسى عليهم من العمل بالتـوراة ، وحفظ ما فيها ، وانما قبلوا الميثاق ظاهرا ، وأما (ثم توليتم) فمعناه أنكم خالفتم هذا الظاهر ، ورجعتم عما قبلتموه ، ويؤيد ذلك أمران :

الأول : قوله تعالى : (فلولا فضل الله عليكم ورحمته ، فمعناه : فضـله بالامهال وتأخير العذاب . قال أبو السعود : وهو الأنسب بمـا بعده .

الثانى : قوله فى الآية الثانة من البقرة بعد قولهم : سمعنا وعصينا . قوله : (وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم) . فا نهذا يؤكد أن حب

---

(١) الاعراف آية ١٧١ .

العجل بلغ من نفوسهم مبلغ الشراب ، فرسخ فى قلوبهم لفرط شغفهم به ، وحرصهم على عبادته ، وهذا كالتعليل لقولهم : وعصينا . فان من بلغ حرصه على عبادة اله آخر غير الله هذا المبلغ لا يتصور منه سماع ما أمر به سماع قبول واخلاص .

فان قبلنا تفسير الرحمة بالعفو كما جرى عليه جمهور المفسرين كان معناه أنهم لم يذعنوا لما أمروا به ، ولولا عفو الله عنهم لكانوا من الخاسرين ، ولكنه أهملهم حتى بلغوا الغاية التى لا وراءها فى الكفر والعناد والمخالفة عن أمر الله وكانت عاقبة أمرهم كما قال تعالى فى سورة الأعراف : (فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون . فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين . واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ، ان ربك لسريع العقاب وانه لغفور رحيم) (١) .

فقد عذبهم عذابين ، الأول عذاب البؤس والشقاء فى المعيشة وتسليط بعض الأمم عليهم ، والثانى مسخهم مسخ أبدان فكانوا قردة بالفعل ، أو مسخ أخلاق وأنفس فكانوا كالقردة فى طيشها ، وشرها ، وافسادها لما تصل اليه أيديها . وبكل قيل .

ثم أعلمهم بأنه قضى عليهم بأن يسلط عليهم ماداموا على وجه الأرض من يوقع بهم أشد أنواع القهر ، وانكال ، فسلط عليهم البابليين ، فنكلوا بهم شر تنكيل ، ثم سلط عليهم النصارى فسلبوهم ملكهم ، ثم سلط عليهم المسلمين لما غدروا بهم — وهم فى يثرب — ونصروا عليهم المشركين ، قاتلهم النبى وانتصر عليهم ، وأجلى بعضهم عن ديارهم ثم جاء عمر فأخرج من بقى من اليهود فى بلاد العرب ، ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة .

أما ما ابتلى به الاسلام من تسلطهم الآن على جزء من بلاده فيكفيهم ذلا أن أحدا فى هذه الدنيا العريضة لا يعترف فى قرارة نفسه بحقهم فى اقامة هذه الدولة ، ومع هذا فلن يشك مسلم واحد لحظة أن اليوم الذى

---

(١) الآيات : ١٦٥ ـ ١٦٦ ـ ١٦٧ .

يسامون فيه سوء العذاب آت لا ريب فيه ، وهم ومن يشايعهم،ويقف وراءهم من دول الغرب يرونه بعيدا ، ونحن نراه قريبا .

وينبغى أن يكون مفتاح كل حديث عن هؤلاء اليهود قوله تعالى : (واياى فارهبون) ، فهم شعب يخاف ولا يعرف الحياء ، وهذا الأمر لم يوجه فى القرآن لأحد غيرهم .

٨ ـ لماذا يبتلى الله عباده ؟

كل ما مضى من هذا البحث يدور حول أمر واحد هو موقف الناس عندما تصيبهم المصائب ، وعندما تغمرهم النعم ، وبدهى أن أساس هـذا أن الله يبتلى عباده بالسراء ، ويبتليهم بالضراء . فلماذا .

قد أجاب القرآن فى غير موضع على هذا السؤال :

قال تعالى : (كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون) (١) . فالحياة هى ميدان العمل ، وميدان الاختبار ، يختبر الله عباده بالبلايا ، ليعلم هل يصبرون أو يجـزعون ، ويقنطـون من رحمته ، ويختبرهم بالنعم ليعلم هل يشكرون أو يبطرون ، ويكفرون ، وعلى ذلك يعاقبهم أو يثيبهم .

وقـد صرح القرآن بالغـاية من الاختبار فى سورة (محمـد) : (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخبـاركم) (٢) وقد روى أن الفضل بن عياض كان اذا قرأ هذه الآية بكى ، وقال : اللهم لا تبلنا فانك لو بلوتنا فضحتنا ، وهتكت أستارنا وعذبتنا . ولفظ الابتلاء هنا عام ، وان كان بعض المفسرين حمله على الابتلاء بالأمر بالجهاد ،ونحوه من التكاليف الشاقة .

كما صرح بها أيضا فى سـورة آل عمران عند الحـديث عن شـأن المؤمنين الذين أصيبوا فى غزوة أحد : (ان يمسسكم قرح فقد مس القوم

---

(١) سورة الأنبياء الاية ٣٥
(٢) الآية ٣١

قرح مثله . وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين (١) .

وليمحص الله الذين آمنوا ، أى يطهرهم من ذنوبهم ، ويمحق الكافرين، أى يستأصلهم بالهلاك ، فهذه نتيجة الشدائد ، تفيد من صبر عليهاورجع الى ربه ، وتضر من غفل عن سنة الله فى خلقه .

وقد وردت آيات فى أن المراد بالابتلاء هو قصد الاختبار ، منها قوله تعالى : (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون) وقوله فى شأن النعم التى يسبغها على عباده فيتطاولون بها ويدعون أنها من حسن تأتيهم ، وجميل سعيهم ، فيرد عليهم قائلا (بل هى فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون (٢)) .

وقد أنكر القرآن على بعض المؤمنين الذين ظنوا أن كلمة الايمان كافية ومغنية عن اختبارهم فى أنفسهم : (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا ، وليعلمن الكاذبين (٣)) .

قيل : نزلت فى ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم جزعوا من أذى المشركين ، وقيل : نزلت فى عمار بن ياسر ، وكان ــ كما هو مشهور ــ يعذب من مشركى مكة عذابا شديدا ، وقيل : نزلت فى ناس من مكة أسلموا فكتب اليهم المهاجرون بأنه لا يقبل منهم ايمان حتى يهاجروا ، فخرجوا ، فتبعهم المشركون ، فردوهم ، فلما نزلت كتبوا بها اليهم ، فخرجوا ، فاتبعهم المشركون ، فقاتلوهم ، فمنهم من قتل ، ومنهم من نجا .

والفتنة ــ كما يقول الزمخشرى ــ الامتحان بشدائد التكليف من مفارقة الأوطان ، ومجاهدة الأعداء، وسائر الطاعات الشاقة، وهجر الشهوات والملاذ ، وبالفقر ، والقحط ، وأنواع المصائب فى الأنفس والأموال، وبمصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم وضرارهم .

---

(١) الآيتان ١٤٠ ١٤١ .
(٢) الزمر ٥٠ .
(٣) سورة العنكبوت ٢ ، ٣ .

والمعنى : أحسب الذين أجروا كلمة الشهادة على ألسنتهم ، وأظهروا القول بالايمان أنهم يتركون بذلك غير ممتحنين ، بل يمتحنهم الله بضروب المحن ، حتى يبلو صبرهم ، وثبات أقدامهم ، وصحة عقائدهم ليتميز المخلص من غير المخلص والراسخ فى الدين من المضطرب فيه .

وقد امتحن الله أقواما قبل هؤلاء الذين نزل فيهم القرآن ، فأصابهم بألوان من المحن ، فصبروا ، ويدل على ذلك قوله تعالى فى سورة آل عمران : (وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين) .

كما يدل عليه قول النبى صلى الله عليه وسلم : (قد كان من قبلكم يؤخذ فيوضع المنشار على رأسه فيفرق فرقتين ، وما يصدفه ذلك عن دينه ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمة من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه) .

وانما كان الابتلاء بالشدائد ممحصا للذنوب ، ومميزا للخبيث من الطيب ولأن طبيعة النفس البشرية اذا سلمت من آفات الغفلة والكبر والطغيان أن تلجأ الى ربها ، وأن تصفى عقيدتها من الشوائب ، والراصد لأحوال البشر يرى أن الشدائد تهذب النفوس ، وتصلح من فسادها ، وقد رأينا أناسا كانوا فى غاية الغفلة ، والاعراض ، فحين أصابهم مرض خفيف تنبهوا ، ولجأوا الى ربهم ، وأظهروا الندم على ما فرطوا فى جنب الله ، وعلى ما اقترفوا من جرائم . بل قد رأيت بنفسى لصوصا قد استهانوا بارتكاب كل موبقة من سفك دم ، وهتك عرض ، بكوا من خوف الله حين اشتد بهم المرض ، وظنوا أنهم مفارقو هذه الدنيا .

ولقد يكون رمد فى عين ، أو وجع بالرأس ، أو جرح مؤلم ، أجدى على الانسان من آلاف الكلمات الواعظة ، لأن هذه ربما يسمعها بأذنيه فحسب ، أما ما يصيبه فى نفسه ، أو فى أهله ، أو فى ماله فانه يسمعه ويعيه بكل جارحة فيه .

والنعمة قد تطغى ، ولكنها اذا ذهبت نبهت المشاعر ، وأزاحت الغفلة عن القلوب ، فاذا عادت بعد ذلك خيف أن تذهب هذه المرة كما ذهبت أولا ،

وحضر فى النفس أن ذهابها كان بسبب الاعراض عن شكرها ، وعن أداء حق الله فيها ، فحينئذ يقوم العبد بشكر الله عليها .

ولا يمكننا أن نتصور عالما خلا من النعم ، أو خلا من النقم ، الا اذا تصورنا تجرد هذا الجنس الذى يعمر الأرض من غرائزه ، وطبائعه ، وانفعالاته ، ولكن ما دام الناس قد خلقوا هكذا تحكمهم نزعات نفسيةداخلية وتسيطر عليهم نظم خارجية محيطة بهم فلا مندوحة أن يتعرضوا للخير والشر ، وأن يفعلوا الخير ، ويرتكبوا الشر .

ولا يستطيع عالم الملائكة ، أولئك الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ولا عالم الشياطين أولئك الذين جعلهم الله لجهنم حطبا، لا يستطيع عالم من هذين العالمين أن يعمر الأرض ، لأن عمارتها تحتاج الى هذه الدوافع النفسية التى طبع الله الجنس البشرى عليها ، وما يحوطها مما يرتفع بها ، أو يتسفل .

فالله سبحانه قد أوجد الانسان ، وهداه النجدين ، وابتلاه بالخير وبالشر فليس عالمنا عالم تعاسة كما يقول شاعر العراق الرصافى :

أرى الخير فى الأحياء ومض سحابة بدا خلبا ، والشر ضربة لازم
جهلت كجهل الناس حكمة خالق على الخلق طرا بالتعاسة حاكم

فغير صحيح أن الله حكم على الناس جميعا بالتعاسة ، وانما هذه نظرة المتشائمين الذين لا يرون فى الحياة شيئا جميلا ، وهى نظرة الذين لا يؤمنون بقيمة الحياة ، ولا بقدرة الله على التغيير والتبديل ، ولذلك تؤدى هذه النظرة ــ أول ما تؤدى ــ الى القنوط واليأس من رحمة الله ، وهذا الانسان المتشائم الذى لا ينير الايمان بالله جوانب نفسه المظلمة هو الذى عناه القرآن : (واذا مسه الشر فيئوس قنوط) .

وليس عالمنا عالم ورود لا أشواك فيها ، ولا هو غدير صاف لا يشوبه كدر كما يتوهم بعض الممعنين فى الخيال .

واذا كان بعض الصوفية قد سمت نفوسهم الى حد أنهم يعدون ما يصيبهم من بلاء نوعا من النعمة لأنهم سيجدون فيها ثوابا عظيما ، حتى قال

بعضهم يعزى رجلا فى مصيبة ابتلى بها : التهنئة على آجل الثواب خير من التعزية على عاجل المصيبة .

اذا كان هذا البعض وصل الى هذا الحد من السمو الروحانى فليس مرد ذلك الى طبيعة الحياة ، وانما الى تغلغل الايمان فى نفوسهم ، والى الرغبة الشديدة فى حياة النعيم الأخروى ، التى ملكت عليهم كل حواسهم ، على أن الله سبحانه وتعالى قد وعد هؤلاء الذين يذكرون ربهم عندما يختبرهم ببعض ما يسوء ويحزن أن يعوضهم خيرا منها ، اما بالخلف الصالح ، واما بالثواب الجزيل ، واما بهما ، فقال (وبشر الصابرين) كما وعدهم أفضل ما يتمناه المؤمن : (الصلوات والرحمة) وهى عفو الله ورحمته وبركته وتشريفه لعبده فى الدنيا والآخرة بالثناء الحسن ، والنعيم المقيم ، كما تشمل الرحمة كشف الكرب ، وقضاء الحاجة ، وطمأن نفوسهم ، وأكد ثقتهم بسلامة دينهم ، وصحة عقيدتهم ، وبأنهم سائرون على الطريق القويم الذى يوصلهم الى خير الغايات : (ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين . الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) .

فالحياة ليست كما رآها أبو العلاء المعرى فى تشاؤمه ، وضيق نفسه بها ، وليست كما رآها طرفة بن العبد فى تفاؤله ، وانشراح صدره لها . وانما هى كما يراها المعتدلون فى أمزجتهم ، وأحكامهم :

قدر جار ، ودنيا لم يدم عندها السعد ولا النحس استمر

٩ ـ ظاهرة التكرار فى القرآن .

قد رأيت فى هذا البحث الذى تتبعنا الآيات القرآنية التى وردت فيه ظاهرة تجدها كثيرا فى المعانى التى تناولها القرآن الكريم ، تلك هى ظاهرة تكرار المعنى الواحد وايرده فى أكثر من موضع ، وأكثر ما يبدو التكرار واضحا فى قصص الأنبياء السابقين ، وقد يكون التكرار من جهة اللفظ ، من نحو ما ورد فى سورة الرحمن من قوله تعالى : (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وما ورد فى سورة المرسلات من قوله عز اسمه (ويل يومئذ للمكذبين) .

وقد عشيت أعين وبصائر ، فغفلت عن الأسرار التى من أجلها جاء تكرار اللفظ أو المعنى ، فاعتدوا ذلك مطعنا من المطاعن فى كتاب الله تعالى ، قائلين ان هذا الصنيع لا يليق بما كان غاية فى البلاغة ، لأن التكرار عبث ، اذ أنه لا فائدة فيه ، والكلام البليغ فضلا عن الكلام المعجز ينبغى أن يصان عن العبث .

وقد أجاب العلماء عن هذا التكرار بأجوبة عامة ، وأجوبة خاصة بكل موضع جاء فيه تكرار .

وخلاصة أجوبتهم العامة :

(١) ان الله انما كرر ، ــ وفى القصص خاصة ــ تسلية لرسوله عما كان يعانيه من تكذيب كفار قريش له .

(٢) وأنه ليس صحيحا خلو التكرار من الفائدة بل الحق أن كل جملة كررت فى اللفظ أو فى المعنى تضمنت فائدة جديدة من السهل أن تلحظ اذا ربطت بما سبقها وما لحقها من الكلام .

ومن جهة ثالثة فان الله سبحانه لما تحدى العرب بالاتيان بمثل القرآن أراد أن يبين لهم أن الاتيان بمثله من عنده تعالى أمر سهل ، وممكن ، فكرر بعض المعانى بأساليب مختلفة .

على أن التكرار وارد فى منثور العرب ومنظومهم ، تكرير المعنى ، وتكرير اللفظ ومن ذلك ما ورد فى قصيدة المهلهل بن ربيعة فى رثاء أخيه كليب وهى أول قصيدة رويت تبلغ ثلاثين بيتا ، فقد كرر فيها هذ االشطر : (على أن ليس عدلا من كليب (١)) فذكره سبع مرات ، وكذلك فعل الحارث بن عباد فى قصيدته التى مطلعها : (قربا مربط النعامة منى) فقد كرر هذا المطلع عدة مرات .

وفى موضوعنا بالذات كان للتكرار ما يبرره ، فالدعوة الى توحيد الله دعوة الى أساس الدين الاسلامى ، بل أساس كل دين ، والدعاء عبادة ، بل هو مخ العبادة فاذا شابته شائبة من احساس القلب بغير الله على ظن أو توهم

(١) القصيدة فى كتاب الأمالى لأبى على القالى جـ ٢ ص ١٢٩ .

أنه ينفع أو يضر ، هذه الشائبة تهدم التوحيد الخالص ، الذى هو أساس كل دين جاء من السماء .

والنبى محمد صلى الله عليه وسلم جاء على فترة من الرسل،وكان الشرك قد استشرى ، وأفسد أكثر النفوس ، وبلغ من طغيان الشرك أن عبد العرب الأحجار بل صنع بعضهم صنما من حيس (١) ، فحين جاع أكله ، فعبدوا ما يأكلون ، وقد سخر منهم بعض الشعراء فقال :

أكلت حنيفة ربها زمن التقحم والمجاعة
لم يحذروا من ربهم سوء العواقب والتباعة (٢)

فكان طبيعيا أن يتخذ القرآن كافة الوسائل التى تجتث جذور الشرك من نفوس العرب ، وكان من هذه الوسائل تكرير الدعوة الى اخلاص العبادة لله ، والتنديد بمن يرجعون الى فطرهم السليمة فى الشدة فيتجهون بكل ما فى قلوبهم من اخلاص الى ربهم ، فاذا زالت عنهم الشدة أعرضوا عنه .

على أن الذى يمعن النظر فى الآيات التى وردت فى هذا المعنى يهتدى الى أن التكرار بمعناه الدقيق لا وجود له بين هذه الآيات .

ولنأخذ ــ مثلا ــ قوله تعالى فى سورة يونس : (واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون) وقوله سبحانه فى سورة الزمر : (واذا مس الانسان ضر دعا ربه منيبا اليه ، ثم اذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو اليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا انك من أصحاب النار) .

فنلاحظ هذه الفروق بين الآيتين :

١ــ جاءت الآية الأولى بعد قوله تعالى : (ولو يعجل الله للناس الشر

---

(١) الحيس : تمر يخلط بسمن وأقط فيعجن عجنا شديدا ، وربما جعل فيه سويق .
(٢) التباعة : المسارعة الى الشر .

استعجالهم بالخير لقضى اليهم أجلهم) فكانت ردا على أولئك المشركين الذين كانوا يطلبون أن يعجل الله لهم العذاب ، ووجه الرد فيها أن طلب العذاب ، فضلا عن طلب تعجيله ليس من طبيعة الانسان ، اذ أن طبيعته أن يتألم للضر يصيبه ، فيلجأ الى ربه يدعوه أن يكشف الضر عنه فهؤلاء الذين يستعجلون العذاب ليسوا صادقين فيما يطلبون ، لأن ذلك ضد طبائعهم التى فطروا عليها .

وجاءت الآية الثانية بعد قوله تعالى : (ان تكفروا فان الله غنى عنكم .. الآية)

فالله غنى عن ايمانكم ، وهو يرضى لكم أن تشكروه على نعمائه ، وكل نفس مرهونة بما تكسب ، ثم اليه مرجعكم ، فيخبركم بأعمالكم ويجازيكم عليها . وهو عليم بما نكنونه فى صدوركم . ولكنكم تكفرون نعمته ، وتجعلون له شركاء ، ولا تذكرونه الا عندما يصيبكم الضر ، ولو كنتم على يقين من أن كل انسان مسئول وحده عن ذنوبه ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن الله سيحاسبكم على أفعالكم ، لأنه يحصيها عليكم ، وأنه يعلم ما تخفون فى أنفسكم ، لو أيقنتم بكل هذا لشكرتم نعمته ، ولما جعلتم له شركاء .

٢ ــ المراد بالانسان فى الآية الأولى الجنس ، أى هذه الطبيعة مركوزة فى كل نفس بشرية ، أما فى الآية الثانية فالمراد به نوع خاص من الجنس وهو الكافر ، وان كان اللفظ يفيد العموم ، والدليل على ذلك قوله تعالى : « وجعل لله أندادا » . فليس كل الناس يشركون بالله عندما تصيبهم النعم .

٣ ــ بين فى الآية الأولى الأحوال التى يكون عليها الانسان فى الدعاء من اضطجاع وعود وقيام ، أما فى الآية الثانية فاكتفى بأنه دعا ربه منيبا اليه فالآية الثانية ــ كما هو واضح ــ مكملة فى هذا الجزء من المعنى للآية الأولى وفى آية الزمر تصريح بلفظ (الرب) وفى هذا ما يكشف سر هذا الدعاء ، أما فى الآية الأولى فاكتفى بالضمير (نا) وهذا وان لم يكن فيه ما فى كلمة (الرب) من الاشعار بأن الله متفضل . بتربية الانسان ، وأن هذا يشعر

بمكان الربوبية فى نفسه ، فان فيه اشارة الى المقام السامى الذى ينبغى ألا يقصد سـواه .

٤ ــ فلما كشفنا... هذا هو الحال الثانية فى الآية الأولى . ثم اذا خوله نعمة فى الآية الثانية ، فالأولى فيها اكتفاء بكشف الضر ، أما الثانية ففيهـا زيادة اعطاء الخير ، وكشف الضر مفهوم ضمنا .

٥ ــ وكان جواب لما فى الآية الأولى غاية الاطمئنان فى نفس الانسان وغفلته البالغة عن سنة الحياة التى تعاقب بين الشر والخير ، وضربه فى الأرض وسعيه فى الحياة ، وكأنه لم يصب بسوء قط ، أما جواب اذا فى آية الزمر فأمران : نسيان ما أصابه من ضر ، وبالتالى نسيان ربه الذى كان يدعوه ، واشراكه بالله .

٦ ــ اكتفت آية يونس بأن هذا الصنيع الذى وقع فيـه الانسان من تزين الشيطان له وأن هذا شأن كل مسرف على نفسه يزين له الشيطان عمله .

أما الآية الثانية فقد تهددت وتوعدت ، وأعلنت أن ما يحصله الانسان من متعة انما هو متاع قليل : (قل تمتع بكفرك قليلا) ثم أصدرت الحـكم الذى ينبغى أن يهتز له كل ذى لب : (انك من أصحاب النار) .

وهكذا يتضح لنا أن ما يبدو ــ بادىء ذى بدء ــ أنه تكرار انما هو تأسيس لمعان جديدة وان كان الغرض العام واحدا .

ومثل آخر :

يبدو التشابه قويا بين آيات رفع الجبل فوق بنى اسرائيل ، ولكن المتأمل يلاحظ فى أول آية نزلت بهذا المعنى ، وهى آية الأعراف أنها رسمت صورة حسية رهيبة لجبل تتق فوق قوم عصاة معاندين ، فهو قد اقتلع من مكانه ، وامتد فوقهم كأنه ظلة ، فكان قريبا من رؤوسهم ، وكأنه يوشك أن يخـر عليها ، ولم تذكر الآية شيئا عن قبولهم أو رفضهم لما أمروا به من التعاليم ، كما لم تذكر اسم هذا الجبل الذى تتق فوقهم .

وفى الآية الثانية وهى ـ آية النساء ـ ذكر القرآن السبب فى رفع الجبل فوقهم : (ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم) قال بعض المفسرين (بميثاقهم) أى بسبب ميثاقهم ليخافوا فعلا ، فلا ينقضوه ، أو ليعطوه .

وسمت الآية الجبل فهو (الطور) ، كما ذكرت ما طلب منهم أن يفعلوه (وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا) كما ذكرت بعضا مما نهوا عنه : (وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت) .

على أن هذه الآية جاءت بعد ذكر شىء من جهالات بنى اسرائيل وتعنتهم فقد سأل يهود المدينة محمدا صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم كتابا من السماء فشق ذلك عليه ، فطيب له خاطره ، وهون عليه الأمر ، وطلب اليه ألا يعبأ بما اقترحوا ، فهم عريقون فى التعنت ، واقتراح الآيات ، فان أسلافهم سألوا موسى أكبر من ذلك ، طلبوا منه أن يريهم الله جهرة ، وأنهم اتخذوا العجل الها ، من بعد ما جاءتهم البينات ، وأن الله رفع الجبل فوقهم لأنهم ـ لشدة عنادهم ـ لا يقبلون أمرا وهم طائعون ، بل لا يطامن من كبريائهم وجهلهم الا الاخافة والارهاب .

وآية البقرة الأولى بدئت بأخذ الميثاق ، وجىء بعده برفع الطور ، وهى لهذا تختلف عن آية الأعراف ، لأن فيها ذكر اسم الجبل ، وفيها ذكر الميثاق ، وعن آية النساء فى أن الميثاق لم يجعل سببا لرفع الطور . وفى خلوها مما جاء فى هذه الآية من بعض التعاليم ، ومن ذكر الميثاق الغليظ الذى أخذ من بنى اسرائيل ، وتختلف أيضا عن آيتى الأعراف والنساء بما جاء فيها من ذكر تولى بنى اسرائيل ، ومن تفضل الله عليهم ورحمته بهم فلم يعاجلهم بالعقوبة .

أما آية البقرة الثانية فقد تضمنت جناية من جناياتهم التى تدل أوضح الدلالة على فساد قلوبهم ، وعدم استعدادهم ـ بحال من الأحوال ـ لقبول الحق : (قالوا سمعنا وعصينا) كما أخبرت بأن الشرك متمكن فى نفوسهم، ومتغلغل فى حنايا صدورهم (وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم) .

أما علماء النفس فيعللون ظاهرة التكرار فى الكلام ـ بعامة ـ يعللونها بما يرجع لبعض الغرائز النفسية .

وخلاصة ما يقولونه فى هذا الصدد

الاستهواء غريزة من الغرائز ، أو هو متصل بغريزة الجماعة ، والاستهواء هو القاء فكرة ما فى نفس امرىء فيتقبلها من غير معارضة ، أو نقد ، ثم يعتقدها ، ويعمل كل ذلك بلا ارادة ، ولا اختيار .

ويكون تأثير الاستهواء ، فى العقائد ، وفى السلوك ، وتكون النفس أكثر قبولا للاستهواء اذا كانت فى جماعة ، ويتوقف تأثير الاستهواء على أمور ، منها أن يكون صادرا من شخص له قيمة ذاتية ، أو مكانة عالية .

ومنها التكرار ، فالشىء اذا تكرر أثر فى النفس ، وازداد قوة على قوته الأصلية .

والتكرار عامل قوى فى تكوين الآراء ، وانتشارها ، وتكرير اللفظ تكرارا متتابعا يحوله الى معتقد .

يقول الدكتور (جوستاف لوبون) ، كتاب (الآراء والمعتقدات) ان التوكيد والتكرار عاملان قويان فى تكوين الآراء ، وانتشارها ، واليهما تستند التربية فى كثير من المسائل وبهما يستعين رجال السياسة والزعماء ، كل يوم فى خطبهم .

والتوكيد لا يلبث بعد أن يكرر تكرارا كافيا أن يحدث رأيا ثم معتقدا والتكرار هو تتمة التوكيد الضرورية .

ويقول المرحوم الأستاذ عبد الوهاب حمودة فى كتابه (القرآن وعلم النفس) ــ وهو الذى لخصنا عنه رأى علماء النفس فى التكرار ــ يقول الأستاذ معللا التكرار فى القرآن الكريم : (ولقد شنع المستشرقون على هذا الضرب من الأسلوب ــ يريد التكرار ــ وعدوه ضعفا وركة ، كما جاء فى دائرة المعارف البريطانية تحت مادة (قرآن) حيث ذكر كاتب المقال : (فليس هناك مهارة أدبية عظيمة واضحة مبينة فى التكرير الذى لا لزوم له لنفس الكلمات والجمل .

ولا غرابة فى أن تخفى على المستشرقين أسرار هذا التكرار ، فهم لم يألفوه فى لغاتهم ، ولو ألفوا لما أدركوه فى اللغة العربية ، لأن لكل لغة ذوقا خاصا ، لا يمنحه الاأهلهاومن نشئوا على تذوقها

فكلما لج العرب فى انكار ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم اشتد القرآن فى تقريعهم ، والانكار عليهم فى أسلوب خطابى ، رائع ، قصير الفقرات ، زاخر المعانى ، شديد اللهجة ، أو فى أسلوب اقناعى قوته فى رقته وتأثيره فى تقريره .

ومن أهم عوامل التأثير الخطابى تكرار جمل بعينها ، واعادة عبارات بذاتها)

١٠ـ الدعاء ... والاجابة .

تردد فى كل الفصول السابقة ذكر (الدعاء) فقد جاء الأمر به فى أكثر من آية (ادعوا ربكم تضرعا وخفية). (وادعوه خوفا وطمعا) .

وجاء فى الحديث الشريف أن الدعاء أفضل العبادة ، بل هو العبادة ، وقد قال بعض المفسرين فى تأويل قوله تعالى ـ فى أول سورة الأنعام ـ : (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) أى يسوون به غيره فى العبادة والدعاء .

وورد الدعاء فى كل آية أصاب فيها الانسان ضر : (فاذا مس الانسان ضر دعانا) وبخاصة آيات ركوب البحر : (واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله) .

والحق أن الدعاء بدفع الشر ، أو بطلب الخير طبيعة نفسية ، ولازمة من لوازم الانسان ، فمنذ خلق الله الانسان الى يومنا هذا تحدثنا الكتب والآثار وتدلنا مشاهداتنا فى الناس ، وفى أنفسنا على أن الأفراد والجماعات يدعون فى كل ما يصيبهم هذه القوة الخفية لتدفع عنهم الضر ، ويجدون فى ذلك تنفيسا عن أنفسهم ، وترويحا عن قلوبهم ويشيع هذا الدعاء فى نفوسهم الأمل أن الله الحق ـ عند المؤمنين ـ أو الاله المزعوم ـ عند غيرهم ـ سيزيح عنهم الكرب ، وسيخفف عنهم البلاء

وقد دعا النبى عليه الصلاة والسلام ، ودعاؤه وأمره بالدعاء مشهوران ودعا جميع الأنبياء من قبله ، ومن دعاء خليل الله ابراهيم ما ورد به القرآن

من قوله :(رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين . واجعل لى لسان صدق فى الآخرين . واجعلنى من ورثة جنة النعيم . واغفر لأبى انه كان من الضالين. ولا تخزنى يوم يبعثون) .

ودعا أصحاب نبينا ، واتباعهم ، والصالحون من بعدهم ، ودعا كل بر وفاجر ، وكل عالم وجاهل .

ولا تزال الجماهير فى كل قطر من الأقطار الاسلامية ، والأقطار المسيحية ، وفى الشعوب المتخلفة فى أواسط افريقيا ، وفى الشعوب المتحضرة المتقدمة فى أنحاء أوربا وأمريكا تهرع الى المساجد أو الى الكنائس ، وترفع أكف الضراعة كلما حزبتها حازبة ، أو نزلت بها كارثة ، ويؤكد علماء النفس أن هذه الدعوات ، تهدىء القلق الذى يستولى على القلوب ، وتحيى الأمل فى كل النفوس .

فكيف بعد هذا كله يقول صفوة من علماء المسلمين ، وفريق من الماديين الغربيين انه لا فائدة من الدعاء ، لأن الله — فى نظر علمائنا المسلمين — قد قدر منذ الأزل ما كان وما يكون ، فالدعاء لا يرفع مقدرا ، ولا يجلب غير مقدر ، ولأن الدعاء — فى نظر الماديين الغربيين — ألفاظ جوفاء ، لاقيمة لها، فكيف يتحقق بها عمل جليل أو حقير .

ونحتاج اذا صدقنا هؤلاء أو هؤلاء أن ننكر كل ما ورد فى الكتب السماوية وأن نرمى بنى الانسان جميعهم أو غالبيتهم العظمى على الأقل منذ آدم الى اليوم بالجهل والحمق والغفلة .

وهؤلاء الماديون الغربيون كأولئك المشركين الذين تحدث عنهم القرآن يقرون — على الأقل — بينهم وبين أنفسهم بضرورة الدعاء اذا ما أصاب واحدا منهم أمر فادح فى نفسه أو فى أهله أو ولده ، فلابد أن يلجأ طائعا أو مضطرا الى هذه القوة الخفية التى ما زال ينكر سلطانها وقدرتها .

وقد لاحظنا أن كل ما مر بنا من آيات أن الله سبحانه وتعالى استجاب للذين لجأوا اليه ، وكشف عنهم الضر ، ونجاهم من ظلمات البر والبحر ، ووعد فى آيات كثيرة أن يجيب دعوة الداعى اذا دعاه : (واذا سألك عبادى

عنى فانى قريب أجيب دعـوة الداع اذا دعان) . (وقال ربكم ادعـونى استجب لكم) .

كما جاء فى كثير من الأحاديث أن الله يجيب دعاء من يدعوه . من مثل قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما فى مسند الامام أحمد ، وصحيح أبى حاتم البستى ـ : (ما أصاب عبدا قط هم ولا حزن فقال : اللهم انى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماض فى حكمـك ، عدل فى قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى وغمى ، الا أذهب الله همه وغمه ، وأبدله مكانه فرجا) قال الراوى ـ وهو عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ـ يارسول الله : أفلا نتعلمهن ؟ قال : ينبغى لمن سمعهن أن يتعلمهن .

ولكن نلاحظ كذلك أن كل هذه الصور التى أجيب فيها الدعاء كان الاخلاص متمـكنا فى نفـوس الداعـين ، ففى بعض الآيات صرح بلفظ الاخـلاص ، وبلفظ الانابة ، وفى بعضها دل السـياق على أن الدعاء كان يصحبه الاخلاص ، فيبدو أن الاخلاص شرط أساسى فى اجابة الدعاء ، على أن الاخلاص قد يصحب الدعاء ، و لايسـتجاب للداعى ، ولكن الدعاء لا يذهب هباء ، فالله سبحانه قد وعد باجابته فى العاجل ، أو فى الآجل ، وهو فى الوقت نفسه يدفع الداعى الى أن يعمل لتحقيق الهدف الذى يدعو الله أن يحققه له ، وفى هذا الكد والكدح نوع من التوفيق والعون من الله ، وهو ـ ولا شك ـ وسيلة لاجابةالدعاء .

وقد تبين لنا من كل ما فصلناه أن الله تعالى فى قلوبنا لا يبرحها ، وأن كل انسان حظى بهذه النعمة الكبرى ، لكن ربما شغلته شئون الحياة ، أو مضلات الفلسفة ، أو ظلمات المادية ، أو جهـالة التقليد للآباء والأجداد ، فنسى أو تناسى أن الله معه ، بل ربما أنكر أنه موجود ولكن حين ينزل به ما يرفع عن قلبه غطاء التعامى ، وما يزيح عن صدره حجاب الغفلات ينبثق

النور فى نفسه ، ويرى الله فى أعماق ضميره ، فيهرع اليه ، يتلمس عنـــده المعونة ، ويخلص له العبادة .

هذا ، وقد طال بنا السير فى عالم النفس لاستجلاء هذه الطبيعة الخالدة (اللجوء الى الله فى الشدة) ولتزييف هذا العارض الدخيـــل على النفس (الأعراض عن الله فى الرخاء) .

فلنثن عنان القلم الى طبيعة نفسية أخرى ، صورها القـــرآن الكريم من كل جوانبها أتم تصوير ، وأدقه

والله المســـتعان

حُبُّ المال

١ ـ حب المال طبيعة بشرية ٠
٢ ـ القرآن يؤكد أن حب المال طبيعة بشرية
٣ ـ ضرورة هذه الغـــريزة ٠
٤ ـ الغنى الشاكر ، والفقير الصابر ٠
٥ ـ القرآن لم يحارب طبيعة التملك ٠
٦ ـ الدعوة الى العمل :
٧ ـ سؤال النـــاس
٨ ـ التمتع بالطيبات من الرزق ٠
٩ ـ بين المادة والـروح ٠
١٠ـ تهمـة مغرضة ٠
١١ـ نماذج من الزهد ٠
١٢ـ حقيقة الزهد ٠
١٣ـ الدعوة الى جمع المال ٠
١٤ـ روحانية الاسلام
١٥ـ زهـد ابى العـــلاء ٠
١٦ ـواحضرت الأنفس الشح :
١٧ ـقصة اصحاب الجنـة ٠
١٨ـ وعد الله ، وتخويف الشيطان ٠
١٩ ـ لون آخر من عذاب البخلاء ٠
٢٠ـ كل ذى عيب يحب أن يراه فى الآخرين ٠
٢١ـ دفاع عن البخـل ٠
٢٢ـ الفرد والجماعة ٠
٢٣ـ حب الله ، وحب المال ٠
٢٤ـ اخوان الشياطين ٠
٢٥ـ أكل الأموال بالباطل ٠
٢٦ـ الرشوة
٢٧ـ منطق الغنى ٠

١ ــ حب المال طبيعة بشرية .

تكاد تتفق كلمة علماء النفس على أن فى الانسان دافعا قويا يدفعه الى التملك والاقتناء ، والى الابقاء ــ مما يملك ــ والادخار ، فلا يكاد الانسان يرى شيئا نافعا من ثمرات أو حيوان أو أموال ، ذهبية أو فضية ، حتى تتطلع نفسه الى الحصول عليه وتملكه . وسر هذه الرغبة فى الانسان أن فى الملك معنى نفسيا تهفو اليه النفوس ، وهو حرية التصرف فيما تملك ، وفى النفس ــ مهما بلغ شأنها ــ نوع من القلق والخوف من المستقبل ، ولذلك يكمن فى طواياها حب الابقاء على شىء مما تملكه بعد أن تأخذ منه قدر حاجتها .

ثم يختلف علماء النفس بعد ذلك ــ هل الملك والادخار غريزتان أصيلتان فى الانسان ، أو هما من الدوافع الثانوية التى يكتسبها الفرد من وجوده بين الجماعة ، ويتأثر فيها بالظروف التى تحيط به ، ومن خصائص هذه الدوافع الثانوية أنها ليست عامة فى جميع البشر ، وأنها ــ اذا وجدت ــ فى عدد كثير ، أو قليل من النفوس ــ تختلف من فرد الى آخر حسب ظروف البيئة ، وما تخضع له من عادات وتقاليد .

لقد كان معروفا الى عهد قريب أن دافع التملك غريزة ، وأن دافع الادخار غريزة ، كغرائز الجنس ، وحب النفس ، والخوف ، والمحاكاة ، وغير ذلك من الغرائز التى هى قوة فطرية تصدر عنها أفعال قهرية لغاية محدودة ، ومن خصائص الغرائز أنها متشابهة فى جميع الأفراد ، وأنها ثابتة الكيان ، وأنها تورث ، وأن الأفعال الغريزية مجموع أفعال منعكسة ــ وهى التى مصدرها النخاع الشوكى ، ويهيجها المؤثر الخارجى ــ على ما حققه (سبنسر) ــ فان غريزة الهرب من العدو ــ مثلا ــ تتضمن عدم اطمئنان النفس ، وخوف البطش ، ودهشة الفكر ، وغليان الدم ، واضطراب الأعصاب ، وسرعة التنفس (١) .

غير أن بعض الباحثين المتأخرين من علماء النفس نفوا أن يكون الدافع للتملك غريزة ، واتهموا الفلسفة الرأسمالية الاجتماعية بأنها هى التى أكدت

---

(١) كتاب الغرائز ص ١٦ للشيخ الغمراوى . الطبعة الرابعة .

أن هذا الدافع غريزة ، ويستدلون بأن دافع التملك غير موجود فى كثير من المجتمعات البدائية ، مثل بعض القبائل فى (غينيا الجديدة) فان كثيرا من أفرادها لا يميلون لتملك الأرض لاعتقادهم أنها ملك للشياطين ، واذا حصل هؤلاء الأفراد على ما يقوتهم من صيد أو ثمرات اقتسموه بينهم ، وقد يكون قانون القبيلة ، أو قانون الجماعة ــ بعامة ــ لا يسمح لأحد بالاحتفاظ بشىء مما تحصل عليه القبيلة بسبب قسوة ظروف معيشتها ، كما هو الحال عند بعض القبائل الاسترالية .

وقد تكون كثرة الأراضى الزراعية ، ووفرة المحاصيل الطبيعية سببا فى انعدام دافع الملكية ، كما هو واقع بين أفراد قبائل (الشيلوك) . فالجميع فى هذه القبائل يملكون الأراضى الزراعية ، ومختلف الثمار والحيوانات ، وأدوات الزراعة ، فلكل واحد الحق فى استخدامها لأنها ليست ملكا لشخص بالذات .

ومع أن كل هذه الحقائق نتيجة دراسة دقيقة ، نرى أنها لا تنفى أن يكون دافع الملكية غريزة ، فان المعروف أنه من الممكن تهذيب هذه الغرائز وتحويلها والوقوف بها عند حد معين ، وليست هذه القبائل التى ذكروها مجردة عن هذه الغريزة وكل ما فى الأمر أن ظروفا خاصة وقفت بغريزتها عند حد معين ، وليس معنى الغريزة الا أن يجد كل فرد حاجته من الطعام والشراب ، فلو فرضنا أن أحدا استولى على المحاصيل الزراعية التى تنتجها القبائل فى غينيا لظهرت الغريزة قوية دافعة ، وفى النفس البشرية دافع الايثار ، وربما طغا على غريزة التملك فى بعض النفوس ، أو فى بعض الجماعات .

على أن كل الأمثلة التى ذكرها هؤلاء العلماء تتجه الى غريزة الادخار ، والا فمجرد حصول الفرد على طعامه يشبع فيه غريزة التملك .

والذى يعنينا هنا انما هو اثبات أن حب المال طبيعة بشرية ، ولا نرى أحدا من علماء النفس نفى هذه الحقيقة ، فقد تحكم ظروف على جماعة أن يحكمها نوع من الشيوعية فى المال ، ولكن ليس معنى ذلك أنها تكره المال ،

بل هذه الشيوعية فى حقيقتها دليل قوى على ما يتمكن فى النفس البشرية من حب المال ، ولا يقل حرص الشيوعيين على المال عن حرص الرأسماليين عليه ، وكل ما بينهما من فرق أن الشيوعية تدعو الى أن يكون المال ملكا للجميع ، والرأسمالية تدعو الى أن يشبع بعض الأفراد حتى يتخموا ، ولا بأس أن يجوع بجانبهم أناس حتى يموتوا .

٢ ـ القرآن يؤكد أن حب المال طبيعة بشرية

فى أكثر من آية وصف الانسان بحبه الشديد للمال ، وبايثاره الحياة الدنيا على الآخرة ، ولم يكن هذا فى القرآن وحده ، بل كان فى كل كتاب أنزل (بل تؤثرون الحياة الدنيا • والآخرة خير وأبقى ، ان هذا لفى الصحف الأولى ، صحف ابراهيم وموسى) . واسم الاشارة (هذا) راجع الى أربعة أمور سبقته فى أربع آيات : فلاح من تزكى ، وذكر من ذكر اسم ربه فصلى ، وايثار الحياة الدنيا ، وأن الآخرة خير وأبقى ، وقد قيل ان ذلك مذكور فى جميع صحف الأنبياء السابقين ، لأن هذا القدر لا تختلف فيه شريعة عن شريعة ، بل جميع الشرائع متفقة عليه ، واتفاق الشرائع على (القضايا الثلاثة) التى توجه سلوك الانسان الدينى أمر واضح سائغ ولكن كيف اتفقت على أن الناس يؤثرون الحياة الدنيا ؟ الجواب عن ذلك أن الشرائع حين تتعرض لوصف الأمم التى تنزل لهدايتها لا تتنكر للواقع ، ولا تحلق عندما تصفهم فى سماء الخيال ، وانما تذكر سلوكهم الفردى ، والجماعى كما هو ، وليس فى الأرض أمة منذ وجد هذا الجنس على الأرض تؤثر الآخرة على الدنيا ، لأن تلك طبيعة بشرية لا حيلة للناس فى الانقياد لضرورتها الا بعد أن تجيئهم الشرائع فتهذبها ، وتسمو بها .

وقد أقسم الله تعالى بخيل الغزاة ، أو بابل الحجيج ، على أن الانسان شديد الحب للمال : (ان الانسان لربه لكنود ، وانه على ذلك لشهيد . وانه لحب الخير لشديد) ومعنى الآية الأخيرة أن الانسان قوى لحب المال ، أو هو من أجل حب المال بخيل ـ والشديد البخيل ـ ، فحب المال ثابت فى الحالين ، وبعض العلماء يحمل الآية على القلب ، ويقول : أصل النظم وان

حب الانسان للخير لشديد ، وعلى هذا التخريج يكون المقسم عليه شدة حب الانسان للمال .

وفى سورة (الفجر) : (وتأكلون التراث أكلا لما . وتحبون المال حبا جما) وهذا وان كان خطابا لفريق مخصوص من الناس هم كفار قريش ـ كما يقول المفسرون ـ الا أنهم ليسوا بدعا من البشر . فحب المال طبيعة فى الناس كلهم ، أما الانكار عليهم فمرجعه الى حبهم الشديد للمال الذى يحملهم على الحرص ، وعلى منع حق اليتيم ، وعدم التواصى على طعام المسكين .

ومن أجمع الآيات وأصرحها فى الدلالة على أن حب المال أمر فى جبلة الناس قوله تعالى فى سورة آل عمران : (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث) .

والتزيين هو تحسين الشىء فى النفس حتى تحبه ، وتميل اليه ، وقد جاء فى تفسير الخازن : (جعل الله فى الطباع الميل الى اللذات ، وحب الشهوات ، لا على سبيل الالجاء والقسر الذى لا يمكن تركه ، بل على سبيل التحبب الذى يميل النفس اليه مع امكان ردها عنه ، فنظر الخلق الى الدنيا أكثر من قدرها فأعجبهم حسنها ، وزهرتها ، وزينتها فأحبوها وفتنوا بها) .

وصرح القرطبى بأن الله طبع جبلة الناس على حب هذه الأشياء حيث قال : (فتزيين الله انما هو الايحاء والتهيئة للانتفاع ، وانشاء الجبلة على الميل الى هذه الأشياء) .

وفى تعليل بعض المفسرين لتخصيص البنين بالذكر بأن حبهم مطرد بخلاف البنات فانه لايضطرد حبهن ، أقول فى هذا التعليل ما يشير الى أن العلماء السابقين فهموا أن حب هذه الأشياء المذكورة فى الآية عام فى كل النفوس ، وهذا هو معنى الغريزة فى اصطلاح المحدثين .

ثم تنظر فى الآية فنرى فيها دقائق كلها تفضى بنا الى صحة القضية التى ندرسها ، فأول ذلك كلمة (الناس) فى الآية ، فاذا قال المفسرون فى آية

(الفجر) ان المخاطبين هم كفار مكة ، واذا قالوا فى سورة (العاديات) ان معنى الانسان الجنس ولكن المراد بعض أفراده ، حتى لا يعم حكم الآية (ان الانسان لربه لكنود) جميع الناس ، اذ من الناس الشاكرون الحامدون المقدرون لنعم الله عليهم

أقول اذا استقام هذا للمفسرين فانهم لا يستطيعون التخصيص فى هذه الكلمة (الناس) اذ العموم ظاهر فيها ، فحب الشهوات ــ اذن ــ قد زين لجميع أفراد هذا الجنس البشرى .

نعم جاء فى سورة البقرة قوله تعالى : (زين للذين كفروا الحياة الدنيا) وقد يقال ان القرآن يفسر بعضه بعضا ، فيكون المراد بالناس فى سورة آل عمران هم (الكافرون) الذى ورد ذكرهم فى آية البقرة ، ولكن لا تنافى بين الآيتين ، فالتزيين حصل لجميع الناس ، وقد صرح به للكافرين ورتب عليه ما بعده مما ورد فى الآية .

وأيضا فآية البقرة نزلت أولا فكانت آية آل عمران تعميما بعد تخصيص ، وهو أمر لا غبار عليه فى كل أسلوب بليغ .

ثم نلاحظ دقيقة أخرى فى الآية ، وهو أن التزيين فى الغالب يقع على الأعيان ، ومن ذلك آية البقرة الآنفة الذكر ، ومنه قوله تعالى فى سورة النحل : « تالله لقد أرسلنا الى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم » وقوله جل وعلا فى سورة النمل : « وزين لهم الشيطان أعمالهم » الى آيات كثيرة غير هاتين ، فاذا وقع التزيين على معنى من المعانى مصاحبا لعين لا يراد الاسناد اليها كان هو المقصود دون ما صحبه من عين ، مثال ذلك قوله تعالى فى سورة الأنعام : « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم » فالتزيين هنا أسند الى القتل أو وقع عليه ، ولا يمكن أن يسند الى الأولاد ، فلا يقال زين لكثير من المشركين شركاؤهم ، زينوا لهم أولادهم ، لأن المعنى يأتى على ضد ما أرادوا ، فهم انما زينوا لهم قتلهم ، ولو زينوا الأولاد لرغبوهم فى حياتهم لا فى اهلاكهم .

وربما لم يكن هناك عين يراد الاخبار عن تزيينها ، وانما هناك معنى فقط كما فى قوله تعالى فى سورة الحجرات : « ولكن الله حبب اليكم الايمان

وزينه فى قلوبكم » وكما فى قوله سبحانه فى سورة الرعد : « بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل » .

فاذا وقع التزيين على المعنى مع امكان وقوعه على (العين) المصاحبة للمعنى كما فى الآية التى ننظر فيها ، كان هناك سر لهذا العدول ، فقد كان يمكن أن يجىء النظم هكذا : زينت للناس الشهوات ، فلماذا جىء بلفظ (حب) قبل كلمة (الشهوات) ؟ يقول بعض المفسرين : ان ذلك للدلالة على انهماكهم فى حب هذه الأشياء بحيث زين لهم حب شهواتها كما فى قوله تعالى : (انى أحببت حب الخير عن ذكر ربى) .

ولكن يبدو مع ذلك أن (حب الشهوات) هو لب الأمر كله ، وأنه أمر ثابت فى النفوس ، ولو قيل زينت الشهوات لدل ذلك على حبها ، ولكن قد يكون هناك من الناس من لايحبها ، أما حين يقال زين حب الشهوات فالمعنى على أن هذا الحب أمر واقع يحس به الناس جميعا .

وثالث ما لوحظ فى الآية تسمية هذه المذكورات بعد (شهوات) ، والشهوة هى نزوع النفس الى ما تريده ، والغرض من هذا الصنيع هو المبالغة فى حب هذه الأشياء ، وكونها مشتهاة محروصا على الاستمتاع بها .

ورابع هذه الملاحظات أن فى الآية ثلاثة أصناف ، مما يشتهى النساء والبنون والأموال ، وحب الأول هو مظهر الغريزة الجنسية ، وحب الثانى هو مظهر الغريزة الوالدية ، فلا جرم أن يكون حب الصنف الثالث وهو الأموال مظهر الغريزة فى الانسان هى ما اشتهر بين علماء النفس باسم غريزة الملك .

وأخيرا ، ما جاء بعد هذه القضية من وصفها أنها متاع الحياة الدنيا ، والمراد من ذلك تقليل شأنها ، ومن الاخبار بأن هناك ما هو خير منها ، جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ولو كان حب الناس لها ضعيفا لما احتيج لكل هذا مما يراد به الحد من سلطانها على النفوس والتخفيف من ضغطها على القلوب .

من كل ذلك يتأكد عندنا أن حب المال طبيعة بشرية راسخة فى النفس ، وليسمها من شاء غريزة ، وليسمها من شاء دافعا ثانويا ، ولكنها على كل حال طبيعة تسيطر على كل النفوس ، وتجرى كالدم فى كل قلب .

ومن آية ذلك الحرص الطبيعى فى الانسان أن حب المال لا يخضع للمنطق ، فالانسان يطلب الشىء حين يكون فى حاجة اليه ، ويكون حرصه على طلبه كفاء حاجته اليه ، ولكن الأمر فى المال ليس كذلك فاننا طالما شاهدنا انسانا حريصا شديد الحرص ، وهو فى سعة من المال ، ثم هو يجمعه ويبالغ فى جمعه ، وأقل القليل منه يكفيه ، وقد يكون عقيما ليس له ذرية ، وليس له أقرباء أدنون ينتفعون بالمال من بعده ، وتحادثه فتكشف أنه على يقين تام من قرب الأجل ، ثم تدهش بعد كل هذا لجده المتواصل ، وسعيه الدائب ، وبذل ماء وجهه أحيانا ، وعدم مبالاته الحرام أحيانا أخرى ، كل ذلك فى سبيل جمع مال هو على يقين أنه لن ينتفع منه بشىء ، بل هو على يقين أنه لن ينتفع أحد ممن يحبهم بشىء منه .

وفى القرآن الكريم آية تدل على أن المال عدل النفس ــ على ما ذهب اليه جمع من المفسرين ــ تلك هى قوله تعالى فى سورة النساء : « يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيما » ذهب بعض المفسرين فى تفسير قوله سبحانه (ولا تقتلوا أنفسكم) الى أن لفظها يتناول أن يقتل الرجل نفسه بقصد منه للقتل فى الحرص على الدنيا وطلب المال بأن يحمل نفسه على الغرر المؤدى الى التلف (١) . وذهب بعض آخر الى أن معناه : ولا تقتلوا أنفسكم بأكل المال بالباطل (٢) ، والأكثرون الذين ذهبوا الى أن المراد بالآية النهى أن يقتل بعض الناس بعضا ، عللوا الجمع بين النهى عن أكل الأموال ، والنهى عن قتل النفوس بأن المال شقيق النفس من حيث أنه سبب لقوامها ، وتحصيل كمالاتها ، واستيفاء فضائلها (٣) .

---

(١) القرطبى جـ ٥ ص ١٥٦ .
(٢) الخازن جـ ١ ص ٤١٣ .
(٣) أبو السعود جـ ١ ص ٥١٤ .

فاذا جئنا الى الحديث النبوى الشريف وجدنا ما يؤيد هذه القضية ، ويؤكدها ، ولعل من أوضح ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم : (لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى ثالثا) وقوله : (يشيب ابن آدم ، ويشب معه خصلتان : الحرص وطول الأمل) .

ولعل من الطريف فى ذلك قول بعض القدامى : من زعم أنه لا يحب المال فهو عندى كاذب حتى يثبت صدقه ، فاذا ثبت صدقه فهو عندى أحمق .

٣ ـ ضرورة هذه الغريزة .

لقد أودع الله ـ سبحانه ـ فى الانسان مجموعة من الغرائز ، والدوافع الفطرية لتسيره فى الحياة ، حتى يحقق الغاية من وجوده ، ولكل غريزة مجال خاص تعمل فيه ، وهذه الغريزة التى تتحدث عنها من أهم الغرائز ، فانها تدفع الانسان للعمل ، والكسب ، والكد والمخاطرة حتى يحصل المال الذى هو قوام الحياة ، وعماد العمران .

وقد يكون من فضول القول أن يتحدث كاتب عن فضل المال ، وضرورته للحياة ، وحاجة العمران البشرى اليه ، وبخاصة فى هذا القرن الذى لا يكاد يعترف فيه أكثر أبنائه بسلطان لغير المال ، واتفقت فيه المذاهب الاقتصادية المختلفة على أن المال هو عصب الحياة ، نادى بذلك الرأسماليون ، ونادى به الشيوعيون ، ولقد كتب بعض العلماء الغربيين يلخص هذه النظرة المادية فقال : (تبدأ النظرة المادية من المبدأ الآتى : وهو أن الانتاج ، وما يصحبه من تبادل المنتجات هو الأساس الذى يقوم عليه كل نظام اجتماعى . فعلى هذه النظرية نجد أن الأسباب النهائية لكافة التغييرات والتحولات الأساسية يجب البحث عنها لا فى عقول الناس ، أو فى سعيهم وراء الحق والعدل الأزليين ، وانما فى التغييرات التى تطرأ على أسلوب الانتاج والتبادل ، واذن فعلينا ألا نبحث عن هذه الأسباب فى الفلسفة ، وانما فى اقتصاديات العصر الذى نعنيه) .

أقول : من الفضول بعد طغيان المادة هذا الطغيان على القلوب والعقول والفلسفات أن نعدد فوائد المال ، ولكن الذى نشير اليه هنا — ونحن

تتحدث عن موقف القرآن من الطبائع النفسية ــ هو واقعية القرآن الكريم حيال هذه الغريزة ، وبيان أنها تعمل فى مجال ضرورى للحياة .

فالمال فيما يسجل القرآن (زينة الحياة الدنيا) وهو أيضا (زهرة الحياة الدنيا) وهو (خير) كما جاء فى قوله تعالى : « كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت ان ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين » وهو من فضل الله « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » .

وهو مما امتن الله به على عباده ، والله لا يمتن الا بما ينفع ، وما يحب « يابنى آدم قدأنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشا » . ومثل هذا الامتنان كثير فى القرآن الكريم .

وهو مما وعد الله به عباده ان آمنوا به ، وأخلصوا له : « فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا » .

من كل هذه الآيات الكريمة تتبين أن القرآن جارى الفطرة الانسانية ، وهيأ لها أن تسير فى طريقها ، ولم يحاول أن ينكر عليها أن تسعى فى طلب ما يحفظ الحياة ، ويزيد فى العمران .

ولم يقف القرآن ــ بخاصة ــ والاسلام ــ بعامة ــ عند بيان قيمة المال فىهذه الحياة الدنيا ، بل جاءت نصوص كثيرة تبين قيمته فى احراز ثواب الآخرة : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر ، والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما ، درجات منه ومغفرة ورحمة ، وكان الله غفورا رحيما » .

وقد يشعر تقديم الأموال على الأنفس فى الموضعين على ما لانفاق المال فى سبيل الله من فضل عظيم ، وبالتالى على عظم فضل المال .

وقد تعلق بهذه الآية من قال : ان الغنى أفضل من الفقر لذكر الله تعالى المال الذى يوصل به الى صالح الأعمال ، قالوا لأن الغنى مقتدر والفقير عاجز ، والقدرة أفضل من العجز .

٤ ـ الغنى الشاكر ، والفقير الصابر .

ويسلمنا هذا الى الحديث عن هذه المسألة التى دار حولها الجدل بين العلماء وكان أكثر اعتمادهم فى الأدلة على المعانى النفسية .

فقد اختلفت كلمة العلماء قديما حول هذه القضية :أيهما أفضل ، الغنى الشاكر أم الفقير الصابر ، وقد اختلفوا بعد اتفاقهم على أن ما أحوج من الفقر مكروه ، وما أبطر من الغنى مذموم ، ففرض المسألة المفاضلة بين فقير صابر ليس بحريص على الطلب ، بل هو قانع أو راض بالاضافة الى غنى منفق ماله فى الخيرات ليس حريصا على امساك المال .

فذهب فريق من العلماء الى أنهما مستويان ، لا يفضل أحدهما الآخر وهو مذهب القدماء من العلماء ، اذ سئل بعضهم عن عبدين أحدهما ابتلى فصبر ، وأنعم على الآخر فشكر فقال : كلاهما سواء لأن الله تعالى أثنى على عبدين أحدهما صابر ، والآخر شاكر بثناء واحد ، فقال فى وصف أيوب عليه السلام : « نعم العبد انه أواب » ، وقال فى وصف سليمان عليه السلام : « نعم العبد انه أواب » ، وفى ذلك قيل لو أن الصبر والشكر بعيران ما باليت أيهما ركبت .

وفريق يرى أن الغنى الشاكر أفضل من الفقير الصابر ، فان للمال فوائد تعود على الغنى فى دينه ، وليس للفقير ذلك ، فالغنى اذا أنفق المال على نفسه فى عبادة ، أو فى الاستعانة على العبادة اتجه بقلبه الى الخير ، والفقير محروم من فضل ذلك ، والغنى يحصل بالمال المروءة وحسن الخلق ، ويستغنى عن المشاغل فيصرف أوقاته فى تحصيل العلم ، والأنس بخالقه ، والفقير مشغول بجمع القوت ، والغنى يظفر بكثير من الدعوات الصالحات ومن الثواب العظيم حين يبنى بماله مسجدا أو مستشفى أو يقيم مدرسة ، وما أشبه ذلك ، والفقير محروم من كل ذلك ، وقد قال بعض السلف : لأن أعافى فأشكر أحب الى من أن أبتلى فأصبر

ويرى فريق ثالث أن الفقير الصابر أفضل على كل حال ، ويعتمدون على ظواهر الكتاب والسنة كقوله تعالى : « انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » وكقوله سبحانه : « أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا » وكقول النبى صلى الله عليه وسلم : أفضل ما أوتيتم اليقين ، وعزيمة الصبر كما يعتمدون على أحوال الصابرين ، والشاكرين ، فمثلا : الصبر حال البلاء ، والشكر حال النعمة ، والبلاء أفضل لأنه على النفس أشق ، والغنى لا يخلو عن اشتغال بالبال ، وانما يشتغل الفقير بتحصيل ما يكفيه ، وشغله هذا عبادة .

قال رجل لبشر الحافى الزاهد العظيم : ادع الله لى ، فقد أضربى العيال فقال بشر : اذا قال لك عيالك ليس عندنا دقيق ، ولا خبز ، فادع الله لى فى ذلك الوقت فان دعاءك أفضل من دعائى .

والأساس فى المفاضلة ــ كما هو واضح ــ راجع لناحية نفسية ، فالنفس تتملكها بواعث شهوات هى ما يسميها علماء النفس الغرائز والدوافع وتقف دون طغيان هذه الدوافع ارادة الفضيلة ، وينتصر الانسان بعد معركة عنيفة بين هذه البواعث وهذه الارادة ، وتكون الفضيلة أسمى وأروع كلما كان الصراع عنيفا .

والصبر ــ كما يقول الغزالى فى الأحياء ــ هو ثبات باعث الدين فى مقاتلة باعث الشهوة وهذا الثبات نتيجة قتال قائم فى النفس بين باعث الدين ، وباعث الهوى ، والحرب بينهما سجال ، ولكن حين ينتصر باعث الدين يكون الصبر .

أما الشكر ــ كما يقول أيضا ــ فيكون بالقلب وباللسان وبالجوارح أما بالقلب فقصد الخير ، واضماره لكافة الخلق ، وأما باللسان فاظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه ، وأما بالجوارح فاستعمال نعم الله تعالى فى طاعته ، والتوقى من الاستعانة بها على معصيته .

والشكر ، نوع من الصبر ، فان النعم تدعو الانسان الى شعب من البطر ، والكبر ، والطغيان ، والجحود ، وبذلك يقع صراع نفسى بين هذه

البواعث وبين الارادة ، وحين تنتصر الارادة فيصير الانسان الى الشكر بالقلب واللسان والجوارح يكون الصبر عن حظوظ النفس ، وشهواتها ، وأهوائها .

والصبر مع القدرة شديد ، والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه اذا حضرت الأطعمة اللذيذة الطيبة ، ولذلك قال بعض الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ : بلينا بفتنة الضراء فصبرنا ، وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر .

وقال بعض العارفين : البلاء يصبر عليه المؤمن ، والعافية لا يصبر عليها الا صديق .

وكل ذلك يدلنا على أن الشكر ـ بمعناه الصحيح ـ أعلى مقاما من الصبر ، لأنه ـ حينئذ ـ شكر وصبر .

غير أن نوعا من الصبر يكون من بعض النفوس المؤمنة الصافية ، ذلك هو الشكر على البلاء .

فأدنى درجات الصبر ترك الشكوى ، وفوقها الرضا بمقدور الله تعالى ثم المقام الأسمى وهو الشكر على البلاء ، فيرى المؤمن أن فيما يبتليه الله به نعمة ، ومن ذلك قول سفيان الثورى الزاهد العابد : لم يفقه عندنا من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة .

فهذه الدرجة من الصبر ـ وهى نادرة ـ لا تفضلها الا درجة من الشكر نادرة أيضا .

غير أن فى النفس شيئا من الشطر الأخير فى كلام سفيان ، فعد البلاء نعمة أمر له ما يسوغه ، لكن عد الرخاء مصيبة لا يتفق والروح العامة للشريعة الاسلامية ، فالانسان لا حيلة له فى البلاء الا أن يرضى به ، ويتأسى بأن الله أراد به خيرا حين ابتلاه ولكن له حيلة فى الرخاء هى أن يشكر الله عليه ، ويؤدى حق الله فيه ، وأبواب بذل المال أمامه كثيرة ، فهو يستطيع أن يكسب بهذا الرخاء ثوابا عظيما ، والرخاء لا يكون مصيبة الا حين يلهى عن ذكر الله

ويطغى ، ويوقع صاحبه فى الرذائل الكثيرة التى يكون المال وسيلة لها ، أما أن يعده المؤمن مصيبة من أول الأمر ، فذلك رد لنعمة الله ، ومقابلة لها بما لا يليق بهـا .

نعم ، قد يعيى الانسان أن يؤدى حق الله كما ينبغى ، وقد يشغله تثمير المال عن القيام بأنواع من التطوع فى العبادات ، ولكن ذلك لا يبلغ أن يكون مصيبة ما دام يقوم بما فرض الله عليه .

٥ ـ القرآن لم يحارب طبيعة التملك .

ان أقسى ما يلقاه الفرد فى حيـاته ، وأقسى ما يلقاه المجتمع أن تقمـع الطبائع البشرية بسلطان الدين ، أو بسلطان القانون ، أو بسـلطان العادات والتقاليد التى يقدسها مجتمع من المجتمعات .

وانه لشر كبير أن يقف الانسان كالحبة بين شقى الرحى ، تعتمل فى نفسه دوافع داخلية تغلى غليانها ، فاذا ما طلب لها متنفسا وجد الغطاء محكما لايكاد ينفذ ، ولو بخار ضئيل ، ينفس عن هذا المرجل المضطرب ، فليس أمامه حينئذ طال الكبت أو قصر الا أن ينفجر فتتطاير شظاياه فتصيب ما تصيب ، وتخطىء ما تخطىء .

وعلماء النفس يؤكدون أن القمع ، وهو القضاء على غريزة من الغرائز ، واماتتها لعدم موافقة نزعاتها للحياة الاجتماعية ، هذا القمـع كثيرا ما يضر بالشخص أو بالمجتمع لأن الغريزة المكبوتة تحاول أن تظهر ، وتسعى ـ فى غير رفق ولا هوادة ـ الى تحقيق هدفها بطرق غير مشروعـة ، فان وقفت أمامها الحواجز أضرت بصاحبها جسميا وعقليا .

لذلك لم يقف القرآن حيال أية غريزة من الغرائز موقف البطش والعنف ولم يتنكر لأية طبيعة من الطبائع ، بل سلك الطريق الذى يشعر معه كل دافع نفسى بأن المجال أمامه مفتوح لتحقيق ذاته ، وليس الا أن يسير فيه على هدى وبصيرة ، لا يميل يمينا ، ولا يميل يسارا ، ولا يخبط خبط عشواء .

اعترف القرآن بكل البواعث النفسية ، ولم يقم سدا محكما أمامها ، بل مهد لها الطريق ، وأنار لها مواقع أقدامها .

فهو ـ مثلا ـ فى الغريزة الجنسية ، لا يعتبرها شرا ـ كما ينادى بذلك قدامى ومحدثون من أحبار ورهبان ـ بل اعترف بها ، وصحح لها مجالها ، وأمن لها طريقها : فأباح الزواج ، بل أباح تعدد الزوجات ، وأباح التسرى ، ولم ينكر عليها الا أن تنطلق جامحة ، لا تلوى على شىء ، فتضر صاحبها ، وتضر المجتمع ، وتخلف وراءها من الآثار السيئة ما يصعب علاجه : « ولا تقربوا الزنى انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا » .

وهو فى غريزة حب الاستطلاع يوسع لها المجال ، ويفتح أمامها ما ترضى به طموحها فيدعو الناس الى أن يتفكروا فى ملكوت السموات والأرض ، والى أن يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان الذين من قبل ، والى أن ينظروا فى الآفاق وفى أنفسهم .

ولكنه لا يدعها تطلب كل ما تريد ، وتنظر فيما يعنيها وما لا يعنيها ، بل كرمها ، وسما بها فمنع الانسان أن يتتبع عورات الناس ، وأن يطلب ما لا حاجة له اليه : « ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » .

وهكذا نجد القرآن لا يدافع الغريزة ، ولكنه ـ أيضا ـ لا يتركها تضرب على غير هدى ، بل يضع لها الضوابط التى تجعلها تسير فى مأمن من المزالق الضارة ، والعثرات القاتلة ، ـ وقد بسطت ذلك فى الفصل الأول ـ .

وكيف يقتل الانسان هذه الغرائز التى لا يقوم العمران البشرى الا على أساسها ، وقد أراد الله أن تعمر الأرض ، وأن يؤدى فيها هذا الجنس البشرى رسالته ، ويحقق الغاية من وجوده ، والغرائز من أهم أسلحته فى هذه الحياة ، وكيف يدعو القرآن الى تحطيم هذه الأسلحة ؟ .

ان قصارى ما فعله القرآن أن دعا الى تهذيب القلب الذى تصدر منه الاشارة باستعمال هذه الأسلحة ، والى انماء العقل الذى يراقب القلب الذى يشير واليد التى تضرب ، والميدان الذى ينشب فيه القتال ـ كما أسلفت ـ .

وقد كان موقف القرآن من طبيعة حب المال كموقفه من كل طبيعة

الشهوات التى زينها الله فى نفوس عباده ، وأدرك كبار الصحابة أن المزين هو الله تعالى ، كما تدل عليه كلمة سيدنا أبى بكر حين قدم عليه بمال : اللهم انا لا نستطيع الا أن نفرح بما زينت لنا .

ولم يكتف بالاعتراف بهذه الغريزة بل بين ضرورتها للحياة ، كما ألمنا بهذا المعنى فى الفقرات السابقة ، بل زاد على ذلك ، فدعا الى العمل الدائب ، والسعى الحثيث فى سبيل تحصيل المال ، كما دعا الى الأخذ منه بما يحتاج اليه الكائن الحى ، وبما يجاوز حاجته ما دام لم يتعد الحد المألوف ، وكذلك أوصى بحفظ المال ، ورعايته ، وعدم وضعه الا فى حق .

٦٠ ـ الدعوة الى العمل :

هى سنة الله ، وطبيعة العمران ، حاجة من عاش لا تنقضى ، ولا ثمرة الا بكد ، ولن تنبت الشجرة ، وتؤتى أكلها حتى تتهيأ لها الأسباب الطبيعية التى قدرها الله ، ومما هو معلوم لكل عاقل وجاهل أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة .

لذلك دعا القرآن الى السعى فى الأرض ، والى الأخذ فى أسباب الكسب ، وحذر من التوانى والكسل حتى لا يهلك الناس جوعا وظمأ .

ومن أول الآيات على ذلك قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ، فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » .

ففى هاتين الآيتين موضعان يدلان على فضيلة الكسب ، أما أولا فاقتصار القرآن على ربط الأمر بالانصراف عن الكسب بصلاة الجمعة ، ولم يرد فيه الأمر بترك البيع ، والسعى بعامة الا لخصوص صلاة الجمعة ، فدل ذلك على أن الله أباح لعباده أن يعملوا فى تحصيل المال دائبين ، الا أن يقوموا بواجب العبادة ، أو بواجب أنفسهم فيما تحتاج اليه من راحة ، واجمام .

وأما ثانيا ــ وهو أمر فى غاية الدقة ــ فالأمر بالسعى فى طلب الرزق والانتشار فى الأرض بمجرد الفراغ من صلاة الجمعة ، وسماع الذكر ، يدل على ذلك هذه (الفاء) التى تدل على ترتيب ما بعدها على ما قبلها دون توان أو تراخ ، ــ كما هو معروف فى معانى هذه الحروف ــ .

وفى هذا الموضع أيضا نلاحظ هذا الفعل (فانتشروا فى الأرض) فهذا الأمر بالتفرق فى الأرض يدل على طلب الكسب من كل موضع يمكن أن يجد فيه الانسان كسبا ، فلم يأمر القرآن أن يتجمع الناس فى السوق ، أو ينحصروا فى المحلة أو القرية ، وانما أمر بالتفرق فى الآفاق ، والتماس الرزق فى كل جهة ، وهذا يفسر قوله تعالى : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور » .

كما نلاحظ أيضا هذا التعبير (وابتغوا من فضل الله) ، وقد ألمحنا الى هذا فيما سبق ، ونزيد ــ هنا ــ أن قرن هذا الأمر بصلته ، مع السعى فى الأرض يجعل النفوس راضية مطمئنة ، تسعى ، وهى تحس أنها تطلب (فضل الله) فهى لا تطلب شيئا مذموما أو خبيثا ، وانما تسعى فى أمر طيب محمود ، تسعى لكسب المال من حلال ، وهذا المال فضل الله ، فعليها أن تبتغيه وتطلبه .

وفى الآية الأخيرة (فامشوا فى مناكبها) يبتدىء النظم الشريف بما من الله به على عباده من تذليل الأرض لهم ، وتمهيد طرق السير فيها ، والتمكين للناس أن يبحثوا عن الرزق فى أنحائها ، لا فرق بين سهلها وحزنها وعامرها وغامرها ، وما ذللها لهم الا لأن فيها معاشهم ، ومنها يكسبون أقواتهم ، ثم يثنى بالأمر بالسير فيها ، والمشى فى أطرافها ونواحيها ، وتحصيل القوت من طرقه المشروعة .

ثم تنتهى الآية بوضع منار الهداية أمامهم ، وتنبههم الى الغاية الحقيقية ، فلا يجب أن يشغل الناس السعى عن واجبات دينهم ، ولا ينبغى أن يلتمسوا الرزق فيما حرمه الله عليهم ، فان وراءهم حسابا ، وان الى الله أيابهم .

ومن الآيات الواضحة فى الحث على السعى والكسب قوله تعالى : (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة . ولا تنس نصيبك من الدنيا) .

وأشهر ما قيل فى تفسير هذه الآية ما قاله الحسن وقتادة : معناه لا تضع حظك من دنياك فى تمتعك بالحلال ، وطلبك اياه ، ونظرك لعاقبة دنياك .

ثم كان الحديث النبوى الشريف ، وأعمال الصحابة ، والتابعين ، وصالح المؤمنين ، وأقوالهم مؤكدة لهذا المعنى الذى أبرزه القرآن الكريم ، ومن ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد استأذنه رجل فى الجهاد : « ألك من تعوله » ؟ قال : نعم ، قال : « كفى بالمرء اثما أن يضيع من يعول »

وقوله عليه الصلاة والسلام : « لعشرة فى كد حلال ، على عيل محجوب أفضل عند الله من ضرب بسيف حولا كاملا ، لا يجف دما ، مع امام عادل »

وقد أمر صلى الله عليه وسلم بالجد فى طلب الرزق ، ومواصلة السعى ، فقال : « اذا صليتم الفجر ، فلا تناموا عن أرزاقكم » ، وحث على استثمار الأرض فقال : « اطلبوا الرزق فى خبايا الأرض » .

وقال عمر ــ رضى الله عنه ــ لرجل : ما معيشتك ؟ قال : رزق الله : فقال : لكل رزق سبب ، فما سبب رزقك ؟! ..

ومن كلام سفيان الثورى ــ رضى الله عنه ــ عليكم بعمل الأبطال : (الاكتساب من حلال ، والانفاق على العيال) .

ومن كلام بعض الزهاد : ليس العبادة عندنا أن تصف قدميك ، وغيرك يقوت لك ، ولكن ابدأ برغيفيك فأحرزهما ، ثم تعبد .

وقد جهل أقوام هذه المعانى الطبيعية ، فاستمرءوا الكسل ، واعتمدوا على كد الآخرين ، وقد شاهدنا من ذلك عجائب وغرائب فيما يسلكه بعض من يسمونهم (مشايخ الطرق) من اعتمادهم فى حياتهم على الأتباع والمريدين ومن فرض شىء معلوم على كل (مريد) يقدمه للشيخ ، ولو كان هو أو عياله فى أشد الحاجة اليه ، وهؤلاء المشايخ أو (نقباؤهم) يخدعون الأتباع

الجاهلين ، وأنصاف المتعلمين بأنهم اذا تمردوا على (حق) الشيخ وقع الخسار فى أنفسهم ، أو فى أموالهم ، ويستغلون ما يجىء أحيانا بمحض المصادفة ، كأن يغاضب أحدهم شيخا ، فينزل به حادث فى نفسه ، أو فى أأولاده ، أو فى أمواله ، فيذهب (المريدون) يذيعون أن هذه (بركة الشيخ) كأن الاضرار بالناس لب رسالة هذا الدجال المخادع ، وأمثاله من المتعطلين ، المتبطلين .

ولا يشك منصف أن أكل هذه الأموال بهذه الطرق حرام ، لا يحل ، مهما تأول المتأولون ، وقال القائلون .

ومن أعجب ما فى الأمر أن هؤلاء موضع اعتقاد الناس ، واحترامهم ، فى حين أنهم تركوا السعى فى سبيل الرزق ، وهذا ــ وحده ــ اثم عظيم .

ثم انهم ــ حين تحاول أن تنبههم الى خطئهم ــ يحاولون أن يفهموك من كنزهم الأموال أنهم زهاد فى الدنيا ، وأن عباد الله الصالحين ما كانوا يتركون ذكر الله لكسب المال .

وقد وهموا ، وأجرموا ، فما كان التوانى ، والتواكل ، وانتظار الرزق من السماء بدون سعى أو عمل ــ سمة أحد من المؤمنين الصادقين ، والعمل سنة رسول الله ، وسنة الأنبياء الكرام من قبله

فقد عمل النبى فى التجارة ، ورعى الغنم لأهل مكة ، على قراريط يأخذها منهم كما عمل الأنبياء من قبله ، ورحم الله داود فقد كان يأكل من كسب يده ، كما أخبر رسولنا الكريم .

ولقد ذكر ذلك شاعرنا شوقى ، فقال :

كان رسول الله فى شبابه ... لا يدع الرزق ، وطرق بابه
كان قبيل البعث رب مال ... وتاجرا ، ميسر الأعمال
يضرب فى حزن الفلا وسهله ... بمال عمه ، ومال أهله
أى رسول ، أو نبى قبله ... لم يطلب الرزق ، ويبغ سبله ؟
موسى الكليم استؤجر استئجارا ... وكان عيسى فى الصبا نجارا
من أحسن الأمثال فيما أحسب ... الخير لا يعطى ، ولكن يكسب
فاسترزق الله ، وقف ببابه ... واكسب ، فأهل الكسب من أحبابه

وهكذا كان الزهاد والعلماء ، يكسبون لأنفسهم ، ويعملون بأيديهم ، ويعتبرون السعى فى طلب الرزق من أفضل الأعمال .

ومن قبل قال سيدنا عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ : ما من موضع يأتينى الموت فيه أحب الى من موطن أتسوق فيه لأهلى ، أبيع وأشترى .

وكانوا يرون الكسب ــ ولو كان فيه شىء من المهانة ــ أحب ، وأكرم من سؤال الناس ويقولون : ان الشدة ليست النازلة تنزل ، وانما الشدة الحاجة الى الناس ، وان الانسان لا يزال كريما على اخوانه ما لزم سوقه ، فان احتاج اليهم هان عليهم . وقد أفصح الشاعر عن هذا المعنى ، فقال :

انت ما استغنيت عن صا حبك الدهر أخوه
فاذا احتجت اليه ساعة مجك فوه

ولما كان الزهاد يعتبرون لزوم السوق ، والكسب أمرا حتما ، وجدنا فى ألقابهم ما يدلنا على صناعاتهم فكان منهم الخواص ، والوراق والمغازلى .. وهكذا .

ووجدنا لبعضهم ثروة ــ وان كان يفضل دائما أن ينفقها فى سبيل الله ــ ولقد قال يونس بن عبيد ــ وكان من كبار الزهاد ــ : كسبت فى هذه السوق ثمانين ألف درهم ، ما فيها درهم الا وأنا أخاف أن أسأل عنه يوم القيامة .

وكان أبو حنيفة ، صاحب المذهب ــ رضى الله عنه ــ تاجرا ، ميسرا عليه فى الرزق .

٧ ــ سؤال الناس

فاذا عجز المؤمن عن الكسب اعتصم بايمانه ، وغالى بنفسه ، وعف عما فى أيدى الناس ، وآثر الجوع والظمأ على التدلى الى مسألة أحد شيئا ، وقد احتاج جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب جراحات أصابتهم فى سبيل الله ، أو بسبب حبسهم أنفسهم على حفظ القرآن ، وكان حفظه ــ آنذاك ــ من أجل العبادات ، لأنه حفظ للدين كله ، كما حبسوها على الغزو فى سبيل الله ، وقد تركوا أموالهم فى مكة ، حين هاجروا ، فحيل

بينهم وبينها ، وهؤلاء هم الذين يعرفون بأهل (الصفة) لأنه لم يكن لهم مأوى ، فكانوا يقيمون فى مسجد الرسول بالمدينة ، ومع حاجتهم الشديدة أبت عليهم أنفسهم أن يسألوا أحدا شيئا ، فنزل فيهم قول الله تعالى : « للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافا »

وقد وصفهم القرآن بخمس صفات :

(١) أنهم أحصروا فى سبيل الله ، أى أنهم لم يستطعوا الكسب لمانع منعهم ، اما طبيعى كالعجز ، واما شرعى كطلب العلم .

(٢) أنهم عاجزون عن الكسب ، والضرب فى الأرض ، فلا يستطيعون السفر للتجارة ، ونحوها .

(٣) ومن كان هذا حاله وجبت نفقته فى بيت المال ، أو على أغنياء الأمة .

(٤) أنهم مبالغون فى التعفف ، والتنزه عن المسألة ، حتى ان الجاهل بحقيقة حالهم اذا رآهم ظنهم أغنياء .

(٥) أنهم أصحاب سمة خاصة ، يدركها المتفرس الحاذق ، فلا يخفى عليه من يسأل ليجمع المال ومن هو محتاج اليه وان لم يسأل ، وقد تكون هذه الحال نوعا من الذل الخفى يحاول المتعفف أن يخفيه ، ولكنه على الرغم منه يوشك أن يظهر فى حديثه وعلى قسمات وجهه .

(٦) انهم لا يسألون الناس لا سؤال الحاف ، ولا سؤال رفق واستعطاف (١) وهذه كانت حال هؤلاء المهاجرين من أصحاب رسول الله

وبهذا الوصف الأخير يكرم القرآن النفس الانسانية ، ويرتفع بها ، عن طريق التنويه بهؤلاء الذين يخفون حاجتهم ، ويترفعون عما فى أيدى الناس .

وقد جعل الله العزة له ، ولرسوله ، وللمؤمنين ، وان من العزة ألا يمد المؤمن يده لأن اليد العليا خير من اليد السفلى ، والقرآن — دائما — يريد أن تكون أيدى المؤمنين هى العليا ، وأن تكون نفوسهم عزيزة .

---

(١) لخصت الحديث عن هذه الصفات من تفسير المنار للسيد رشيد رضا .

والصبر على الجوع مظهر الارادة القوية التى ينميها الانسان بضبط نفسه ، وكبح جماح شهواتها ، فلو أنه استرسل فى الخضوع لهذه الشهوات لفقد السيطرة على نفسه فى كل شئون حياته ، ولا يريد الاسلام للمسلم أن يعيش كما تعيش البهائم ، لا تكاد تصبر عن العلف والماء ، وانما يريد له أن يضبط قوة الشهوة فى نفسه ، حتى يستطيع أن يكون سيدا لها ، فيحرر نفسه من سلطانها ، ويفرغ قلبه لمثله العليا .

ولكن أناسا خضعوا لغريزة حب المال خضوعا ذليلا ، فهم لا يكفون عن جمعه ويسترخصون فى سبيل ذلك كل غال ، فهم يريقون ماء وجوههم ، ويذلون أعناقهم لمن يمد اليهم يده بالعطاء أو يمدون أيديهم اليه بالسؤال

وللشاعر الاسلامى جرول بن أوس الملقب بالحطيئة وصية غريبة ، مشهورة عنه ، ذلك أنه حين حضرته الوفاة قيل له : أوص يا أبا مليكة ، فقال : مالى للذكور من ولدى دون الاناث ، قالوا : فان الله لم يأمر بذلك قال : فانى آمر به ، قيل له : ألا توصى بشىء للمساكين ؟ قال : أوصيهم بالمسألة ما عاشوا ، فانها تجارة لن تبور ، قيل له : فلان اليتيم ما توصى له بشىء ؟ قال : أوصيكم أن تأكلوا ماله .

ومع غرابة هذه الوصية ، ومع أننا نظن أنها وضعت لقصد الفكاهة ، مع ذلك نرى كثيرا من الناس يعملون بها أكثر مما يعملون بأى وصية أخرى فى هذه الشئون .

ويعنينا من وصيته ما وصى به المساكين ، فانهم اتخذوا السؤال مادة للكسب وتجارة تدر عليهم الربح الوفير ، والمال الكثير ..

ومع أن السؤال أردأ مهنة يحترفها الرجل ، ومع أن المال الذى يجىء عن طريقه أرذل كسب يكسبه الرجل نجد العاجز والقادر ، الشيخ والشاب ، الرجل والمرأة ، نجد من كل أولئك من يحترف السؤال ، ويعيش عليه ، بل ويجمع الثروة الطائلة عن طريقه .

وليس أضر على المجتمع الناهض ، ولا على الأمة التى تريد أن تبنى مجدها ، ولا أضر على أخلاقها التى هى الوسيلة الوحيدة لرقيها وتقدمها ،

ليس أضر على هذه الأمة من أن يكون فيها جماعة يعيشون على كسب غيرهم ، وهم قادرون على العمل ، فليس رقى الأمم هبة تعطى ، وانما هو عمل أبنائها ، وجهادهم فى سبيل عظمتها ومجدها ، وأول سلم فى هذا الجهاد أن يؤدى كل فرد واجبه ، وأن يعمل كل ما يستطيع من العمل . أما الكسل ، وأما الاعتماد على الآخرين ، فان ذلك ينافى طبيعة العمران ، ويراغم سنة الله فى الكون ، ويحط من شأن الأمة ، ويعطل آلة النجاح ، والتقدم فيها .

ومن عجب أن أكثر هؤلاء السؤال يتمسحون بالاسلام ، ويستدرون عطف الناس باسم الدين ، والاسلام ليس فيه لهؤلاء حجة ، فقد أزرى على السؤال ، وبغض فيه ، وحث على العمل ، وأوجبه على القادر ، ولو كان عملا دنيئا حقيرا ، فهو — على كل حال — خير من مسألة الناس .

وبعض الناس يفهم ذلك تمام الفهم ، فقد حدثنى صديق أنه رأى رجلا يعمل عملا يستقذره الناس ، فلما فرغ من نفض التراب عن يديه ، وجلس يأكل ، قال صديقى : فرأيته يتحدث ويقول : اسكتى ، تأدبى ، والله ان لم ترضى لأهيننك ، فقلت له : يارجل . رأيتك تتحدث ، وليس معك أحد ، فمن تخاطب ؟ قال : أخاطب نفسى ، فانها لما رأتنى جلست آكل تقززت منى ، فقلت له : سمعتك تقول لها : تأدبى ، والا أهينك ، فأى عمل أشد اهانة لها من عملك هذا ؟ فالتفت الرجل مستغربا ، وقال لى : يامسكين ان فى الأعمال ما هو أخس من عملى ، وأقذر . ذلك مسألة الناس شيئا .

والاسلام لم يبح السؤال الا للعاجز عن الكسب — كما قلت آنفا — ومع ذلك دعا الى التعفف ، والاجمال فى المسألة ، وعدم الالحاف فيها، حتى استحسن العلماء أن يكون الرجل عيبا فى المسألة ، وعند وصف الفاقة ، فذلك أدل على كرم الطبع ، والتصون من ذكر الفاقة .

لكن المحترفين للسؤال يطاردونك مطاردة من له عليك دين ، وربما تطاولوا عليك فسبوك .

رووا أن سائلا وقف على باب قوم يسألهم ، فقالوا له : يفتح الله عليك فقال : كسرة . قالوا : ما نقدر عليها ، قال : فقليل من بر أو فول أو شعير

قالوا : لا تقدر عليه . قال : فقطعة دهن ، أو قليل من زيت أو لبن، قالوا : لا نجده ، قال : فشربة ماء . قالوا : وليس عندنا ماء . قال : فما جلوسكم ها هنا ؟ قوموا ، فاسألوا . فأنتم أحق منى بالسؤال !

ولا شك عندى أن هؤلاء ــ ان كانوا صادقين ــ أحق بالسؤال من هذا السائل الوقح ، ولكنهم قوم كرماء النفوس ، يصونون ماء وجوههم، ويعتزون بأنفسهم ، ويخفون ما بهم من ضر وحاجة .

وقد قرأت فى تاريخ السودان أن الرجل كان اذا احتاج أغلق عليه باب داره ومكث فيها حتى يموت .

وقديما قال الشاعر الجاهلى (الشنفرى)

أطيل مطال الجوع حتى أميته ... وأضرب عنه الذكر صفحا فأذهل
وأستف ترب الأرض كى لا يرى له ... على من الطول امرؤ متطول

وقديما سأل رجل أبادلف العجلى ، فقال أبو دلف : أتسأل ، وجدك الذى يقول :

ومن يفتقر منا يعش بحسامه ... ومن يفتقر من سائر الناس يسأل

فخرج الرجل ، وجرد سيفه ، وعاش عليه .

وهناك جماعة يعيشون على كسب غيرهم ، وهم ــ فى نظرى ــ لا يختلفون عن هؤلاء السؤال فى شىء ، فقد تعجبك هيئة الرجل ، ووجاهته ، فاذا سألت من أين يعيش ؟ قيل لك ان له أخا أو أبا أو قريبا غنيا ، فهو ينفق عليه ويعطيه أو ان له أصدقاء ، وتلاميذ يعودون عليه بالخير ، ويغمرونه بالهدايا والألطاف ، فمنها يعيش ، وتحضرنى ــ دائما ــ عند ذكر هؤلاء قصة الرجل الذى قيل للنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيه : انه صوام قوام ، متبتل ، فسألهم : فمن يصلح له أمره ، ويكفيه ما يهمه ؟ فقالوا : كلنا يا رسول الله ، فقال : كلكم خير منه .

كما يحضرنى الحديث الشريف : « أشد الناس عذابا يوم القيامة المكفىء الفارغ » وقول النبى صلى الله عليه وسلم : « من سأل الناس أموالهم تكثرا فانما يسأل جمرا ، فليستقل منه ، أو يستكثر) .

وما رواه أبو هريرة ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لأن يغدو أحدهم فيحتطب على ظهره فيتصدق منه ، ويستغنى به من الناس خير له من أن يسأل رجلا ، أعطاه ، أو منعه .

فمن أراد أن يتفرغ لعبادة ربه فليكتف من أمر الدنيا بالقليل ، وليعمل عملا يأتيه بهذا القليل .

وأعجب ما فى أمر هؤلاء (السادة . الفضلاء) أنهم يبررون أخذهم لأموال أتباعهم ، ومريديهم ، والسذج البسطاء من العامة بأنهم ينفقونها فى سبيل الخير .

دعيت الى وليمة عند (أحدهم) فى مناسبة من المناسبات الدينية ، فوجدت عنده بعض كبار القوم ، ووجدت حشدا من الفقراء ، والمدعين الفقر يأخذون شيئا من الطعام فسألت أحد أتباع هذا الشيخ ، انى أعرف أن (شيخك) فقيرا لا يملك الا (معاشه) الضئيل الذى استحقه بعد خروجه من العمل فى الحكومة ، فمن أين يجىء بهذه الأموال التى يطعم منها الأغنياء والفقراء ، وانى لا أرى فيمن دخل عليه ، ونال من طعامه من يستحق الصدقة؟ فقال انه يأخذ من رجال (الطريقة) ما يجودون به . قلت : لقد جهل شيخك أنه أخذ حراما ، وأنفق حراما . فارتاع الرجل فقلت له : اسمع أحدثك ما حدث به العالم الكبير عبد الرحمن بن أبى ليلى الذى كان يضارع أبا حنيفة فى الفقه ، قال : انى لأساير رجلا من وجوه أهل الشام ، اذ مر بحمال معه رمان فتناول منه رمانة ، فعجبت من ذلك ، فمر به سائل فناوله اياها ، فقلت له : رأيتك قد فعلت عجبا ، قال : وما هو ؟ قلت : أخذت رمانة من حمال ، وأعطيتها سائلا . قال : وانك ممن يقول هذا القول ؟ أما علمت أنى أخذتها وكانت سيئة ، وأعطيتها فكانت عشر حسنات ؟ فقلت : أما علمت أنك أخذتها فكانت سيئة ، وأعطيتها فلم تقبل منك .

متى يعلم هؤلاء ، واخوانهم ممن يسألون الناس فى الطرقات أن الموت أهون من ذل السؤال ، وأن الانسان لا يجد عوضا عن ماء وجهه الذى يبذله :

ماناله باذل وجهه بسؤال عوضا ، ولو نال الغنى بسؤال

٨ ـ التمتع بالطيبات من الرزق :

وهنا يبدو واضحا أن القرآن الكريم لم يتنكر للطبيعة البشرية ، ولم يجىء فى تعاليمه ما يرغم الانسان على أن يحارب طبيعته ، وهذا المسلك من القرآن الكريم هو الجدير بدين جاء لهداية الناس عامة ، وجعله الله خاتم الرسالات صالحا لكل زمان ومكان ، وموافقا لكل أمة ، ومحاربة الطبيعة البشرية لا تتيح الا أسوأ النتائج ، ذلك أن الناس حين يحسون فى قرارة أنفسهم أنهم ممنوعون منعا عنيفا من التنفيس عن غرائزهم يلجأون الى أية طريق حتى يشبعوا هذه الغرائز ، ان لم يكن مراغمة للمجتمع ، وللتعاليم الدينية ، فاحتيالا عليهما ، وتخفيا عنهما ، وهذا ما يفعله الطفل حين يحرم عليه أبواه مباشرة بعض حقوقه المشروعة ، فنراه يباشر هذه الحقوق بطريقته الخاصة ، ويلجأ الى الكذب والنفاق ، وما اليهما ، وما الانسان الا طفل كبير

لذلك أحل القرآن الطيبات من الرزق ، بل أمر بها ، واستنكر على من حرمها ، وكان مما امتن به على عباده ـ كما أسلفت ـ أن جعل لهم لباسا يوارى سوآتهم ، وجعل لهم أثاثا ورئيا .

ولقد يكون من المناسب هنا أن نشير الى مسلك المسيحية ، ومسلك الاسلام فى هذا الشأن .

فالمسيحية ـ كما هو شائع ـ دعت الى الرهبنة ، والى التخفف من متع الحياة ، فدعت الى الاعراض عن الزواج ، ودعت الى تعذيب الجسد بالجوع والعرى ، وجاء فى بعض الأناجيل : « فليكفكم ـ اذن ـ ثوب واحد ، ارموا كيسكم ، لا تحملوا مزودا ، ولا حذاء فى أرجلكم ، ولا تفكروا قائلين : ماذا يحدث لنا ؟ بل فكروا أن تفعلوا ارادة الله ، وهو يقدم لكم حاجتكم حتى لا تكونوا فى حاجة الى شىء .

الحق أقول لكم : ان الجمع كثيرا فى هذه الحياة يكون شهادة أكيدة على عدم وجود شىء يؤخذ فى الحياة الأخرى ، لأن من كانت أورشليم وطنا

له ، لا يبنى بيوتا فى السامرة ، لأنه يوجد عداوة بين المدينتين أتفقهون ؟! » (١) .

ولهذه الآية شبيهات فى الأناجيل الأخرى (٢) ، وهى تعبر عن روح المسيحية ، أو على الأقل تعبر عن روح المسيحية كما فهمها حواريو المسيح .

أما الاسلام فلا يصل الى هذا الحد فى التنفير من الدنيا ، والحض على تركها ، والاكتفاء بكساء واحد ، والمشى بلا حذاء .

الاسلام ــ وآيات القرآن واضحة فى ذلك ــ يدعو أتباعه الى أن يأخذوا نصيبهم من الدنيا ، والى أن يأكلوا ويلبسوا ، ويأخذوا زينتهم ، فقط نهى عن الاسراف ، ونهى عن الترف ، وأوضح أن الباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا .

وقد جاءت هذه الآيات التى تبيح الطيبات فى السور المكية ، وقد دعت الى ذلك حالة العرب التى كانوا عليها فى هذا الشأن ، فقد ذكر المفسرون أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة ، يقولون : لا نطوف فى ثياب أذنبنا فيها ، كما حرم بعض العرب أكل بعض الطيبات من الأدهان وغيرها حال الاحرام بالحج ، وحرموا أنواعا من الحرث والأنعام ، وكذلك حرم كثير من الوثنيين وأهل الكتاب كثيرا من الطيبات والزينة ، فنزلت الآيات الكريمة التى أمرت بأكل الطيبات وبأخذ الزينة .

ولعل من أولى الآيات ــ فى هذا المعنى ــ نزولا قوله تعالى فى سورة الأعراف : « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » .

---

(١) انجيل (برنابا) ص ٣٥ ، ٣٦ ــ الطبعة الأولى .

(٢) ففى أنجيل (متى) : وأقول لكم : أن مرور جمل من ثقب ابرة أيسر من أن يدخل غنى الى ملكوت الله وفيه يقول السيد المسيح : لايستطيع أحد أن يعبد ربين ، لانه اما أن يبغض الواحد ، ويحب الآخر أو يلازم الواحد ، ويرذل الآخر لاتقدرون أن تعبدوا الله ، والمال (الاصحاح السادس ــ ٣٥) .

وفى هاتين الآيتين لطائف من النظر :

(١) المراد بالزينة ــ هنا ــ ما يعتاده الناس فى تزينهم المعتدل ، فى المجامع والمحافل ، وهى عند كل انسان بحسب مكانته فى مجتمعه ، ولعل اضافة الزينة الى الناس فى قوله تعالى : (زينتكم) يشير الى ذلك ، أى خذوا زينتكم المعتادة عند اتيان المساجد

وفى هذه الاضافة ما يشعر بكراهة التكلف فى الزينة لأن من أراد أن يشق على نفسه ويكلفها ما لا تطيق من اللباس ، ويظهر فى زى غير زيه المعتاد غير آخذ لزينته ، وانما هو مستعير زينة غيره .

وكأن القرآن يتمشى مع الطبيعة الانسانية الهادئة ، ومع الفطر السليمة ومعلوم أن الفطرة القويمة تنفر من التكلف .

(٢) قوله تعالى (عند كل مسجد) فيه حث على التزين فى أكثر أوقات الانسان ، فليس أخذ الزينة خاصا بالذهاب الى المسجد الحرام ــ كما يؤخذ من سبب النزول ــ ولا هو خاص بمسجد من المساجد الجامعة ــ مثلا ــ دون غيره من المساجد الصغيرة .

واذا فسر المسجد بمكان السجود كان معنى ذلك أن المؤمن مأمور بأخذ زينته عند قيامه للصلاة ، ولو فى بيته .

واذا كان المسلم ــ كما هو المطلوب منه ــ يذهب الى المسجد خمس مرات فى اليوم كان معنى ذلك أنه فى أكثر وقته يلبس ما يليق به من الثياب

ولا يفهم من هذا أن الانسان مأمور بالتزين عند حضور الصلوات فى المساجد ، وفيما عدا ذلك غير مأمور ، لأن اضافة الزينة الى بنى آدم معناها أن الزينة ثابتة لهم ، معهودة عندهم ولكن ربما تركوها تدينا ، كما كان حدث من بعض العرب ، فلذلك خصت المساجد بالذكر .

(٣) كلمة واحدة فى هاتين الآيتين يتسع معناها لأبحاث كثيرة فى الطب والاقتصاد ، بل قد اتسع فعلا ، تلك هى قوله سبحانه : (ولا تسرفوا) والمراد لا تسرفوا فى الطعام وفى الشراب ، وفى الزينة .

وقد أطال الأطباء فى شرح أسباب كثيرة من الأمراض ، وأطال الاقتصاديون فى شرح بعض المبادىء الاقتصادية الضرورية للعمران ، فما عدا هؤلاء وأولئك ما تضمنته هذه الكلمة .

والاسراف مجاوزة الحد فى كل شىء ، وهو فى كل شىء بحسبه ، وهو ضد الفطرة الانسانية ، لأنها أودعت فى الانسان معتدلة سوية ، ولذلك نهى الله عن الاسراف ، وأتبع هذا النهى بأنه لا يحب المسرفين ، لأنهم يجنون على أنفسهم ويراغمون فطرهم ، ولذلك تقع بهم ، وبالجنس البشرى كله أضرار لا تخفى على الباحثين ، والراصدين لأحوال الاجتماع .

ومن اللطائف ما ذكره غير واحد من المفسرين أن طبيبا نصرانيا من أطباء الخليفة هرون الرشيد سأل على بن الحسن بن واقد فقال : ليس فى كتابكم من علم الطب شىء ، والعلم علمان علم الأبدان ، وعلم الأديان ، فقال له على: قد جمع الله الطب كله فى نصف آية من كتابه . قال : وما هى ؟ قال : قوله تعالى : « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » (١) فقال النصرانى : ولا يؤثر عن رسولكم شىء فى الطب ، فقال على : قد جمع رسولنا الطب فى ألفاظ يسيرة. قال : وما هى ؟ قال : قوله صلى الله عليه وسلم : (المعدة بيت الداء ، والحمية رأس الدواء،وأعط كل بدن ما عودته) فقال النصرانى : ما ترك كتابكم ، ولا نبيكم لجالينوس طبا (٢) .

(٤) قوله تعالى (زينة الله) رفع من قدر هذه الزينة ، واستحسان لها، وتمهيد للامتنان بها على العباد .

وقد استوقفنى اضافة الزينة الى لفظ الجلالة فى هذه الآية ، بعد اضافتها الى أبناء آدم فى الآية السابقة ، وفى ذلك رفع لما يتوهم من الاضافة

---

(١) ظهر كتاب فى أمريكا عنوانه (طب الشعوب) أصدره الطبيب الأمريكى جارفيز بعد دراسة استمرت ٥٠ سنة . انتهى منها الى أن عسل النحل دواء ناجح لكل الامراض ، حتى مرض السكر ، وصدق الله العظيم فى قوله : (فيه شفاء للناس) .

(٢) ذكر هذه القصة الزمخشرى فى الكشاف ، والالوسى فى (روح المعانى) وعقب عليها الألوسى ، بأن هذا الحديث لايصح عن رسول الله ، وان الغزالى ذكر فى الاحياء حديثا فى معناه ، وتعقبه العراقى قائلا : لم أجد له أصلا .
وهكذا ذكر صاحب كشف الالباس . والكلمة مروية عن الحارث بن كلدة طبيب العرب .

الأولى ، فربما ظن بعض الناس أن القرآن أمر الناس بأن يخضعوا لعاداتهم وتقاليدهم سواء كانت محبوبة من الشرع ، أو غير محبوبة فجاءت الاضافة الثانية لتبين أن الأمر بها ليس لمجرد أنها عادة ، بل لأن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده .

وقد يتحرج بعض الجاهلين حين يجد فيه نزوعا قويا الى التزين بألوان الزينة المختلفة ، ويظن أنه يجاوز مرضاة الله ، فكانت الاضافة الثانية ردا على مثل هذا ، وتطمينا لورعه المتكلف ، وتحرجه المفتعل .

ثم جاء قوله تعالى : (التى أخرج لعباده) ومعناه أن الله خلق مواد هذه الزينة وعلم الناس طرائق صنعها ، بما أودع فى فطرهم من حبها ، وفى عقولهم من الاستعداد للابداع فيها . أقول : جاء هذا القول مؤكدا لما يفهم من اضافة الزينة الى الله تعالى ، فهو يشعر بالامتنان على العباد ، ويفيد أن الله سبحانه هو خالق هذه الزينة ، ومودع فى الطباع حبها ، فلا ينبغى أن يتحرج منها متحرج .

(٥) قوله تعالى : (قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا) ما معناه ؟ يقول المفسرون : ان المراد أن هذه النعم خلقت بالاصالة للمؤمنين ، وبالتبع لغيرهم ، وفى النفس من هذا القول شىء ، ذلك أن الخطاب فى أول الآيتين عام (يا بنى آدم) ، وكلمة (العباد) عامة ، تصدق على الكافرين ، كما تصدق على المؤمنين فكلهم عباد الله (ان كل من فى السموات والأرض الا أتى الرحمن عبدا) ولا يخص أحد فى مثل هذا السياق ، وثالثا قد يقال ان غير المؤمنين أكثر تمتعا بنعم الله من المؤمنين والى ذلك يشير قوله تعالى : « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ، ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون ، وزخرفا وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا » ويضاف الى ذلك أن الله أخبر بأنه يمد المعرضين عنه بالنعم ، كما يمد المؤمنين (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء) .

على أن كل ما ورد من تسخير بعض المخلوقات جاء عاما للناس كلهم : (والأنعام خلقها لكم) . (هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ،

ومنه شجر فيه تسيمون • ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات) . (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر) (وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا) . وهكذا كل ما جاء فى هذا المعنى ــ وهو كثير جد كثير فى القرآن الكريم ــ جاء عاما ، فما معنى جعل النعم للمؤمنين بالأصالة ، ولغيرهم بالتبع ؟

يبدو ــ والله أعلم بمراده ــ أن هذه الجملة من هذه الآية جاءت ردا على أولئك الذين كانوا يحرمون على أنفسهم الزينة تقربا الى الله تعالى، وعلى أولئك الذين كانوا يحرمون على أنفسهم بعض الطيبات ، يظنون أن هذا الامتناع يدل على خلوص ايمانهم ، فكأن الايمان هو الذى حملهم على تحريم هذه الأشياء ، فرفع الله ذلك الوهم عن قلوبهم ، وقال لرسوله : بلغهم يامحمد أن هذه الطيبات ، وتلك الزينة للذين آمنوا ، أى مباحة لهم ، لا تحرم عليهم فى الدنيا ، ولما كان هذا التعبير لا يعنى أنهم يتمتعون بها تمتعا كاملا ، خالصا من كل مكدر ، أتبعه القرآن بأنهم سيتمتعون بهذه الطيبات فى يوم القيامة ، خالصة من كل شائبة : (لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا . ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا) • حتى ماحرم الله عليهم فى الدنيا سيجدونه خالصا يوم القيامة ، كما جاء فى شأن الخمر (يطاف عليهم بكأس من معين . بيضاء لذة للشاربين ، لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون) . فهذه الخمر الجارية فى الأنهار البيضاء الناصعة البياض اللذيذة لمن يشرب منها لا تترك فى أنفسهم أثرا من وجع أو صداع أو قىء كما تفعل خمر الدنيا ، وكذلك لاتغلبهم على عقولهم ، فهم عنها لاينزفون.

ثم جاءت الآيات آمرة بصراحة ووضوح ، تدعو الى الأكل من الطيبات ، ففى سورة (المؤمنون) ــ وهى سورة مكية : « يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا انى بما تعملون عليم » . وقد جاءت هذه الآية عقب الاخبار بما امتن الله به على عيسى بن مريم وأمه : « وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين » فعيسى وأمه نزلا أرضا غنية بالزرع والثمار ، والمياه الجارية الظاهرة ، فنزلا أطيب أرض ، فيها ما تشتهيه

النفس ، وما تشتهيه العين ، من مناظر جميلة ، وما أنزلهما الله فى هذا المكان وأراد حرمانهما مما فيه من خيرات ، وانما هيأ لهما ذلك المكان ليأكلا ويتمتعا ، ثم أردف القرآن ذلك بتوجيه الأمر للرسل أن يأكلوا من الطيبات فان الله انما خلقها ليأكل الناس منها ، ولا ينبغى أن يحرم المرسلون أنفسهم .

وهذا ولا شك اخبار بأن كل نبى من المرسلين خوطب بهذا الخطاب ، ووجه اليه هذا الأمر ، وفى ذلك دلالة على أن الأكل من الطيبات أمر مرغوب فيه ، وبجانب الأمر بالأكل من الطيبات جاء التحذير من تناول غيرها ، ولذلك قال تعالى : « واعملوا صالحا » ومن العمل الصالح أن يجعل الانسان مطعمه وملبسه من حلال ، والحلال أطيب الطيبات ، وقال : (انى بما تعملون عليم) ومعنى ذلك أن الله مطلع على كل عمل يعمله الانسان ، وسيجازيه عليه .

وقد روى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله : (ان الله تعالى طيب لا يقبل الا طيبا . وان الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : « يأيها الرسل كلوا من الطيبات » ، وقال : « يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم .. » ثم ذكر الرسول الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده الى السماء يارب ، يارب ، ومطعمه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، فأنى يستجاب لذلك) .

ثم جاءت بعد ذلك آية البقرة التى أشار اليها الحديث النبوى الشريف وهى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون » واذا كان الخطاب هنا والأمر للمؤمنين ، فانه فى آية سبقت هذه الآية بآيات قليلة ورد الخطاب فيها للناس أجمعين : « يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين . انما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون »

ويلاحظ أن الآية الثانية التى جاء الخطاب فيها والأمر (للناس) فيها زيادة بيان ونهى عن اتباع وساوس الشيطان ، ولعل من أول ذلك هذا التعبير (حلالا طيبا) فى حين جاء فى الآية الأولى (طيبات) وكما قلت من أطيب الطيبات الحلال ، فوصف المطعوم بأنه طيب يتضمنه وصفه بأنه حلال ،

لكن لما كان الخطاب للناس كافة نص على الحل باللفظ الخاص به حتى يتحرى من ليس من شأنه أن يتحرى ، أما المؤمنون فاكتفى فى خطابهم بذكر الطيبات ، ومن المسلم به أنهم ـ اذا صدقوا فى ايمانهم ـ يتحرون الحلال .

ومن ذلك أن الناس مأمورون بالأكل مما (فى الأرض) أما المؤمنون فمأمورون بالأكل من طيبات ما رزقهم الله ، وفى هذا التعبير (ما رزقناكم) اشعار بالامتنان على المؤمنين ، وبأنهم لا ينبغى أن يتجاوزوا أرزاقهم الى أرزاق غيرهم ، ففى ذلك تضييق لدائرة الطيبات عليهم حتى يكون ما يأكلون أطيب الطيب ، وقوله تعالى : (واشكروا لله) توجيه المؤمنين الى شكر المنعم على نعمته وذلك هو ما يليق بالمؤمنين ، أما الناس فالذى يناسبهم أن يحذروا من اتباع خطوات الشيطان ، وتعليل ذلك بأنه يأمرهم بالشرور والآثام ، وبالقول على الله ما لا يعلمون .

ولا شك أن من وساوس الشيطان تزيين الحرام ، والترغيب فى أكله ، وتحريم الحلال والتزهيد فيه ، ومن القول بغير علم أن يقول الانسان فيما لم يقل فيه الله شيئا : هذا حلال وهذا حرام .

وفى ذلك رد على ما كان يفعله العرب من تحريم أشياء خاصة ، وماكان يفعله غيرهم من أصحاب الديانات السابقة ، والنحل القديمة من الدعوة الى التقشف ، وترك الطعام أياما تقربا الى القوة العليا التى يعتقدون فيها .

بعد ذلك نزلت آية المائدة ، وفيها تصريح بأن الناس حرموا أشياء أحلت لهم ، وقد سبقها بيان ما حرمه الله : « يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين ، وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون » .

وسبب نزول هذه الآية ـ على ما رواه أكثر المفسرين ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصف القيامة يوما لأصحابه ، فبالغ ، وأشبع الكلام فى الانذار ، فرقوا ، واجتمعوا فى بيت عثمان بن مظعون ، واتفقوا على أن لا يزالون صائمين قائمين ، وأن لا يناموا على الفرش ، ولا يأكلوا اللحم والودك (الدهن) ولا يقربوا النساء والطيب ، ويرفضوا الدنيا ، ويلبسوا

المسوح ، ويسيحوا فى الأرض ويجبوا مذاكيرهم فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم : انى لم أومر بذلك ان لأنفسكم عليكم حقا ، فصوموا ، وأفطروا ، وقوموا ، وناموا ، فانى أقوم ، وأنام ، وأصوم ، وأفطر وآكل اللحم والدسم ، وآتى النساء ، فمن يرغب عن سنتى فليس منى ونزلت الآية ، وقد روى عن ابن مسعود أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم : انى حرمت الفراش فتلا عليه السلام هذه الآية ، وقال للرجل : نم على فراشك ، وكفر عن يمينك .

ولعل سبب النزول هو الذى جعل هاتين الآيتين شبيهتين بآية البقرة : (يأيها الناس كلوا مما فى الأرض) فقد جاء فيهما النهى الشديد عن تحريم الطيبات ، والنهى عن الاعتداء .

ومن الاعتداء تعدى حدود ما أحل الله الى ما حرم ، ومنه الاسراف فى تناول الطيبات ، ومنه تحريم الطيبات .

كما جاء فيهما وصف ما رزقهم الله بأنه (حلال طيب) وذلك لزيادة الترغيب فيه ، وعقبه بالأمر بالتقوى ليؤكد به التوصية ، فان من التقوى أن يقف المؤمن عند حدود الله ، فلا يتعداها بتحليل الحرام ،أو بتحريم الحلال ، وزاد فى التأكيد قوله تعالى : (الذى أنتم به مؤمنون) فان من لوازم الايمان اتقاء سخط الله ، والايمان يوجب التقوى فى الانتهاء الى ما أمر به وما نهى عنه

قال الشيخ رشيد رضا فى تفسير هاتين الآيتين : (فعلم مما شرحناه أن امتناع امرىء من الطيبات رزقه الله اياها ، مع الداعية الفطرية للاستمتاع بها ، اثم يجنيه على نفسه فى الدنيا ، ويستحق به عقاب الله فى الآخرة ، بزيادته فى دين الله قربات لم يأذن بها الله ، وبما يترتب على ذلك من اضاعة بعض حقوق الله ، وحقوق عباد الله ، كاضاعة حقوق امرأته ، أو عياله ، وناهيك به اذا انتصب قدوة لغيره ، فكان سببا لغلو بعض الناس فى الدين ، وتحريمهم على أنفسهم ، وعلى من يقتدى بهم ما أحله الله تعالى ، والتحريم والتحليل تشريع ، وهو حق من حقوق الربوبية فمن انتحله لنفسه كان مدعيا للربوبية، أو كالمدعى لها) .

٩ ـ بين المادة والـروح

ومن الواضح أن قوله تعالى : (ولا تعتدوا) وقوله فى سورة الأعراف : (ولا تسرفوا) يدلان على ضرورة لزوم حد الاعتدال ، وهذا هو ما تقتضيه الفطرة السليمة فهى تدعو الى أن يأخذ الانسان حظه من الدنيا ، وحظه من الدين ، وهذا الاعتدال مع أنه مقتضى الفطر أمر صعب المنـال ، فان على الانسان أن يحارب شهوة الافراط ، كما عليه أن يحارب شـهوة التفريط ، فقد يصعب على الشيطان أن يجىء الانسان من جانب الترغيب فى الاسراف فيجيئه من جانب التزهيد فى الطيبات . وبذلك يقع المؤمـن فى صراع عنيف بين ما تطلبه روحه ، وما يطلبه جسده .

وليس الصراع بين المادة والروح وليد عصرنا ، ولا هو مما اختص به عصر دون عصر ، ولكنه قديم قدم المجتمع الانسانى ، فان الانسان حين رأى بجانبه أخاه الانسان وجـد فى نفسه قوة تدفعه الى التسـلط ، ومدافعـة الآخرين ، وشعر بقوة أخرى تدفعه الى التسـامح ، والى المجامـلة ، والى التجمل والايثار .

وجاءت الشرائع فلم تحارب العمل على كسب المال ، بل دعت الى السعى وحببت فيه ـ كما أسلفنا ـ غير أنها أرادت أن تجعل الكلمة العليا ـ عند الفرد فى المجتمع للروح ، وظهر مصلحون فى العالم القديم والحديث يدعون هذه الدعوة نفسها ، وكان منهم المتطرفون الذين يدعون الى تغليب جانب المادة ، وينادون بوجوب سـيطرتها على كل شىء حتى دعت بعض المذاهب القديمة الى اباحة الأموال والنساء ، لأنها ـ كما زعمت ـ أصل البلاء .

ووجد بجانب هؤلاء جماعة أخذوا أنفسهم بالعزوف عن طيبات الحياة ودعوا الى الزهد فى الدنيا ، ولا يزال هذا الصراع قائما الى يوم الناس هذا ، وان كان طغيان المادة أشد وأقوى وأظهر .

تيـار المادية : فلا شك أن عصرنا الحديث أكثر العصـور تكالبا على المادة ، وحرصا عليها ، وقتالا فى سبيلها .

وقد طغى تيار المـادية حتى جرف فى طريقه بعضـ من كان يظن بهم التعقل والتأنى ، فى الأحكام فنادى بعضهم بأن الروحانية تبدأ من المعـدة

الممتلئة ، ووصف الداعين اليها بأنهم وباء ، وبأنهم شر مـا فى المجتمعات ، لأنهم ـ فيما زعم ـ يدعون الى العزوف عن الدنيا ، والى نبذ المادة .

وهذا اندفاع غير محمود ، وغفلة عن حقيقة الروحانية التى دعا اليها الاسلام ، فليست المادة كل شيء فى الحياة ، والسعادة ليست رهنا بالغنى ، وأخلاق الانسان لم تكن ـ دائما ـ وليدة الرخاء الاقتصـادى ، بل على العكس من ذلك نجد الفضائل النفسية والاجتماعية أقوى فى نفوس الفقراء منها فى نفوس الأغنياء .

فالكذب ، والتعهر ، والنفاق ، والشح .. وما اليها ، أرسخ جذورا فى نفوس أصحاب الثراء ، وأقل وجودا فى نفوس الفقراء .

والداعون الى الروحية لم يحرموا على الناس أن يأكلوا ، ويتمتعوا . والمصدر الأول فى الاسلام هو القرآن ، والقرآن صريح وواضح ، فى الدعوة الى تناول الطيبات كما أسلفنا .

١٠ـ تهمـة مغرضة .

وقد كان من أصحاب القرآن ، ومن كبار الصحابة من تمتع بالطيبات ، واغتنى واقتنى ، ولقد عاب بعض الناس على سيدنا عثمان بن عفان أكله من الطيبات ، ولبسه الفاخر ، وابتناءه القصور ، ولكنها كانت تهمة باطلة مغرضة عرض لها شاعرنا شوقى فأبان زيفها فيما قال :

وقال قـوم خالف الأترابـا ... وحالف الثـراء والأتـرابا (١)
وكرهوا التمصير والتمدينا ... وزعموا الدنيـا تعفى الدينـا
ويحهمـوا مالهم وما لـه ... طاب ، وطيب الحـلال ما لـه
مال كما شاء العفاف والكرم ... زكا كهدى البيت أوحلى الحرم
والزهد حال للقلوب والنهى ... مـا أمـر الله بـه ولا نهى
وهـذه الدنيـا يد العظيم ... وسـره فى ملـكه العظيـم
أحل منها ماصفا مشـارعا ... وحـرم الآفات والمصـارعا

(١) يقال ترب الرجل اذا افتقر ، واترب اذا اغتنى .

وســاقها للأنبيــاء ترسف هذا (سليمان) وهذا (يوسف)
وأين من شأنيهما (عثمان) على الذى خــوله الرحمــن

والعارفون من الزهاد ما كانوا يعيبون شيئا من الطيبات .

كلمة لابن الجــوزى : قال ابن الجوزى فى (صيد الخاطر) : وبلغنى عن بعض زهاد زماننا أنه قدم اليه طعام ، فقال : لا آكل . فقيــل له : لم ؟ قال : لأن نفسى تشتهيه ، وأنا منذ سنين ما بلغت نفسى ما تشتهى ، فقلت : لقد خفيت طريق الصواب عن هذا من وجهين ، وسبب خفائها عدم العلم .

أما الوجه الأول : فان النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن على هذا ، ولا أصحابه ، وقد كان عليه الصلاة والسلام يأكل لحم الدجــاج ، ويحب العسل والحلوى .

وقد دخل فرقد السبخى على الحسن البصرى ، وهو يأكل الفالوذج ، فقال : لا آكله ولا أحب من أكله ، فقال الحسن : لعاب النحل ، مع لباب البر ، مع سمن البقر هل يعيبه مسلم !؟

وجاء رجل الى الحسن ، فقال : لى جار لا يأكل الفالوذج ، فقال : لم؟ قال : يقول : لا أؤدى شكره ، فقال الحسن : ان جارك جاهل ، وهل يؤدى شكر الماء البارد (١) .

وما حدث فى الزهاد من هذا المعنى أمور مسروقة من الرهبانية ، وأنا خائف من قوله تعالى : (لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) .

والوجه الثانى : أنى أخاف على الزاهد أن تكون شهوته قد انقلبت الى الترك ، فصار يشتهى ألا يتناول ، وللنفس فى هذا مــكر خفى ، ورياء دقيق .

---

(١) زاد الزمخشرى فى الكشاف بعد هذه القصة ، وعنه ـ يريد عن الحسن ـ ان الله تعالى (أدب عباده) فأحسن أدبهم ، قال الله تعالى (لينفق ذو ســعة من سعته) ماعاب الله قوما وسع عليهم الدنيا فتنعموا وأطاعوا ، ولا عذر قوما زواها عنهم فعصوه (الكشاف حـ ١ ص ٣٦٠) .

١١ـ نماذج من الزهد .

وكان أيوب السختيانى سيد الزهاد ، وسيد الفقهاء ، وسيد شباب أهل البصرة فى زمنه . وكان يقول فيه سفيان بن عيينة : ما رأيت مثل أيوب ـ مع أن سفيان لقى ستة وثمانين تابعيا .

هذا الزاهد العظيم يقول فيه بعض أصحابه : لو رأيتم أيوب ، ثم استسقاكم شربة من ماء على النسك لما سقيتموه ، له شعر وافر ، وشارب وافر ، وقميص جيد هروى يشم الأرض ، وقلنسوة متركة جيدة ، وطيلسان كردى جيد ، ورداء عدنى .

وقد حدد هذا الفقيه الزاهد معنى الزهد فى قوله : الزهد فى الدنيا ثلاثة أشياء ، أحبها الى الله ، وأعلاها عند الله ، وأعظمها ثوابا عند الله تعالى ، الزهد فى عبادة من عبد من دون الله ، من كل ملك ، وصنم ، وحجر ، ووثن ، ثم الزهد فيما حرم الله تعالى من الأخذ والعطاء كأن يقول ذلك ، ثم يقبل على أصحابه ، ويقول زهدكم هذا ـ يا معشر القراء ـ هو ـ والله ـ أخسه عند الله : الزهد فى حلال الله عز وجل .

ولعل ما ذكر من صفاته ، وكلماته ، ونصائحه يدلنا على طريقة هذا الرجل فى الزهد .

كان أحد أصحابه يقول : ما وعدت أيوب موعدا الا وجدته قد سبقنى اليه .

ويقول آخر : ما رأيت رجلا قط أشد تبسما فى وجوه الرجال من أيوب .

وطلب منه رجل أن يوصيه فقال له : أقل الكلام .

وكان أيوب صديقا ليزيد بن الوليد (الخليفة الأموى) قبل الخلافة فلما ولى يزيد الخلافة ، قال أيوب : اللهم أنسه ذكرى ، ماصدق عبد الا سره ألا يشعر بمكانه .

وقيل له : مالك لا تنظر فى الرأى ؟ فقال : قيل للحمار : ألا تجتر ؟ فقال : أكره مضغ الباطل .

ومن كلامه : الزم سوقك ، فانك لا تزال كريما على اخوانك ما لم تحتج اليهم .

ومن الزهاد المشهورين بالزهد بكر بن عبد الله المزنى ، وكان مجاب الدعوة ، قالوا : كانت قيمة ثيابه أربعة آلاف ، وكان يقول : أعيش عيش الأغنياء ، وأموت موت الفقراء ، فمات وان عليه لشيئا من دين .

ومنهم مطرف بن عبد الله ، ومما حدثوا به عنه ، أنه مات له ابن فخرج على الحى قد رجل جمته ، ولبس حلته ، فقيل له : ما نرضى منك بهذا ، وقد مات ابنك ، فقال : أتأمرونى أن أستكين للمصيبة ؟ فوالله ، لو أن الدنيا ، وما فيها لى فأخذها الله منى ، ووعدنى عليها شربة ماء غدا ، ما رأيتها لتلك الشربة أهلا ، فكيف بالصلوات والهدى والرحمة ؟

يشير الى قول الله تعالى : (وبشر الصابرين ، الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) .

ومنهم يحيى بن كثير ، وكان حسن اللباس ، حسن الهيئة ، مات ، ولم يترك الا ثلاثين درهما ، كفنوه بها .

ومن قول ربيعة بن عبد الرحمن أحد الزهاد : لقد رأيت مشيخة بالمدينة وان لهم لغرائز ، وعليهم المعصفر ، والمورد ، فى أيديهم مخاصر ، وفى أيديهم آثار الحناء ، فى هيئة الفتيان ودين أحدهم أبعد من الثريا اذا أريد على دينه

وفى شرح النهج لابن أبى الحديد ، جاء فرقد السبخى الى الحسن (يريد الحسن البصرى) وعلى الحسن مطرف خز ، فجعل ينظر اليه ، وعلى فرقد ثياب صوف ، فقال الحسن : ما بالك تنظر الى هكذا ، وعلى ثياب أهل الجنة ، وعليك ثياب أهل النار .

ان أحدكم ليجعل الزهد فى ثيابه ، والكبر فى صدره ، فلهو أشد عجبا بصوفه من صاحب المطرف بمطرفه .

١٢ ـ حقيقة الزهد .

فليس التمتع بالطيبات ـ فى غير اسراف ولا اعتداء ـ بمانع من الزهد فى الدنيا ، وليس العزوف عنها ، وعن زينة الله التى أخرج لعباده بدليل قاطع على الزهد ، فقد سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن الزهد ، فقال : أما انه ما هو بتحريم الحلال ، ولا اضاعة المال ، ولكن الزهد فى الدنيا أن تكون بما فى يد الله أغنى منك بما فى يدك .

وسئل الفضيل بن عياض عن الزهد ، فقال : حرفان فى كتاب الله (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم) .

وليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك ، وهى فى قلبك ، وانما الزهد أن تترك الدنيا من قلبك ، وهى فى يدك .

الزهد ألا تبالى بيد من كانت الدنيا .

الزهد أن تعف عن الحرام ، وتحتاط من الشبهة ، فلا تأخذ مالا الا من حله ، ولا تضعه الا فى حقه .

الزهد أن تفعل فى شأن المال كما كان يفعل هؤلاء :

ورث المحاسبى من أبيه ألف درهم ، فلم يأخذ منها شيئا لأن أباه كان قدريا ، فرأى من الورع ألا يأخذ ميراثه ، وقد مات المحاسبى وهو محتاج الى درهم .

وحدث رجل قال : خطب رجل الى الحسن ، وكنت أنا السفير بينهما ، فكأن قد رضيه ، فذهبت يوما أثنى عليه بين يديه ، فقلت : يا أبا سعيد ، وأزيدك أن له خمسين ألف درهم . قال : له خمسون ألفا ، ما اجتمعت من حلال . قلت : ياأبا سعيد : انه ـ كما علمت ـ ورع مسلم . قال : ان كان جمعها من حلال فقد ضن بها عن حق . لا ، والله ، لاجرى بيننا وبينه صهر أبدا .

وحدث رجل عن يونس بن عبيد ـ وكان من التقوى والزهد والورع بمكان عظيم ـ قال : والله انا لنكون فى نحر العدو ، فاذا اشتد الأمر علينا

قلنا : اللهم رب يونس بن عبيد فرج عنا ، وكان يونس هذا تاجرا ، وقد جلس مرة ينظر فى حسابه مع شركائه ، فلما فرغوا من الحساب قال يونس : كلمة تكلم بها فلان داخلة فى حسابنا ؟ قال أصحابه : نعم . قال : لا حاجة لى فى الربح ، ردوا على رأس مالى ، فأخذ ماله ، وترك ربحه ، وانه لأربعة آلاف .

ومر جابر بن زيد بحائط قوم (بستان) فأخذ قصبة فجعل يطرد بها الكلاب عن نفسه فلما أتى البيت وضعها فى المسجد (مسجد بيته) وقال لأهله : احتفظوا بهذه القصبة ، فانى مررت بحائط قوم ، فانتزعتها منه ، قالوا : سبحان الله ، ياأبا الشعثاء ! ما بلغ بقصبة ؟ فقال : لو كان كل من مر بهذا الحائط أخذ منه قصبة لم يبق منه شيء ، فلما أصبح ردها .

وجاءت الى الامام أحمد بن حنبل امرأة تسأله : اننا نغزل فوق سطوحنا على ضوء القمر ، وربما مرت بنا الظاهرية (وهى فرقة ضالة) ، أفيجوز لنا أن نغزل على أضواء مشاعلهم ؟ فقال لها الامام : من أنت يرحمك الله ؟ فقالت: أخت بشر الحافى ، فقال : من بيتكم خرج الورع .

ولعل أبلغ ما فى الزاهد وأجمل ما يميزه عن غيره رضاؤه عن الله ، وخضوعه لحكمه حين يقتر عليه فى الرزق .

اجتمع محمد بن واسع ، ومالك بن دينار فى مجلس بالبصرة ، فقال مالك : ما هو الا طاعة الله أو النار ، فقال محمد بن واسع : ما هو كما تقول ليس الا عفو الله أو النار . قال مالك : صدقت . ثم قال مالك : انه يعجبنى أن يكون للرجل قدر مايقوته ، وهو راض عن الله عز وجل ، فقال محمد : ما هو كما تقول ، ولكن يعجبنى أن يصبح الرجل ، وليس له غذاء ، ويمسى وليس له عشاء وهو ــ مع ذلك ــ راض عن الله عز وجل .

١٣ــ الدعوة الى جمع المال .

أما لماذا لم يقم فى الناس الواعظ الذى يدعو الناس الى جمع المال ، والأكل والتمتع بالطيبات ، كما يدعوهم الى الروحانية ، فلأن الناس جبلوا على حب المال ، وفطروا على حب التكاثر ، فهم لا يدخرون وسعا فى هذه

السبيل ، وللمعدة قانون ، سلطانه فوق كل سلطان ، حتى انه ليدفع الأم الى أن تأكل طفلها اذا لم يكن بد من أكله لتعيش هى .

فمن العبث أن يقوم فى الناس الداعية الذى يحرض النـاس على أن يستجيبوا لفطرتهم الغالبة وعلى أن يخضعوا لقانون المعدة .

أما التواكل ، والعيش على جهود الآخرين ـ مع القدرة على الكسب ـ فقد حرمه الاسلام ـ كما أسلفنا ـ وما زال الواعظون يندون بكل من يعيش كلا على غيره .

وقديما قال الخفاجى فى بعض كتبه : « وسادة متصوفة ، عن الصدق متعففة ، حرفتهم بيع الزهادة ، وحانوت تجارتهم السجادة ، من كل متكبر ، كأن يد الثريا له تشير ، فيه شر طويل ، تحت ذيل قصير .

مشوا على الخبز ومن عادة الز هـاد أن يمشـوا على المـاء

١٤ـ روحانية الاسلام

فالروحانية التى دعا اليها الاسلام ليست هى الانصراف عن الدنيا ، وانما هى التعالى عن ضرورات الحياة ، والانطلاق من أسر الشهوات ، والرضا حين يخفق السعى ، ويعثر الجد .

فهو لا يدعو الانسان حين يفتقر الى أن يقول كما قال ذلك اللص العربى:

ولا أسأل المـرء اللئيم بعيره وبعران ربى فى البـلاد كثير

وانما يدعوه ـ بعد الدعوة الى السعى ، والكد والعمل ـ الى الرضا بما قسم الله له ، ويقول له : (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا . ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات . ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون) .

وهو ـ حينئذ ـ لا يتغفل الناس ، ولا يخدعهم ، ولا يخـدم طبقة فى المجتمع ، ولكنه يدعو الى تطهير النفوس من الأخلاق الذميمة ، والى السلام والأمن .

ولابد من هذا للانسان لأنه دائما محتاج الى هذه المثالية فى حياته الفردية والاجتماعية ، ولا يمكن أن تسود المحبة بين الناس ، ويقوى التعاون بينهم الا بهذا الشعور النفسى الكريم .

أما اذا ترك الناس لسلطان المادة فانهم ينزلقون فى مهاوى الشر ، ويضلون فى أودية الفساد والهلاك .

١٥ ـ زهد أبى العلاء .

أحمد بن عبد الله بن سليمان المعرى الشاعر الفيلسوف المعروف كانت له فلسفة خاصة فى الحياة ، خلاصتها أنه اعتبر الحياة جناية من الجنايات ، فامتنع عن الزواج لأنه جناية على الأولاد ، وقد أوصى أن يكتب على قبره :

هذا جناه أبى على وما جنيت على أحد

وكان يرى أن غيره جنى ، وسيجنى هو على أولاده ان تزوج :

على الولد يجنى والد ولو أنهم ولاة على أمصارهم خطباء
وزادك بعدا من بنيك وزادهم عليك حقودا أنهم نجباء
يرون أبا ألقاهم فى مؤرب من العقد ضلت حبله الأرباء

فهو يتوهم أن الايجاد جناية على الأبناء ، وأن الأولاد أنفسهم يدركون هذه الجناية ، وكلما كانوا أفهم للحياة ، وأعرف بها ، كان حقدهم على آبائهم أشد ، لأنهم يرون أبا أوقعهم فى عقدة محكمة ـ هى الحياة ـ لم يستطع أحد من الأذكياء حلها .

ومن فلسفته أنه حرم اللحم على نفسه وبقى على ذلك خمسا وأربعين سنة ، كما حرم السمك ، وكل ما ينتج من حيوان ، وعاش نباتيا ، وهو فى ذلك ـ كما حدث مترجموه ـ يرى رأى الحكماء المتقدمين،فانهم لم يكونوا يأكلون اللحم ، لكى لا يذبحوا الحيوان ، ففيه تعذيب له ، وهم لا يرون الايلام فى جميع الحيوان .

وقد مرض أبو العلاء مرة فوصف الطبيب له الدجاج الصغير ، فلما جىء به اليه لمسه بيده وقال : استضعفوك فوصفوك ، هلا وصفوا شبل الأسد .

وقد أثبت فى قصيدة له حائية ما يرى الامتناع عن أكله ، وأشار فيها الى العلة التى حملته على هذا الامتناع :

غدوت مريض العقل والدين فالقنى ... لتسمع أنباء الأمور الصحائح
فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالما ... ولا تبغ قوتا من غريض الذبائح (١)
ولا بيض أمات أرادت صريحة ... لأطفالها دون الغوانى الصرائح (٢)
ولا تفجعن الطير وهى غوافل ... بما وضعت فالظلم شر القبائح
ودع ضرب النحل الذى بكرت له ... كواسب من أزهار نبت فوائح (٣)
فما أحرزته كى يكون لغيرها ... ولا جمعته للندى والمنائح (٤)

وبعد أن وجه نصائحه الى من اعتقده مريض العقل والدين ، لأنه يتمتع بهذه الطيبات ، تحدث عن نفسه ، وأسف لأنه لم يأبه لنفسه منذ صباه الباكر :

مسحت يدى من كل هذا فليتنى ... أبهت لشأنى قبل شيب المسائح (٥)

ثم خاطب (بنى زمنه) ورماهم بالجهل بسرائر ، يعرفها ، ولكنه لا يبوح بها ، ورماهم بالغى والضلال ، وأخيرا رمى الدين بمقذعة من شر مقذعاته :

بنى زمنى هل تعلمون سرائرا ... علمت ، ولكنى بها غير بائح
سريتم على غى فهلا اهتديتم ... بما خبرتكم صافيات القرائح
وصاح بكم داعى الضلال فمالكم ... أجبتم على ما خيلت كل صائح
متى ماكشفتم عن حقائق دينكم ... تكشفتم عن مخزيات الفضائح

ثم أعلن عن اعجابه بما يفعله الرهبان من الامتناع عن طيب المأكل والمشرب ، ومن الامتناع عن الزواج ، ولم يعب عليهم الا أكلهم من كسب غيرهم ، فان أطيب المطعم ما كان من حلال ، جاء نتيجة سعى وعمل ، ولا حجة

---

(١) الغريض : الطرى
(٢) الامات للحيوان كالامهات للانسان ، والغوانى الصرائح أى الجميلات ذوات الحسب والنسب .
(٣) الضرب ـ بفتح الضاد والراء : العسل الابيض الغليظ .
(٤) الندى : الجود . المنائح : جمع منيحة وهى المنحة التى تعطيها لغيرك .
(٥) أبه للشىء : تنبه له . المسائح : جمع مسيحة ، وهى الذؤابة ومابين الصدغين الى الجبهة من الشعر .

للرهبان من سيرة المسيح ، فانه عليه السلام كان يغدو ويروح ، ويعمل ويكسب ، ولم يحبس نفسه للعبادة :

ويعجبنى دأب الذين ترهبوا ... سوى أكلهم كد النفوس الشحائح
وأطيب منهم مطعما فى حياته ... سعاة حلال بين غاد ورائح
فما حبس النفس المسيح تعبدا ... ولكن مشى فى الأرض مشية سائح

ففى هذه الأبيات من هذه القصيدة يتضح جانب مهم من جوانب سلوك هذا الشاعر ، واعتقاده .

ولعل النظم لم يساعده على أن يعلل رأيه ويحلله ، فهو لم يزد فى تعليل النهى عن أكل السمك على أن هذا ظلم ، ولم يذكر أى تعليل للنهى عن ابتغاء القوت من غريض الذبائح ، وعلته فى النهى عن أكل اللبن أن الحيوانات آرادته لأطفالها الا للغوانى ، ولا لغيرهن من بنى الانس ، أما عند النهى عن أكل صغار الطير فقد أعلن عن شعوره بما تلقاه الأمات عند أخذ أولادها (ولا تفجعن الطير) : وهو يرى أن هذا ظلم ، والظلم شر القبائح .

وفى النهى عن أكل العسل لم يزد عن أن النحل لم تجمعه لغيرها .

أما فى النثر فقد ذكر الدوافع الحقيقية التى دفعته الى هذا السلوك بصراحة ووضوح .

فقد قال له بعض الناس : لم لا تأكل اللحم ؟ فقال : أرحم الحيوان ، قال السائل : فما تقول فى السباع التى لا طعام لها الا لحوم الحيوان، فان كان لذلك خالق ، فما أنت بأرأف منه ، وان كانت الطبائع المحدثة لذلك ، فما أنت بأحذق منها ، ولا أتقن عملا .

قال راوى القصة : فسكت أبو العلاء .

قلت : وأنا أستبعد أن يكون سكوت أبى العلاء عجزا عن الجواب ، ولكنه ـ فيما أعتقد ـ طلب للسلاقة ، وقد نجد فى الأبيات الآتية جواب أبى العلاء عن هذه المسألة :

قضاء يوافى من جميع جهاته كما هو عن ايماننا والمياسر
ولو لم يرد جور البزاة على القطا مكونها ما صاغها بمناسر
رأيت سكوتى متجرا فربحته اذا لم يفد ربحا فلست بخاسر

فهو فى البيت الأول ، يؤمن ايمانا تاما بالقضاء ، فهو يجىء من جميع الجهات كما قضاه الله ، لا تغيير ولا تبديل ، وفى البيت الثانى ، يأتى بالجواب الصريح عن سؤال مثل هذا السائل ، فهى ارادة الله ، هكذا أراد الله ، أن يجور الباذى على القطاة ، فيأكلها ، أما فى البيت الثالث فيعلل سكوته فى بعض الأحايين ــ وكتمانه مايعلمه من أسرار .

وقد ابتلى أبو العلاء بأبى نصر بن أبى عمران داعى الدعاة فى مصر ــ على عهده ــ فدارت بينهما مكاتبات كشفت عن الدوافع التى دفعت أبا العلاء لمسلكه فى الزهد وأبانت عن حجج قوية لم يستطع أبو العلاء أن يدحضها .

بدأ أبو نصر بادعاء أنه عليل فى دينه وعقله ، وأنه لذلك يشد الراحلة الى أبى العلاء لأنه الصحيح الذى ينبىء أنباء الأمور الصحائح ــ كما يشير اليه البيت الذى بدأ به القصيدة التى ذكرنا طرفا منها .

ثم أورد سؤالا مؤداه : أن النبات موضوع للحيوان ، والحيوان مسخر للانسان ، وتجافى الشيخ ــ يريد أبا العلاء ــ عن الانتفاع بما هو موضوع له ، مخلوق لأجله ، ابطال لتركيب الخلقة .

ثم امتناعه عن أكل الحيوان ليس يخلو القصد به من أحد أمرين :
الأول : اما أنه تأخذه رأفة بها ، فلا يرى تناولها بالمكروه ، وما ينبغى أن يكون أرأف بها من خالقها .

فاذا ادعى أن تحليلها ، وتحريمها ، انما كان من بعض البشر ، يعنى أصحاب الشرائع ، وأن الله لم يبح اراقة دم حيوان ، وأكله ، كان الدليل على بطلان قوله ، وقوع المشاهدة لجنس السباع ، وجوارح الطير التى خلقها الله ــ سبحانه ــ على صيغة لا تصلح الا لنتن اللحوم ، وفسخها ، وتمزيق الحيوانات ، وأكلها ، واذا كان هذا الشكل قائم العين فى الفطرة ، كان جنس البشر وسيع العذر فى أكل اللحوم وكان من أصل لهم ذلك محقا .

والثانى : أنه يرى سفك دماء الحيوان خارجا عن أوضـاع الحكمة ، وذلك اعتراض منه على خالقه ، الذى أوجده (١) .

وقد أجاب الشيخ أبو العلاء بأن الله حكم عليه بالازهاد ، فطفـق من العلم فى جهاد ، وأن الحيوان حساس يقع به الألم ، وأن من ينسب الى الدين لم يزل يرغب فى هجران اللحوم لأنها لم يوصل اليها الا بايلام حيوان ، وأن الضائنة اذا ذبحوا ولدها تظل حزينة باكية ، وأنه حار فى تعليل ما يراه فى الكون من الشرور ، فسأل ربه أن ينعم عليه ، فرزقه صوم الدهـر ، وظن اقتناعه بالنبات يثبت له جميل العاقبة .

وأنه ذكر أشياء لم يفهم لها وجها ، منها تسليط الله الأسد على افتراس الانس ، وتسليط البازى والصقر على الطير ، وتسليط الصقر على القطاة ، وقد تكون حاملة ماء لفراخها الظماء ، وكل ذلك ـ عنده ـ مما يدعو الى الحيرة .

وأخيرا يعلن أن الذى حثه على ترك أكل اللحوم هو ضيق ذات يده ، اذ أن دخله فى العام نيف وعشرون دينارا ، يأخذ خادمه جزءا منها ، والبـاقى لا يكفيه لأكل الطيبات ، ولذلك اكتفى بالخشن من الطعام .

ويختتم رده بأنه لا يريد لرزقه زيادة ، ولا لسقمه عبادة .

وكأنه بذلك يسد الطريق على داعى الدعاة أن يفكر فى أن يزيد فى رزقه أو لعله أحس أن اعتلاله بالفقر يشعر بطلب الرفد ، فنبه أنه راض بما هـو عليه من رزق .

وكان فى هذه الاجابة مجال لداعى الدعـاة ، فكتب الى أبى العـلاء يجادله ، وقد أعاد اجابته الأولى ، بأن الله أباح لنا ذبح الحيوان ، فان كان فى ذلك عادلا فانه سبحانه يقبض أرواح الآكل والمأكول جميعا ، وذلك مسلم له ، وان كان جائرا لم ينبغ أن نرجع على خالقنا بعدلنا وجوره .

---

(١) معجم الأدباء جـ ٣ ص ١٨٠ ، ١٨١ ، ط دار المأمون .

ووصف ما ردده أبو العلاء فى رسالته من الحديث عن الخير والشر ، وهل الله سبحانه عالم بالشر أولا ، واذا كان عالما به فهل مريد له أولا . وصف كل ذلك بأنه ظلمات ، وساق حكاية لطيفة ليقول : ان أبا العلاء زاد الطين بلة ، بخوضه فى موضوع جديد ، وأن أبا نصر لا يزال فى حيرة ، لم يجد شيئا من الأنباء الصحائح .

والحكاية : قيل ان انسانا ضاع له مصحف ، فقيل له : اقرأ « والشمس وضحاها » فانك تجده ، فقال : وهذه السورة أيضا فيه .

وبعد أن صال وجال فى اجابة أبى العلاء عن فلسفة الخير والشر ، ختم الرسالة بأنه كتب الى مولاه بأن يعطى أبا العلاء من المال ما يزيح به العلة ، وما يمكنه من ألذ الطعام .

وقد رجع أبو العلاء الى نفس الأجوبة ، فالحيوان البحرى لا يخرج من الماء الا وهو كاره ، والعقل لا يقبح ترك أكله ، وان كان حلالا ، لأن المتدينين لم يزالوا يتركون ما هو لهم حلال مطلق ، وأن أخذ اللبن من الأم هو السبب فى ذبح ولدها ليخلص لأصحابها اللبن ، وهى تجد على ابنها حين يذبح وجدا شديدا .

وصرح فى هذه الرسالة بأنه لا يزعم أن اللبن محرم ، وانما تركه اجتهادا فى التعبد ، ورحمة للمذبوح ، ورغبة فى مغفرة الله .

ثم قال : « واذا قيل : ان الله سبحانه يساوى بين عباده فى الأقسام فأى شىء أسلفته الذبائح من الخطأ حتى تمنع حظها من الرأفة والرقة ؟! »

وعلل امتناعه عن العسل بأن النحل تحارب جانيه بما تقدر عليه ، فهى حريصة عليه ، فلماذا لا تجعل كغيرها .

وساق قصصا خلاصتها أن الأنبياء والمجتهدين من الأئمة كانوا يقصرون نفوسهم ، ويؤثرون بما يفضل منهم أهل الحاجة .

ثم جعل الامتناع عن أكل اللحم كالنوافل التى تزاد فى العبادات ، ورفض ما عرضه عليه من التوسعة فى الرزق ، وقال : ان ترك الأطعمة قد صار له طبعا ثانيا .

وعاد داعى الدعاة يناقش ، ويجادل ، وعرض فى آخر رسالة لقول أبى العلاء فى السمك فقال : ان كراهية السمك للخروج من البحر لا تصلح حجة لترك أكله ، لأن الانسان كاره للموت ، وهو يموت ، والانسان أجل من كل برى وبحرى ، فان كان موت الانسان صادرا عن حكمة كان أمر الحيوان البحرى كذلك ، وان كان معدولا به عن وجه الحكمة كان محالا أن يكون الصانع سفيها والمصنوع حكيما .

ثم انتهت هذه المكاتبات ، وهى تدور فى هذه الحلقة المفرغة .

وأول ما نلاحظه أن أبا العلاء نفى أن يكون حرم أكل شىء من هذه الأشياء التى ترك أكلها ، وهذا أمر عظيم فى موضوعنا ، فما دام الرجل لم يحرم شيئا فلا ينبغى أن يعاسر الحساب .

وثانى ما نلاحظه أن ترك الطيبات ليس المسلك الوحيد فى حياة الرجل التى تميزت عن غيرها من حياة الآخرين ، فالرجل قد ترك التزوج ، وترك مخالطة الناس ، ولم يخرج من بيته أكثر من خمس وأربعين سنة .

وكل ذلك يجعل الرجل أنموذجا منفردا ، ينبغى الحكم عليه جملة .

وثالث هذه الملاحظات أنه لا يبعد أن يكون الرجل خلق رقيق القلب ، وهى خلقة لا يمكن التخلى عنها ، فاستجاب لهذه الغريزة فيه فصدر عنها أولا ، ثم صار الترك له عادة ، كما قال عن نفسه ، ونحن نرى بيننا من لا يستطيعون النظر الى دجاجة ، وهى تذبح .

ورابع ما نلاحظه أن الرجل كان ضيق ذات اليد ، وكانت نفسه كريمة عليه ، فرأى أن ترك الملاذ يوفر عليه ماء وجهه ، ويعفيه من احسان المحسنين ولا شك أن ذلك شعور كريم — وسلوك عال رفيع .

غير أننا نقف عند ربطه بيته الثانى بالأول (غدوت مريض العقل والدين) . (فلا تأكلن) فكأنه جعل صحة العقل والدين منوطة بترك هذه الطيبات ، وان كان هو اعتبر ذلك مبالغة منه فى التدين والاجتهاد فيه .

كما نقف طويلا عند بيته (متى ما كشفتم عن حقائق دينكم) . ونعجب كيف فات داعى الدعاة أن يعاسره الحساب على هذا البيت ، فان البيت يشعر

ـ بعامة ـ أن فى حقائق الدين مخزيات ويشعر ـ بخاصة ـ أن أكل هذه الطيبات بعض هذه المخزيات ـ فان كان البيت فى هذه القصيدة فهو ـ ولا شك ـ كفر صراح وان لم يكن منها ، وزاده بعض تلامذة أبى العلاء ـ كما كانوا يفعلون ـ كان كل ما فى القصيدة موضع اجتهاد من الرجل ، وظن منه أن ذلك يقربه الى الله .

ولا حجة لخصومه فى قولهم انه لا يكون بهذه الحيوانات أرأف من خالقها ، فان المسألة ليست مسألة مقارنة بين الخالق والمخلوق ، وانما المسألة مسألة رجل خلق هكذا رقيق القلب ، فان كان يعاب بشىء فى هذا فهو دعوته الى ترك الطيبات ، والحاحه فى هذه الدعوة استجابة لعاطفته الرقيقة التى تشير اليها كلمته وهو يخاطب (الفروج) استضعفوك فوصفوك ، هلا وصفوا شبل الأسد ثم ادعاؤه أن كل ذلك ظلم .

وقد أسلفنا بما لا يدع مجالا لقائل أن أكل الطيبات مما يدعو اليه الدين ، وأن الذى يعاب انما هو الاسراف والاعتداء .

وأنا لست مع القائلين بأن من يمتنع عن الطيبات آثم الا اذا كان ذلك بسبب شح ، أو اعتراض عليه ، فالأمر ليس للوجوب ـ كما قال بذلك جماعة من العلماء ـ وانما هو للاباحة .

فاذا كان الرجل يطعم القليل ، ويتصدق بالكثير فلا يمكن أن نحمله ذنبا ، لأنه لم يعط نفسه ما تشتهى ، واذا كان الرجل لا يجد ، فلا ينبغى أن تطلب اليه أن يقبل رفد الرافدين لينعم بملاذ الطعام ، وجميل الثياب .

وما دامت العقيدة سليمة فى أن أكل الطيبات حلال ، لا ظل للحرمة فيها ، ما دامت النفس سخية بما فى يدها ، فليس من الذنب أن يتقلل الانسان من الطعام واللباس ، غير أن اتخاذ ذلك ديدنا وعادة فيه مبالغة واسراف .. وامتناع عما أحله الله ، فليأخذ المؤمن وليترك ، وليكون وسطا فان خير الأمور أوساطها .

١٦ ـ واحضرت الأنفس الشح :

وطبيعى أن أولئك الذين تزهدوا فى المأكل والمشرب سواء أكانوا على طريقة العباد ، أم على طريقة أبى العلاء ، ومن سلك مسلكه لم يكن الدافع

لهم على هذا الصنيع شحا فى نفوسهم ، أو بخلا فى أيديهم ، وانما كانوا يعتقدون أن حرمان النفس من شهواتها وسيلة لاقامتها على الطريق ، واتتصابها على الجادة .

وقد يكون لهم فى هدى الرسول صلى الله عليه وسلم ما يبرر لهم سلوكهم ، فقد جاء فى الحديث النبوى الشريف : (يا معشر الشباب . من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فانه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فانه له وجاء) .

كما كان لهم فى واقع الحياة مستند وبرهان ، فان اجابة النفس الى كل ما تطلب من شهوات المطعم والمشرب يجعلها جريئة على المعصية ، قادرة عليها ، وحرمانها يباعد بينها وبين المعصية اذا كان فيها قدر صالح من الايمان

أما الذين يحرمون أنفسهم بخلا ، ويحرمون ذوى الحقوق حقوقهم تقتيرا وشحا فللقرآن معهم حديث آخر ، وأى حديث

والشح ليس غريبا فى طبائعنا ... بل الغريب — وان لم يرحم — الجود

هكذا يقول فيلسوف الشعراء أبو العلاء . فالشح طبيعة نفسية مكتسبة ، أدرك ذلك المتقدمون بفطرهم السليمة ، وأدركه المتأخرون بدراساتهم المستفيضة فى النفس الانسانية فهو عند علماء النفس منبثق عن غريزة حب الذات ، وغريزة تنازع البقاء .

فالانسان يولد لطيفا ، ولكن البيئة تغرس فى طبيعته الحرص ، وفى نفسه حب الاستئثار حتى لقد توهم الشاعر أن ذلك جبلة فى خليقة الانسان، فقال :

وفى قبض كف الطفل عند ولادة ... دليل على الحرص المركب فى الحى
وفى بسطها عند الممات اشارة ... ألا فانظرونى قد خرجت بلا شىء

وقد أكد القرآن الكريم هذا الذى أدركه الناس بتجاربهم البدائية ، وبعلمهم المتعمق المستوعب ، فصرحت بعض الآيات بأن الشح ملازم للانسان

لا يفارقه،وأشارت بعضها الى أنه خليقة فى النفس يصدر عنها المنع والامساك والبخـــل .

قال الله تعالى فى سورة النساء : « وان امرأة خافت من بعلها نشوزا أو اعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صـــلحا والصلح خـــير وأحضرت الأنفس الشح وان تحسنوا وتتقوا فان الله كان بما تعملون خبيرا » .

روى البخارى عن عائشة رضى الله عنها « وان امرأة خافت من بعلهـــا نشوزا أو اعراضا » قالت : الرجل تكون عنده المرأة ليس بمستكثر منها ، يريد أن يفارقها ، فتقول : أجعلك من شأنى فى حل ، فنزلت هذه الآية .

وهناك أسباب أخرى للنزول ذكرها العلماء ، وأيا ما كان سبب النزول فالآية تدل على أن للرجل أن يبذل من ماله حتى ترضى المرأة ، وتتنازل عن بعض حقوقها الزوجية ، وللمرأة أن تبذل من مالها حتى يمسكها الرجل ان كان يريد فراقها .

وقد عقبت الآية على هذا بأن الصـــلح الذى تسكن اليه النفـــوس ، ويزول به الخلاف خير على الاطلاق ، ويدخل فيه جميع ما يقع عليه الصلح بين الرجل وامرأته ، وهو خير من الفرقة فان التمادى على الخلاف والشحناء والمباغضة هى أصول الشر .

ولكن يقف دون هذا الخير عقبات ، منها ، بل أهمها ما درجت عليـــه النفوس من حب الامساك ولذلك صرحت الآية بما يفيد أن الانسان لابد أن يشح حتى يحمل صاحبه على بعض ما يكره .

والشح فى هذه الآية ـــ على ما ذهب اليه المفسرون ـــ ليس خاصـــا بالمال ، وانما يشمل شح المرأة بنصيبها من زوجها ، وشح الرجل بنصـــيبه من زوجته الشابة ، اذا تزوجها على امرأة ذات كبر .

وهذا التعبير القرآنى (وأحضرت الأنفس الشح) ومعناه أنها جعلت حاضرة عنده أو جعل حاضرا عندها كأنها مطبوعة عليه ، لا تنفك عنه ، هذا التعبير فريد فى القرآن الكريم ، فانه لم يتكرر فيه ، بل انى ـــ على ما أذكر ـــ لم أره فى بيان آخر .

ولما كان الشح بهذه المنزلة من النفس الانسانية حاطته الآية بنبأين عظيمين يرغبان عنه ، ويزهدان فيه ، فقبل هذه الكلمة قوله تعالى : (والصلح خير) والخير هو الشيء الوحيد الذى يرغب فيه الانسان ، ويسعى جاهدا لتحصيله ، واذا كان الخير فى الصلح ، أو اذا كان الصلح هو الخير وكان السبيل الى تحصيل هذا الخير هو التخلى عن الشح كان الأمر لا محالة ـ أمر تنفير من هذا الشح ، ثم جاء بعد هذا الخبر قوله تعالى : (وان تحسنوا وتتقوا فان الله كان بما تعملون خبيرا) .

ومن الاحسان بذل المال فى سبيل الصلح ، ومن التقوى ترك الاضرار بالعشير ، وقد وعد الله على الاحسان والتقوى الثواب العظيم ، والأجر الجزيل ، يفهم ذلك من أن الله خبير بأعمالنا ، وهو ـ سبحانه ـ لايضيع أجر من أحسن عملا .

واذا كانت هذه الآية الكريمة قد صورت هذه الخليقة فى النفس تصويرا لطيفا ، حيث جعلت الشح ملازما للنفس ، تحضر اليه أو يحضر اليها (١) ، فان آية الاسراء أوضح فى وصف الانسان بالشح ، وأصرح فى الحكم عليه بأنه شحيح ممسك « قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى اذا لأمسكتم خشية الانفاق وكان الانسان قتورا » .

رحمة الله رزقه ، وسائر نعمه على خلقه ، والقتور المبالغ فى البخل .
ففى هذه الآية دلالات على أن الشح متمكن من النفس الانسانية .

الأولى : أن الله وصف بنى الانسان بأنهم لو ملكوا خزائن الله التى لا نهاية لها لبخلوا ، وقصروا فى الحقوق ، ومنعوا ذوى الحاجات من رفدهم ، قال الزمخشري : (ولقد بلغ هذا الوصف بالشح الغاية التى لايبلغها الوهم).

ولما كانت المشاهدات والوقائع تؤكد أن كثيرين من بنى الانسان يجودون بل ويبالغ بعضهم فى الجود ورد على الآية سؤال بديهى : كيف

---

(١) بعض المفسرين كالزمخشرى والخازن جعل الشح حاضرا للانفس ، وبعضهم كأبى السعود جعل الأنفس حاضرة للشح .

يصف القرآن الناس ــ بعامة ــ بهذا الوصف مع أنه قد يوجد فى جنس بنى الانسان من هو جواد كريم ؟.

وقد أجاب بعض المفسرين بأن المخاطبين بذلك هم أهل مكة ، ويرده ما جاء فى آخر الآية من وصف الانسان ــ وأل فيه للجنس ــ بأنه مبالغ فى البخل ، كما يرده أنه كان من أهل مكة الذين خوطبوا بالقرآن من هو جواد كريم ، بل من هو بالغ الغاية فى الكرم .

وأجاب آخرون بأن الأصل فى الانسان البخل ، لأنه خلق محتاجا ، والمحتاج لابد أن يحسب مايدفع به عنه ضرر الحاجة ، ويمسكه لنفسه ، الا أنه قد يجود لأسباب خارجة ، مثل أن يحب المديح ، أو يرجو الثواب من الله أو من الناس .

الثانى : قوله تعالى : (خشية الانفاق) وقد ذهب المفسرون الى أن المراد . خشية النفاد الذى سببه الانفاق ، أو أن الانفاق معناه الافتقار ، يقال : أنفق فلان اذا افتقر ، كما قال الراغب الأصبهانى .

ويبدو لى ــ والله أعلم بمراده ــ أن الانفاق ورد هنا بمعناه المشهور ، وهو بذل المال ، وأن خشية مفعول لأجله ، ويكون المعنى ــ حينئذ ــ أنهم يبخلون لاخوفا من نفاد ما عندهم ، وانما يمسكون خشية أن ينفقوا ، كأن الانفاق نفسه شيء مخوف عندهم ، فالمعروف أن البخيل يمسك المال خشية الفقر ، ولكن المعنى هنا على أن البخيل لايبذل المال لأن هذا البذل نفسه مكروه لديه بصرف النظر عما يترتب عليه ، وقد يساعد على هذا المعنى أن الذى يملك خزائن الله التى لاتتناهى لايخشى النفاد ، ولكن نفسيته التى تمكن الشح منها تخيفه من كل شيء يبعد عنه هذا الشيء المحبوب لديه ، وهو الشح ، وفى ذلك ما فيه من المبالغة فى وصف بنى الجنس بالبخل .

الثالث : قوله تعالى : (وكان الانسان قتورا) وليس أوضح من ذلك فى وصف الانسان بالشح بل بالشح المبالغ فيه .

والمشهور فى هذا الفعل مضعفه (قتر) وهو يدل على معنى أشد من البخل ، فالقتر والتقتير معناهما ــ فى الأصل ــ الريقة من العيش ، وهى

القليل الذى يمسك الرمق ، وهو ــ كذلك ــ التضييق فى النفقة ، ولعل فى البخل سعة عنه ، فاذا وصف الانسان به ، ووصف بصيغة المبالغة منه كان ذلك نهاية فى وصفه بالشح .

ومن الآيات ماجاء فيها وصف الانسان بالشح وأنه غالب عليه عن طريق التلميح والاشارة ، من ذلك قوله تعالى فى سورة محمد : «انما الحياة الدنيا لعب ولهو وان تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسئلكم أموالكم . ان يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم . ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء ، وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم » .

واذا كانت آية الاسراء أكدت ــ بصورة حاسمة ــ أن الانسان منقاد للشح ، فان هذه الآيات ــ مع اشارتها الى هذا المعنى ــ نفرت من البخل أبلغ التنفير ، وهى ــ مع وجازتها ــ تعتبر أوسع حديث عن البخل فى القرآن الكريم .

وقد جاءت هذه الآيات فى آخر سورة القتال لتؤكد أن النصر كما يكون ببذل الروح يكون ببذل المال ، وأنه لا فرق بين من يضن بدمه فى سبيل الله ، ومن يضن بماله ، وأن الناس اذا لم يطيعوا الله ورسوله ، وينفقوا من أموالهم فقدوا المعنى الذى كانوا به ناسا ، يعمرون هذه الأرض ويقيمون دين الله ، وكان حقا على الله أن يستبدل بهم غيرهم يكونون أطوع لله ورسوله ، وأجود بأموالهم .

والآيات مبتدأة ببيان حقيقة الدنيا ، فهى لعب ولهو ، تمضى سريعة ، ولا يبقى منها فى يد الانسان شىء ، ومختومة بالتوعد من الله تعالى بأنه قادر على أن يأتى بقوم آخرين ، لا يفعلون كما يفعل هؤلاء الذين يبخلون ، ويعصون أوامر الله .

وقد أبانت عن أثر هذه الخليقة فى النفس الانسانية ، فهى اذا أهيجت دمرت ، فالله يدعو الناس بل يدعو المؤمنين المتقين ، الى بذل شىء يسير من

أموالهم ، لأنه سبحانه يعلم أنه لو طلب منهم أن يبذلوها كلها لبخلوا ، وظهرت أحقادهم ، ولو كان البخل غير متمكن من الانسان ما وقف هذا الموقف من هذه الدعوة الكريمة لأنها طلبت اليه أن يقدم جميع ماله فى سبيل الله : « وان تؤمنوا وتتقوا .. لايسئلكم أموالكم » أى لايشق عليكم بطلب الأموال كلها ، لأنه ان سألكم اياها كلها ، وأجهدكم بخلتم مع الايمان والتقوى . ثم ساق القرآن البرهان على ذلك وهو أن بعض هؤلاء بخل حين دعى للانفاق فى سبيل الله ، مع أنه لم يطلب منهم الا القليل .

أما مايدل فى هذه الآيات على أن الشح غالب على الانسان :

فأولا : قوله تعالى : (ويخرج أضغانكم) ، فسواء عاد الضمير فى (يخرج) على الله تعالى ، أو على البخل أو على سؤالهم أموالهم مع الاحفاء فى السؤال فالمعنى أن طلب المال كله مدعاة الى اخراج الأحقاد من النفوس ، ولن يكون الأمر كذلك حتى يكون هذا الطلب مراغما السجية راسخة فى النفس .

ثانيا : قوله تعالى : (ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه) وأكثر المفسرين على أن (عن) هنا حلت محل على ، على معنى أن من يبخل فضرره عائد على نفسه ، وقليل منهم من تنبه الى دقيقة من دقائق القرآن الكريم فأقروا (عن) على معناها ، والمراد — كما فهم هذا القليل — أن من يبخل فانما بخله عن داعى نفسه ، لا عن داعى ربه ، ومعلوم أن النفس أمارة بالسوء ، وأن كل ما يفعله الانسان من الشرور ليس عن (داعى ربه) فلماذا خص البخل بهذا؟ لعل السر فى ذلك هو الاشارة الى أن الشح راسخ فى النفس فيصدر عنه البخل ، ومن هنا نلمح التفرقة بين الشح والبخل ، فالبخل المنع ، والشح هو المعنى النفسى الذى يصدر عنه المنع ، وهذا على ما رآه بعض أصحاب الدقائق .

وأما التنفير من البخل فى هذه الآية فيبدو من :

أولا : تصدير الآيات بوصف الدنيا بأنها لهو ولعب ، وهذا يتضمن أن الآخرة هى الجد كل الجد ، وهى خير وأبقى ، فحين يدعى الانسان الى الانفاق عليه أن يدرك هاتين الحقيقتين ، فلا يبخل .

ثانيا : النص هنا على أن ضرر البخل عائد على النفس ــ على التفسير المشهور ــ أو صادر عن داعى النفس ، ففى هــذا الصنيع تقبيح للبخل ، وحط منــه .

ثالثا : قوله تعالى : (والله الغنى) فكأن هذا توبيخ ، ولوم شديد على البخل ، فالله حين يدعو النــاس الى الانفــاق لايدعوهم لأنه فى حاجة الى أموالهم ، فانه الغنى ، ولا غنى غيره .

رابعا : هذا التهديد الشديد فى ختام الآيات ، (وان تتولوا يستبدل قوما غيركم) .

ومما يؤكد أن الشح طبيعــة نفسية وان كانت مكتسبة أن القرآن فى موضعين منه أضاف الشح الى النفس . جاء فى سورة الحشر قوله تعالى فى وصف الأنصار : « والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولايجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

وجاءت فى سورة التغابن فى خطاب المؤمنين : « فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

أما الآية الأولى فنزلت حين ظهر من الأنصار ايثــار عظيم لاخوانهم المهاجرين : فعن ابن عباس رضى الله عنه قال : لما فتح الله على المسلمين يوم النضير قال النبى صلى الله عليه وسلم للأنصار : ان شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم ، وتشاركونهم فى هذه الغنيمة ، وان شئتم كانت لكم أموالكم ، ودياركم ، ولم نقسم لكم شيئا من الغنيمة فقالت الأنصار : بل نقسم لهم من أموالنا ، وديارنا ، ونؤثرهم بالغنيمة ، ولا نشــاركهم فيها ، فأنزل الله عز وجل : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

والايثــار درجة عظيمة من درجات الســمو النفسى ، وهو من عمل الارادة الخارقة ، لأن الشح ــ كما قلنا ، وكما هو معروف ــ هو الخليقة

الغالبة على النفس البشرية ، ولكن العقل الذى ميز الله به الانسان عن جميع الكائنات لايترك هذه الخليقة تسيطر سيطرة كاملة على الانسان ـ لأنه ـ حينئذ ـ يكون خاضعا لطبائعه ، ومستكينا لشهواته ـ وانما يهذب هذه الطبائع ويحد من سلطانها ، ويرسم للانسان طرقا تعينه على أن يحرز الفضيلة ، ويسمو بنفسه .

ولا ينقله فجأة من طبيعته الى أعلى درجة فى السمو ، فانه حينئذ ـ يحطمه ويحبس طبيعته داخل المرجل ، فلا يلبث أن ينفجر من قوة الضغط لاينقله فجأة ، ولكنه يتدرج به . ففى هذه الطبيعة ـ مثلا ـ لايتنكر لها ، وانما يساير الانسان فيوافقه على ما للمال من قيمة ، وما للاقتصاد من فوائد ، ثم يحببه فى شىء من البذل ، لينال ثواب الخالق أو ثناء المخلوقين ، ثم يرتفع به درجة فيزين له أن البذل فى ذاته أمر محبوب ، وأخيرا ينتهى به الى أن الايثار أجمل ما عرفه الناس من صور البذل ، وهكذا يظل يزين له هذا الخلق حتى يصبح طبيعة أخرى مكتسبة ان لم تقض على الطبيعة الأولى التى اكتسبها من عوامل الشر التى تحيط به ، فانها تضائل من سلطانها على النفس .

وهذا الذى شرحته من عمل العقل بين طبيعة الشح فى الانسان ، وبين طبيعة الايثار هو منهج القرآن ذاته فهو يذم الشح ، ولكنه يطلب من الانسان ألا ينسى نصيبه من الدنيا ، ويصف المال بأنه زينة .. وهكذا ، ثم تنزل الآيات الكثيرة التى ترغب فى الانفاق ، وتحبب فى البذل ، ثم تشيد بالايثار وبالمؤثرين .

وهكذا فهم أتباع محمد أن الايثار هو أقوى الأدلة على حرص المؤمن على ما عند الله ، وعلى زهده فى الدنيا .

روى بعض العلماء قال : قال شاب من أهل بلخ : ما الزهد عندكم ؟ قلت : اذا وجدنا أكلنا ، واذا فقدنا صبرنا ، فقال : هكذا عندنا كلاب بلخ ، بل الزهد اذا فقدنا صبرنا ، واذا وجدنا آثرنا .

وأما الآية الثانية فقد جاء فيها هذا الخبر : (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) بين وصية وترغيب . أما الوصية فهى قول الله تعالى : (انما

أموالكم وأولادكم فتنة) أى بلاء واختبار ، وشغل عن الآخرة ، وقد تحمل هذه الفتنة الانسان على ارتكاب كثير من الأخطاء والخطايا ، فالمال ــ كما يقول شوقى ــ يوقد الحرب ذات لهب ، منه الرياح ومنه الحطب ، وكثير من الناس يتماسكون ، ويتغلبون على شهواتهم ، حتى اذا فتنوا بالمال انما عوا ، وخارت عزائمهم ، وها قول أبى العلاء :

سبح وصل وطف بمكة خاشعا سبعين لا سبعا فلست بناسك
جهل الديانة من اذا عرضت له أطماعه لم يلف بالمتماسك

هذه هى الوصية ، أما الترغيب ففى قوله تعالى : (ان تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ، ويغفر لكم ، والله شكور حليم) . وليس ألطف فى الدعوة الى البذل من هذا التعبير (ان تقرضوا الله) . وهذا الأسلوب هو الأسلوب الحكيم الذى يمكن أن يؤثر فى النفوس ، وأن يخفف من شحها ، وبخلها ، وهذه الدقة فى سياسة النفوس وتوجيهها الى الخير لانراها فى غير القرآن ، فاذا كان الشح خليقة متمكنة فليس من السهل القضاء عليه بمصادمته ، ولكن يمكن التخفيف من حدته بتوجيه النفوس أولا الى مايجره المال من المآسى والكوارث ، ثم أمرها بتقوى الله ما استطاعت ، وبالسمع والطاعة ، والانفاق ، ثم تدليل النفوس ، وملاينتها ، والتلطف معها فى الحديث ، واشعارها بأن هذا الانفاق هو قرض الله ، وانما سماه قرضا تأكيدا لاستحقاق الثواب به ، اذ لايكون قرضا الا والعوض مستحق به .

ولا أعتقد أن مؤمنا صحيح الايمان يسمع هذا الخطاب ، ويقف على عمق هذا الأسلوب ودماثته ، ثم يستكين لسلطان الشح ، ومن هنا قال النبى صلى الله عليه وسلم : (لايجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى جوف عبد أبدا ، ولا يجتمع الشح والايمان فى قلب عبد أبدا) . وقد سئل النبى صلى الله عليه وسلم : أيكون المؤمن بخيلا ؟ قال : لا .

والشح يحط من قدر الرجال حتى ليندر أن نجد سيدا فى قومه ، وهو شحيح بماله ولذلك جاء فى وصايا حكماء العرب لأولادهم أمرهم بالبذل ، اذا أرادوا أن يسودوا قومهم .

ومن ذلك ماجاء فى وصية ذى الاصبع العدوانى لابنه (أسيد) : (ألن جانبك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وابسط لهم وجهك يطيعوك، ولا تستأثر عليهم بشيء يسودوك) فقد قرن السيادة بمشاركة القوم فيما يملك من مال .

وقد سأل النبى صلى الله عليه وسلم بعض الأنصار فقال : من سيدكم قالوا : الجد بن قيس على بخل فيه ، فقال رسول الله : وأى داء أدوأ من البخل ؟ .

فكأنه صلى الله عليه وسلم أنكر أن يكون هذا سيدهم ، لأن فيه شيئا من البخل . ومن الطرائف أن الامام أبا حنيفة ــ رضى الله عنه ــ كان لايرى قبول شهادة البخيل ، ويقول : بخله يحمله على أن يأخذ فوق حقه مخافة أن يغبن ، فمن هذه حاله لايكون مأمونا .

وللبخيل عقاب فى الدنيا وعقاب فى الآخرة :

أما عقابه فى الدنيا ــ كما تحدث القرآن ــ فيكون ماديا ، ويكون معنويا :

فالعقاب المادى بأن يمحق الله البركة من ماله ، ويسلط عليه الكوارث التى تجتاح ماله ، أو تكون سببا فى اهلاك هذا المال كأن يسلط عليه مرضا يأخذ الكثير من ماله ، أو يسلط عليه أبناءه وأعداءه أو تنتابه الأحداث ... وهكذا .

والحديث النبوى صريح فى هذا ففى الصحيحين (ما من يوم يصبح فيه العباد الا وملكان ينزلان ، يقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا) وفى القرآن مصداقه وهو قوله تعالى : (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين) .

والبخل يورث العداوة بين الناس ، ويحملهم على أن يرتكبوا محارم الله فعن جابر بن عبدالله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح ، فانه أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم) .

١٧ ـ قصة اصحاب الجنة .

وقد ضرب القرآن مثلا عمليا ، فأخبرنا بما حدث لبعض الأغنياء الذين تمكن الشح من نفوسهم ، فاعتزموا أن يحرموا المساكين من ثمار جنتهم ، فأحرقها الله تعالى ، جزاء لهم على بخلهم ، وسماه عذابا أنزل مثله بأهل مكة ، وأصابهم الجدب والقحط بعد أن جحدوا نعمة الله عليهم ، ولعذاب الآخرة أكبر .

روى أنه كان لرجل من أهل الصلاة بستان كثير الأشجار والثمار ، فكان يأخذ منه قوت سنة ، ويتصدق بالباقى ، وكان يترك للمساكين ما أخطأه المنجل ، وما أخطأه القطاف من العنب ، وما بقى على البساط الذى يبسط تحت النخلة اذا قطعت ، فلما مات الرجل قال بنوه : نحن أولو عيال ، ولو فعلنا ما كان يفعل أبونا لم يكف عيالنا ، فذكر الله تعالى قصتهم فى سورة (ن) وذلك حين ابتلى أهل مكة بالسنين بعد ما أغدق عليهم النعم حين دعا عليهم الرسول عليه السلام فقال : (اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف) فشبه ابتلاء أهل مكة بابتلاء أصحاب الجنة .

وقد أقسم هؤلاء أن يقطعوا ثمار جنتهم مبكرين ، حين يبدأ الصبح فى الظهور ففى ذلك الوقت يكونون فى مأمن من أن يدخل عليهم مسكين ، ولم يجعلوا للمساكين شيئا من ثمار بستانهم فأنزل الله عليها ما أهلكها ، وجعلها سوداء كالليل المظلم .

وقد وصف القرآن حالهم حين هموا بهذا العمل الدنىء ، فقد نادى بعضهم بعضا أن اغدوا على جنتكم مبكرين ان كنتم تريدون قطعها فعلا ، فذهبوا يسترقون الخطا خائفين أن يراهم ، أو يحس بهم أحد ، وهم يعتزمون ـ مع قدرتهم ـ أن يتنكدوا على المساكين ، ويحرموهم ، وقد طلبوا حرمان المساكين فتعجلوا الحرمان ، والمسكنة ، وهذا معنى قوله تعالى : (وغدوا على حرد قادرين) وقيل ان ذكر القدرة هنا على عكس الكلام للتهكم ، فلما وصلوا الى مكان جنتهم ، ورأوا ما حل بها خيل اليهم أنهم ضلوا الطريق ، وأنها ليست هى ، ولكنهم حين تأملوا وتروا عرفوا أنها جنتهم ، وأن الله حرمهم خيرها لما اعتزموه من سوء ، وعندئذ أعاد عليهم أوسطهم ما كان خوفهم منه ، فقد

قال لهم حين اعتزموا حرمان المساكين : اذكروا الله ، وانتقامه من المجرمين، وتوبوا عن هذه العزيمة الخبيثة فعصوه ، فعيرهم ، ووبخهم ، وندمهم على مضيهم الى نهاية الطريق بتلك النية السيئة ، وأدركوا أنهم أخطأوا ، وتعدوا، فأخذ بعضهم يلوم بعضا ، واعترفوا بأنهم كانوا طاغين ، وتمنوا أن يبدلهم الله خيرا من جنتهم ، فقد تابوا ، ورغبوا الى الله :

« انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة اذ أقسموا ليصرمنها مصبحين . ولا يستثنون . فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم . فتنادوا مصبحين . أن اغدوا على حرثكم ان كنتم صارمين . فانطلقوا وهم يتخافتون . أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين . وغدوا على حرد قادرين . فلما رأوها قالوا انا لضالون . بل نحن محرومون . قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون . قالوا سبحان ربنا انا كنا ظالمين . فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون . قالوا يا ويلنا انا كنا طاغين . عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها انا الى ربنا راغبون . كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كنوا يعلمون » .

وهكذا يخبرنا القرآن أن الله جازى هؤلاء البخلاء على بخلهم باهلاك جنتهم وفى هذه القصة عبرة ، وأى عبرة لكل من يحكم الشح على يديه الأقفال .

١٨ـ وعد الله ، وتخويف الشيطان .

وفى القرآن آية من تأملها عرف مأتى الجود ، ومأتى الشح ، وعرف نتيجة كل فى الدنيا والآخرة .

فالله يعد المؤمنين به ـ اذا أنفقوا من أموالهم ـ المغفرة ، والفضل ، والستر ، والسعة فى الدنيا والآخرة ، والله لا يخلف وعده ، فمن الحتم ـ تحقيقا لوعد الله ـ أن يغفر الله للكرماء ، وأن يوسع عليهم فى أرزاقهم .

والشيطان يخوف أولياءه من الفقر ـ اذا أنفقوا ـ ويأمرهم بالبخل ، وهو فاحشة ، وأى فاحشة ، وتخويف الشيطان باطل ، فالبذل لن يفقر ، وانما هى وسوسة الشيطان :

« الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم » .

وفى التعبير بالوعد مع أن الشيطان لم يضف مجىء الفقر الى جهته ايذان بمبالغته فى الاخبار بتحقق مجيئه كأنه نزله فى تقرر الوقوع منزلة أفعاله الواقعة بحسب ارادته .

وفى تقديم الوعد على الأمر بالفحشاء تمهيد لهذا الأمر ، وذلك أن البخل أمر شنيع حتى كانت العرب تعبر عنه بالفحشاء ، كما جاء فى قول طرفة بن العبد :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد

فلو أن الشيطان جاء بادىء ذي بدء ، ووسوس لأى انسان آمرا بالبخل لم يجد أذنا صاغية ، ولكنه يخوفه أولا من الفقر ، ويخيل اليه أن هذا الأمر الكريه نتيجة حتمية للبذل ، وبذلك يهيئه لقبول أمره .

والعقاب المعنوى يتمثل فى تعثر خطا البخيل فى كل ما يحاوله من أمر، فهو مهيأ لأسوأ الطرق ، وميسر لأعسر الأمور ، فلا يحاول أمرا حتى يجد فيه مكروها ، وان خيل لكثير من الناس أن أموره سهلة ميسرة ، ومصداق ذلك قول الله تعالى فى سورة الليل : « فأما من أعطى واتقى، وصدق بالحسنى . فنسيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسر ى. وما يغنى عنه ماله اذا تردى » .

أما عقابه فى الآخرة فيكفى فيه قوله تعالى فى قصة أصحاب الجنة : (كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) .

وقد أوضحت آية (آل عمران) نوعا من العذاب الذى سيلقاه البخلاء: « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير » .

ذهب أكثر المفسرين الى أن الآية نزلت فى البخل بالمال ، والانفاق فى سبيل الله ، وأداء الزكاة المفروضة ، وذهب آخرون الى أن المراد هنا البخل

بما يجب بذله مما يتفضل الله به على عباده وهؤلاء يرون أن فى العموم من التأثير فى النفس ماليس للتخصيص .

وأما التطويق المراد — هنا على ما ذهب اليه أكثر المفسرين — فهو من الطوق ، أى سيجعل ما بخلوا به طوقا فى أعناقهم ، ويفسره ما رواه البخارى من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم : (من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع (١) له زبيبتان (٢) يطوقه يوم القيامه ، ثم يأخذ بلهزمتيه (٣) ، ثم يقول : أنا كنزك ، ثم تلا هذه الآية) .

وروى مثل هذا عن ابن مسعود .

وجاء عنه صلى الله عليه وسلم : (ما من ذى رحم يأتى ذا رحمه فيسأله من فضل ما عنده فيبخل به عليه الا أخرج له يوم القيامه شجاع من النار يتلمظ (٤) حتى يطوقه) .

وفى صحيح مسلم : عن أبى ذر قال : انتهيت الى النبى صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى ظل الكعبة ، فلما رآنى قال : هم الأخسرون — ورب الكعبة — قال : فجئت حتى جلست ، فلم أتقار أن قمت ، فقلت : يارسول الله ، فداك أبى وأمى . من هم ؟

قال هم الأكثرون أموالا ، الا من قال هكذا ، وهكذا ، من بين يديه ، ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله ، وقليل ما هم .

ما من صاحب ابل ، ولا بقر ، ولا غنم ، لا يؤدى زكاتها ، الا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه ، تنطحه بقرونها ، وتطؤه بأظلافها ، كلما نفدت أخراها عادت عليه أولاها ، حتى يقضى بين الناس .

---

(١) الشجاع (بالضم) : الحية الذكر ، والأقرع :هو الذى تمرط جلد رأسه لكثرة سمه ، وطول عمره .

(٢) الزبيبتان : النكتتان السوداوان فوق عينيه ، وهذا النوع أخبث مايكون من الحيات .

(٣) اللهزمتان : الشدقان .

(٤) تلمظت الحية : أخرجت لسانها كتلمظ الآكل .

وفى هذه الآية من ذم البخل ، والدعوة الى الانفاق مافيها، فقد نفت — أولا — كون البخل خيرا ، وأثبتت — ثانيا — كونه شرا ، وذلك أن البخيل يخيل اليه أن فى احراز المال ، ومنع الحقوق منافع له ، لما يعلم من فوائد المال العظيمة .

والعموم الذى فى الآية يفيد أن البخل قد يكون بالمال ، وقد يكون بالعلم ، وقد يكون بالحياة ، وبعامة يكون بكل ما أعطى الانسان من فضل الله ، وكما قلت فى هذا العموم من التأثير فى النفس ، والنفاذ الى القلب ماليس فى التخصيص ، وبهذه الدقائق ونحوها تهيأ للقرآن الكريم أن يجذب اليه الأرواح وأن يستميل نحوه القلوب ، وأن ينفذ بتعاليمه الى صميم النفس الانسانية ، فلم يكن هناك حائل دون امتثال أوامره واجتناب نواهيه الا فساد الفطرة بما يعتورها من تعاليم فاسدة ، أو تقاليد ضارة ، أو وجودها فى بيئة تبعث فيها الشر ، وتباعد بينها وبين الخير .

وفى بعض كتب التفسير عند الكلام فى الآية السابقة ما نصه : « وان مثل هذه العبارة المطلقة التى تخطر فى البال بذل كل ما فى اليد — وتكاد توجبه لولا الدلائل الأخرى — تحدث فى النفس أريحية للبذل ، تدفعها الى بذل الواجب ، وزيادة عليه » (١) .

وقوله تعالى : (ولله ميراث السموات والأرض) — ومعناه أنه — سبحانه — الباقى الدائم بعد فناء خلقه ، وزوال أملاكهم — هذا القول يهيب بالبخلاء ألا يبخلوا ، لأن كنز المال يكون له ما يبرره لو أنه دائم فى يد صاحبه ، أما والحقيقة أن صاحبه مفارقه ، وأنه راجع الى الله فلا معنى للبخل به .

وكذلك قوله : « والله بما تعملون خبير » فيه وعيد شديد للبخلاء ، وذلك أنه يؤكد أن الله مطلع على كل أعمالهم ، صغيرها ، وكبيرها ، ونتيجة هذه الخبرة هى المجازاة على كل عمل ، فليحذر الذين يبخلون بأموالهم عقاب الله .

---

(١) تفسير المنار للسيد رشيد رضا حـ ٤ ص ٢٥٩ الطبعة الاولى .

١٩ ـ لون آخر من عذاب البخلاء ٠

ذلك هو الوارد فى قوله تعالى فى سورة التوبة : « يأيها الذين آمنوا ان كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بهـا جباههم وجنـوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

والعذاب الأليم المذكور فى نهاية الآية الأولى مفسر بالآية الثانية، وبقول النبى صلى الله عليه وسلم : «ما من صاحب ذهب ولافضة لا يؤدى منها حقها الا اذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار ، فأحمى عليها فى نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره ، كلما بردت أعيدت له ، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين العباد ، فيرى سبيله ، اما الى الجنة ، واما الى النار » . رواه مسلم .

وظاهر من هذا الحديث أن الكى بهذه الصفة يكون قبـل الفصل فى شأن الخلائق ، فمعنى (يحمى عليها فى نار جهنم) أى يوقد على هذه الصفائح فى نار جهنم ، والكانزون ليسوا فى جهنم ، فهذا العذاب فى المحشر ، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم : « فى يوم كان مقـداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد » . وهو تعجيل عذاب هؤلاء مما يدل على شـناعة الجرم الذى ارتكبوه .

ويؤيد ذلك ما روى أيضا عن النبى صلى الله عليه وسلم : (ما من رجل يموت ، وعنده أحمر أوأبيض الا جعل الله له بكل قيراط صفيحة يكوى بها من فرقه (١) الى قدمه مغفورا له بعد ذلك أو معذبا) .

وقد ذهب المفسرون مذاهب فى تعليل الكى على هذه الأعضاء بالذات ، وتخصيصها من أعضاء الجسم ، فقال قائلون : ان الكى فى الوجه أشـهر وأشنع ، وفى الجنب والظهر آلم وأوجع .

---

(١) الفرق : الطريق فى شعر الرأس ٠

وقال آخرون : لأنهم لم يطلبوا بأموالهم حيث لم ينفقوها فى سبيل الله الا الأغراض الدنيوية ، من وجاهة عند الناس ، وتقدم ، وأن يكون ماء وجوههم مصونا عندهم ، يتلقون بالجميل ويحيون بالاكرام ، ويبجلون ، ويحتشمون ، ومن أكل الطيبات يتضلعون ، وينفخون جنوبهم ، ويلبسون الناعم ، يطرحونه على ظهورهم .

وقال فريق ثالث : ليكون الكى على الجهات الأربع : مقاديمهم ، ومآخيرهم ، وجنوبهم . وقال علماء الصوفية : لما طلبوا المال والجاه شان الله وجوههم ، ولما طووا كشحا (١) عن الفقير اذا جالسهم كويت جنوبهم ، ولما أسندوا ظهورهم الى أموالهم ثقة بها ، واعتمادا عليها كويت ظهورهم .

ولا تنافى بين هذه العقوبة ، والعقوبة السابقة المذكورة فى آية آل عمران ، لأن ذلك يكون فى مواطن ، موطن يمثل فيه المال شجاعا ، وموطن يكون صفائح ، وموطن يكون المال رضفا (٢) — كما ورد فى حديث آخر — قال القرطبى : وهذا التمثيل حقيقة ، ولله أن يفعل ما يشاء .

هذا . وظاهر الآية يفيد أن كل ما زاد عن الحاجة ينبغى أن ينفق فى سبيل الله ، فاذا أمسك انسان أكثر من حاجته فهو كانز ، وهذا ما ذهب اليه أبو ذر — رضى الله عنه — وجماعة من العلماء ، ولكن أكثر الصحابة ، والروايات الصحيحة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، والمشهور من أحوال بعض الصحابة ، يؤيد أن ما أدى زكاته من المال فليس بكنز ، وأنه ليس على الانسان أن ينفق كل ماعنده ، بل له أن يبقى لنفسه ، ولأولاده ما يغنيه ، ويغنيهم عن مسألة الناس ، وقد كان لجماعة من كبار الصحابة أموال كثيرة .

ولكن من العلماء من يذهب الى أن فى المال حقوقا أخرى غير الزكاة ، ويستدلون بقوله تعالى : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب

---

(١) طوى كشحه عنه : اذا أعرض عنه .
(٢) الرضف : — بفتح الراء ، وسكون الضاد — : الحجارة المحماة .

وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) .

ووجه الاستدلال بالآية أن نسقها يدل على أن قوله تعالى : (وآتى المال على حبه) لا يراد به الزكاة لقوله سبحانه بعده : (وآتى الزكاة) فلما عطف الزكاة عليه دل على أنه أراد بالأول شيئا مغايرا لها ، وهو الصدقة التى قد تكون واجبة ، وقد تكون تطوعا ، وتكون الصدقة واجبة اذا وجد الغنى ذا رحمة فى ضر شديد ، أو وجد انسانا أجهده الجوع حتى يخاف عليه التلف فيلزمه أن يعطيه ما يزيل جوعته .

واعطاء ذوى الرحم أمر توجبه الفطرة الانسانية ، فان الانسان بفطرته مجبول على أن يألم لفاقة ذوى قرباه أشد مما يألم لفاقة غيره ، لأنه يهون بهوانهم ، ويعتز بعزتهم ، وقد رشد الشاعر ، وأخلص النصيحة حين قال :

اذا كنت مرتاد الرجال لنفعهم فرش واصطنع عند الذين بهم ترمى

أما اعطاء اليتامى والمساكين وابن السبيل والعبيد بقصد تحرير رقابهم فأمر توجبه المشاركة الانسانية ، والعواطف النبيلة ، والرغبة فيما عند الله من حسن الثواب .

٢٠ـ كل ذى عيب يحب أن يراه فى الآخرين .

وهذه قاعدة مقررة عند علماء النفس ، فالانسان ـ على خلاف ما هو المشهور على ألسنة الناس ـ يرى عيب نفسه ، ويدركه ادراكا كاملا ، غير أنه يحاول أن يهونه عليها ، فيذهب الى تبريره تارة ، ويسعى لأن يحمل الناس عليه تارة أخرى فانه اذا رآه فى غيره هان عليه ، وأشد ما يلقاه انسان من الشعور بالنقص أن لا يجد فيمن حوله من لا يتمكن هذا النقص فيه ، فان ذلك يصغر نفسه عنده ، ويضخم فى قلبه نقصه ، ومن الخذلان ألا يسعى فى تطهير نفسه من هذا النقص ، بل يسعى لأن يزينه لغيره ، حتى يرى له فيه أقرانا وأشباها .

وهذا ما يؤخذ من قوله تعالى فى موضعين من كتابه الكريم : « الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل » فان من لذة البخيل أن يزين لغيره البخل ،

ومما يؤلمه أشد الألم أن يجد الجود شائعا فى أهله الأدنين ، أو فى أصحابه المخالطين له .

وقد يسترعى انتباهك أن تجد القرآن الكريم فى هذين الموضعين اللذين أشرت اليهما جمع بين أربع صفات لبعض الخلائق : (الاختيال ، والفخر ، والبخل ، وأمر الناس به) .

جاء فى سورة النساء بعد الأمر بعبادة الله ، والاحسان الى الوالدين وذوى القربى واليتامى والمساكين ، والجيران والأصحاب ، وابن السبيل ، والأرقاء : « ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا ، الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » .

وجاء فى سورة الحديد بعد أن ذكر أن كل شىء مقدر لله تعالى ، وأن الناس اذا تيقنوا من ذلك لم يحزنوا على فائت ، ولم يعظم فرحهم على ما ينالون من نعم ، جاء قوله سبحانه : « والله لا يحب كل مختال فخور ، الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ومن يتول فان الله هو الغنى الحميد » .

ولا شك أن لهذا الاقتران بين هذه الصفات ، وتكراره فى سورتين مدنيتين ، ليس بينهما فى النزول الا سورة واحدة من قصار السور (١) ، هذا الاقتران يدل على شناعة البخل وأن صاحبه موصوف بأبغض الصفات التى يكرهها الله سبحانه وتعالى ، وقد جاء نفى الحب عن صاحب هذه الصفات مؤكدا فى أولى الآيتين : (ان الله لا يحب) ، وجاءت صيغة العموم فى الآية الثانية ، فكأن المعنى أن الله — سبحانه — يكره كل هذا النوع من الناس .

والمختال هو المتكبر الذى يظهر أثر تكبره فى حركاته وأقواله وأعماله ، وذلك ناشىء من غروره بنفسه ، وشعوره بأنها أعلى وأشرف من نفوس الآخرين .

---

(١) نزلت سورة النساء ، وبعدها اذا زلزلت ، وبعدهما سورة الحديد . وهذا هو المشهور فى ترتيب السور بحسب النزول وعلى هذا المشهور اعتمدت فى كل ماأوردته فى هذا الكتاب .

والفخور هو الذى لا يزال يردد محاسنه ومآثره ، ويتعاظم بها ، وفى ثنايا هذا يبدو عليه احتقار غيره ، واشعاره بامتيازه عنه ، والفخر — أيضا — ناشىء من الكبر وهذا الداء بالغ الأثر فى ابتعاد الانسان عن الشعور بجلال الله ، فلا يخشع قلبه ، ولا يطهر الايمان نفسه ، وحينئذ يستهين بحقوق الناس عليه ، سواء كانوا من ذوى قرباه ، أو كانوا من الأباعد المحاويج ، وهذا هو البخل فى أوضح معانيه .

فالاختيال والفخر يجران الى البخل ، وهذا يحمل صاحبه على أن يأمر الناس به ، فهذه الأخلاق الأربعة متآخية مترابطة ، يؤدى أول منها الى ثان ، وثان الى ثالث ...

وقد انتهت الآية الأولى بوعيد شديد للباخلين الآمرين الناس بالبخل (وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا) ، ويبدو أن المراد بالكفر هنا جحود النعمة الذى يظهر فى أصحاب الصفات المتقدمة .

قال صاحب المنار : « أى وهيأنا لهم بكبرهم وكفرهم ، وبخلهم ، وعدم شكرهم عذابا ذا اهانة ، ويجمع لهم فيه بين الألم ، والمهانة ، والذلة . جزاء كبرهم . وقال للكافرين ، ولم يقل لهم للايذان بأن هذه الأخلاق ، والأعمال انما تكون من الكفور ، لا من المؤمن الشكور » .

وانتهت الآية الثانية بالتوعد والتهديد : (ومن يتول) أى يعرض عن طاعة الله وعن الانفاق فلا حاجة لله به ، فان الله هو الغنى عنه ، وعن طاعته ، وعن انفاقه ،وهو محمود لا يحتاج الى طاعة أحد ، وفى هذا من الاستهانة بالباخلين ، والتوعد لهم ما فيه .

٢١ـ دفاع عن البخل .

أشرت منذ قريب الى أن المعيب يود أن يكون الناس كلهم ذوى عيوب مثله ، ومن ذلك قول أبى العتاهية ، وقد كان بخيلا ، شديد البخل :

انظر بعينك حيث شئـ ت فلن ترى الا بخيلا

وأن المخطىء يعمل دائما على تبرير خطئه ، سيما اذا كان خطؤه ناشئا عن طبيعة ملازمة له ، وقد شرحت فيما سبق الجـزء الأول من هذه القاعدة النفسية ، وأشرح هنا الجزء الثانى منها :

والتبرير عادة يكون بالدفاع عن الرذيلة،التى يحاول صاحبها أن يبررها وقد يكون مدركا تمام الادراك لقبح هذه الرذيلة ، ويحاول فى الدفاع عنها المغالطة ، وقد يبلغ به الشغف بها أن يعتقد أنها فضيلة ، فيكون فى الدفاع عنها صادقا عن نفسه .

غير أن مما يضاعف من شناعة هذا الداء ، داء البخـل أن كل متصف برذيلة يحاول اخفاءها ، ويتنصل منها الا البخلاء ، أو على وجـه الدقة الا كثيرا منهم ، فان هؤلاء لا يكترثون بالناس ، ولا يرون فى البخل منقصة ، وان كان بعضهم يحاول أن يظهر بمظهر المقتصد وحينئذ يجد بابا واسعا يقول فيه فيذكر فضل الاقتصاد ، ومناقبـه ، ويذكر ــ ان كان عالمـا ــ الآيات والأحاديث النبوية ، والأشعار التى وردت فيه ، ثم يعرج على الاسـراف وكل جود عنده اسراف ــ فيذكر مساوئه ، وما ورد فى ذمه، وبعضهم يحاول أحيانا أن يظهر بمظهر الكرماء ، ويعمل جاهدا على أن يوهم الناس أنه سخى بذال .

ولقد كان أبو حيان عالم النحو الكبير ، يقـول : اذا قرأت أشـعار العشق أميل اليها ، وكذلك أشعار الشجاعة تستميلنى ، وغيرها ، الا أشعار الكرم ، ما تؤثر فى ، وكان يفتخر بالبخل ، كما يفتخر غيره بالكرم ، وكان يعيب على من يشترى الكتب ، ويقول له : الله يرزقك عقلا تعيش به ، أنا أى كتاب أردته استعرته من خزائن الأوقاف ، واذا أردت من أحد أن يعيرنى درهما ما أجد ذلك ، ومن شعره :

رجاؤك فلسا قد غدا فى حبائلى ... قنيصـا رجاء للنتـاج من العقم
أأتعب فى تحصـيله وأضـيعه ... اذا كنت معتاضا من البرء بالسقم

وقبل أن نفكهك بمنطق البخلاء فى هذا الشأن نبادر بتذكيرك بقـول أديب العربية الكبير أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، حيث يمتدح الجود ،

ويذم البخل : (أجمعت الأمم كلها ، بخيلها ، وسخيها ، وممزوجها ، على ذم البخل ، وحمد الجود ، كما أجمعوا على ذم الكذب ، وحمد الصدق ، ولم نر الأمة أبغضت جوادا قط ، ولا حقرته ، بل أحبته ، وأعظمته بل أحبت عقبه ، وأعظمت من أجله رهطه ، ثم وجدنا هؤلاء للبخيل على ضد هذه الصفة وجدناهم يبغضونه مرة ، ويحقرون بفضل احتقارهم له رهطه ، ويضيفون اليه من نوادر اللؤم ما لم يبلغه ، ومن غرائب البخل ما لم يفعله) .

وهذا الكلام فى جملته صحيح غاية الصحة ، جيد كل الجودة ، وهو ملموس مشاهد فى كل عصر ، وفى كل أمة ، وان اختلفت العصور ، والأمم فى مبلغ حب الكريم ، وبغض الشحيح ، كما يختلفون فى النظر الى جميع الفضائل ، والى جميع الرذائل ، ولكنهم يتفقون ــ دائما ــ فى مدح الفضلية وذم الرذيلة .

فما زال الكريم موضع المدح والتجلة والاحترام ، والبخيل موضع الذم والتنقص والاحتقار الا اذا مالت موازين الأخلاق فى أمة ، وانحرفت فطرها السليمة ، فانها ــ عندئذ ــ لا ترى فى الكرم الا ضلالا وحمقا ، ولا ترى فى البخل الا رشدا وعقلا .

وأنا انما أقصد بذكر هذا الفصل أن أريح أعصاب القارىء ، بايراد حجج البخلاء فانى رأيت ان من الأحاديث ما يجلو الهم عن الصدر ، ويفرج الضيق على النفس ، وأبلغ الأحاديث فى هذا العلاج المريح حديث المغرور ، وحديث البخيل ، وأنت فجرب كما جربت ، فاذا نزل بك هم ، وأردت أن تفرج عن نفسك ، فاستحضر مغرورا ، أو بخيلا ــ وان شئت مجنونا ــ وحدث كلا منهم فى شأنه ، واستخرج ما عنده فستجد ــ ان شاء الله ما ينسيك همومك ، ويسرى عن نفسك .

وللبخلاء منطق ظريف ــ فى بعض الأحايين ــ وان شئت فاقرأ كتاب البخلاء للجاحظ ، فستقتنع بما أقول ، ولعل من لطيف النوادر ما حدثوا أن رجلا فقيرا معدما كان له أخ غنى ، شديد البخل ، فجاء الفقير يوما يعاتب الغنى ، ويقول : أنا رجل فقير ، ذو عيال ، وأنت غنى ، لا عيال عندك ، وأنت

لا تعيننى على نوائب الزمان ، ولا تواسينى ببعض مالك ، والله ما رأيت قط ، ولا سمعت أبخل منك ، فقال الغنى : ويحك ، ليس الأمر كما تظن ، ولا المال كما تحسب ، ولا أنا كما تقول فى البخل ، ولا فى اليسر ، والله لو ملكت ألف ألف درهم لوهبت له خمسمائة ألف درهم ، ثم التفت الى الناس ، وقال : ياهؤلاء ، اشهدوا رجل يهب فى ضربة واحدة خمسمائة ألف درهم يقال له بخيل ؟!

وكم فى القدامى ، والمحدثين من أمثال هذا الغنى الظريف فى منطقه ، فهناك الرسائل الطوال ، والنصائح القصار التى تحث على البخل ، وترغب فيه ، وتذم الجود ، وتحذر منه .

ولعل أول ما قرأنا فى الاحتجاج للبخل ، والدفاع عنه ما قاله كفار مكة حين أمرهم الله بأن يعطوا الفقير ، وينفقوا مما رزقهم الله : أيفقره الله ، ونطعمه نحن ؟!

وقد سجل القرآن مقالتهم ، فقال تبارك وتعالى فى سورة (يس) : « واذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه » !؟

وذلك شبيه بقصة ذلك الرجل الذى كان يطعم السمان من ابله ، ويترك المهازيل ، ولما قيل له فى ذلك قال : أكرم ما أكرم الله ، وأهين ما أهان الله .

وهذا ان كان استهزاء منهم يدل على مبلغ عتوهم وعنادهم ، وقد روى أن العاص بن وائل السهمى كان اذا سأله مسكين يقول له: اذهب الى ربك فهو أولى بك منى، ويقول: قد منعه أفأطعمه أنا ؟ وان كان عن يقين فهو ما يحتج به ــ دائما ــ البخلاء ، وهو ان لم يظهر على ألسنتهم فهو فى أعماق نفوسهم ، يستشعرونه كلما سئلوا ، فبخلوا ، وهو أيضا نوع من التبرير ، والرغبة فى تنزيه أنفسهم ــ عند أنفسهم ــ من النقيصة ، وقد غفلوا ــ أو تغافلوا ــ عن حكمة الله فى خلقه ، فهو يبتلى الفقير بالفقر ، ويبتلى الغنى بالمال ، ومن الابتلاء أن يسلط عليه ذوى الحاجات يسألونه ، فيجود ، أو يبخل ، ولله فى خلقه شئون .

ثم كثر البخلاء ، وظهرت لهم فى البخل فلسفة ، فدافعوا عنه دفاعا عجيبا ، وأكثر هذا الدفاع ينحصر فى التخويف من الفقر ، وهو نفس ما عبر عنه القرآن الكريم فى قوله تعالى : (الشيطان يعدكم الفقر) ، وكما كانوا يخوفون من الفقر كانوا يرغبون فى الغنى لأنه يرفع الوضيع ، ويجعله موضع التجلة من قومه :

ألم تر أن المرء يزداد عزة على قومه أن يعلموا أنه مثر

والدرهم ــ كما يقولون ــ هو القطب الذى تدور عليه رحى الدنيا ، فمن الحمق أن يخرج من يد الانسان ، دون أن يرى مكانه خيرا منه ، ولا يغرنه كثرة المال ، فان الرمال الواسعة الكثيرة لو استمر الأخذ منها ، دون أن يزاد عليها لذهبت عن آخرها ، ومال المرء لا يسع جميع من يطلب منه الخير ، ولذلك جرت على ألسنة البخلاء هذه الكلمة : (منع الجميع أرضى للجميع)، وذوو العبقرية فيهم يرون أن ترقيع الثوب يجمع مع الاصلاح ، التواضع واستبدال الجديد بالخلق يجمع مع الاسراف الكبر ... هكذا يحتجون .

قال الجاحظ : قلت للحزامى : قد رضيت بقول الناس فيك : انك بخيل قال : لا أعد منى الله هذا الاسم ، لأنه لا يقال : فلان بخيل الا وهو ذو مال ، فاذا سلم المال فادعنى بأى اسم شئت . قلت : لا يقال سخى الا وهو ذو مال ، فقد جمع هذا الاسم المال والحمد ، وجمع ذاك الاسم المال والذم . قال (الحزامى) : بينهما فرق . قلت : هاته . قال : فى قولهم بخيل تثبيت لاقامة المال فى ملكه،واسم البخيل اسم فيه حزم وذم ، واسم السخاء فيه تضييع وحمد ، والمال نافع مكرم لأهله معز ، والحمد ربح وسخرية ، واستماعه ضعف وفسولة (خساسة) ، وما أقل ــ والله ــ غناء الحمد اذا جاع بطنه ، وعرى جسده ، وشمت عدوه .

بمثل هذه الحجج الواهية كان يدافع البخلاء عن البخل ، ونحن لا زلنا نسمع مثلها ، وأعجب منها .

على أنك لا تعدم فى هؤلاء الذين يدافعون عن البخل من يعظك فيطيل الوعظ ، ومن يزهدك فى الدنيا ، فيحسن التزهيد والقول ، وأمر أبى العتاهية معروف مشهور .

وأبو حيان الذى ذكرنا خبره قريبا فى الدفاع عن البخل هو القائل :

وقصـــر آمـــالى مآلى الى الردى　　　وأنى ـ وان طال المدى ـ سوف أهلك
فصنت بمـــاء الوجـــه نفســـا أبية　　　وجـــادت يمينى بالذى كنت أمـــلك

٢٢ـ الفرد والجماعة :

حين يستحكم الشح فى نفس الانسان يفقده انسانيته ، ويجعله (أنانيا) أثرا ، لا يحب الا نفسه ، ولا يريد الخير الا لها ، فهـــو ـ حينئذ ـ يشـــعر شعورا قويا بذاته ، ويخيل اليه أن الدنيا وما فيها لم تخلق الا له ، أو ينبغى أن يكون الأمر كذلك ، وتبعا لهذا الشعور ، يضؤل شعوره بالجماعة ، بـــل ربما تمكنت البغضاء والحقـــد فى نفسه عليها . لا سيما اذا لم ينل كل ما يرغب فيه ، فيكون شعاره : (اذا مت ظمآنا فلا نزل القطر .)

وقد يتمثل هذا الشح فى حرمان الناس من الخير الذى حبسه الشحيح على نفسه ، مع التوسعة على نفسه فى الانفاق ، وهذا معنى الأنانية ، وقـــد يستبد الشح بصاحبه فيحرم نفسه كما يحرم الآخرين ، لأن لذته ـ حينئذ ـ ليس الأكل الهنىء ، والملبس الفاخر ، والمركب الفاره ، وانما شهوته أن يجمع المال ، وأن يجمعه فقط ، وهذا شأن أكثر البخلاء ، يحرمون أنفسهم،ويكتفون بأن تنال نعيمها فى النظر الى المال ، مقيدا فى خزانة ، أو محبوسا فى مصرف ، ومن شأن هؤلاء ألا يقنعوا بمال مهما كثر ، فهم ـ دائما ـ يشعرون بالحاجة الى الجمع ، بل كلما كثر عندهم المال زاد خوفهم من الفقر ، وكثر حرصهم على المال ، وليسوا فى هذه الحال بأهدأ بالا ، ولا بأقر عينا من الفقراء ، وهذا معنى قول المتنبى :

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله　　　مخافة فقـــر فالذى فعـــل الفقر

ولا سبب لكل هذا الا طغيان (الفردية) على هؤلاء البخلاء ، وسيطرة غريزة الملك على نفوسهم ، وذهاب الاحساس بالجمـــاعة بعيـــدا عن دائرة شعورهم .

فاذا اعتدلت عواطف الانسان أحس بوجود الجماعة ، وبحقوقها عليه .

والقرآن يحارب هذه الفردية الطاغية التي تصل بصاحبها الى الأثرة ، والى حرمان ذوى الحقوق حقوقهم ، ويدعو المؤمنين الى أن يحسوا بالمجتمع الذى يعيشون فيه ، وأن يؤدوا ما عليهم له من حقوق .

وهو ــ حين يحارب الفردية ــ لا ينهج منهج الشيوعية التى تحاول جاهدة أن تقتل كل النوازع الفردية ، وحين يحترم ارادة الفرد لا يذهب مذهب الرأسمالية التى تصرف كل جهودها فى سبيل سيادة أفراد فى المجتمع على آخرين فيه .

وانما يهدف القرآن ، وكل تعاليم الاسلام الى (الوسطية) فهى تعترف للفرد بوجوده ، وبغرائزه ، وعواطفه ، وميوله ، وكل نوازعه الشريرة والخيرة ، وتعترف للمجتمع بحقوقه على أفراده ، وتحاول أن تقيم التوازن بين احساس الفرد بنفسه ، واحساسه بالجماعة .

وفى النفس الانسانية نزعتان قويتان احداهما تميل به الى ذاته ، والأخرى تجذبه الى مجتمعه ، وتغلب احداهما على الأخرى ربما أضر بالحياة العامة ، فقد أخطأت الشيوعية حين ألغت وجود الفرد فيما يتصل بالملكية الفردية ، وأخطأت الرأسمالية حين أعطت للفرد أن يملك ما يشاء دون اعتبار للآخرين ، وان كانت خففت من حدتها أخيرا تحت ضغط النقد الشديد لها ، فاتبعت نظاما فى الضرائب لا شك أنه أخفى جانبا من مساوىء الرأسمالية ، ولكن غلطتها الكبرى هى عملها الدائب على افساد الطبيعة الانسانية القومية .

والنظرية الاسلامية تقوم ــ كما سبق أن قلت ــ على الوسطية ، فهى تبيح الملكية الفردية ، وتبيح للمسلم أن يتمتع بالطيبات من الرزق ، بل وتدعوه الى ذلك وبجانب هذا تنبهه فى كثير من نصوصها الى الذين يحيطون به من ذوى الحاجات بل وتنبهه الى حاجة الدولة وحاجة الحياة ــ بعامة ــ الى بعض ما فى يده من مال .

ففى القرآن الكريم أكثر من سبعين آية تحث على الانفاق ، وتحبب فى البذل ، وهذه الآيات كلها تعمل على ايقاظ عاطفة الخير فى الانسان وعلى التقليل من خطر الفردية التى قد تغلغل فى بعض النفوس الانسانية .

ولقد سلك القرآن منهجا تربويا سليما لنقل الانسان من فرديته الأثرة الى جماعيته الخيرة .

ففى السور الأولى التى نزلت بمكة ساس النفس بسياستين حكيمتين تكفى كل منهما لكى تستل من النفس المؤمنة ما يكون قد شاع فى شعابها من دواعى الأنانية التى تنميها البيئة والتربية الفاسدة .

الأولى : النعى على المعرضين حبهم الشديد للمال ، وعملهم الدائب لجمعه وكنزه ، واعتدادهم البالغ به ، وخديعتهم فيه ، وظنهم انه اله يعبد ، وتكاثرهم ومفاخرتهم به ، حتى ألهاهم ذلك عن طاعة الله .

ففى أول سورة نزلت من القرآن ردع شديد لمن كفر بنعمة الله عليه ، فطغى حين كثر ماله ، وتهديد له بأن مرجعه الى الله ، فسيجازيه على طغيانه : « كلا ان الانسان ليطغى . أن رآه استغنى . ان الى ربك الرجعى » . واذا كانت هذه الآيات نزلت فى أبى جهل — كما قال المفسرون — فان ذلك لا يمنع أن يكون هذا شأن المعرض عن آيات الله ، وأن الله يحذر كل من يطغيه المال .

وفى السورة التالية ، وهى سورة (ن) جعل المال أحد الأسباب التى تحمل الأحمق على التكذيب بآيات الله ، وقد جاء هذا الحكم على أحد كفار قريش بعد ما وسمه القرآن بمياسم من العيوب لم يصف بها أحدا قبله ولا بعده ، فهو كثير الحلف بالباطل ، حقير ذليل ، مغتاب يكثر من الطعن على الناس ، والعيب فيهم ، ويسعى بالنميمة للافساد بينهم ، وهو بخيل بالمال مانع لكل خير ، صاد عن سبيل الله القويم ، وهو ظلوم فاجر ، مسىء الخلق شديد فى الخصومة بالباطل ، ومع كل ما وصف به من هذه الصفات المذمومة هو دعى فى قريش ، ينسب اليهم ، وليس منهم : « فلا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم ، أن كان ذا مال وبنين ، اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين » .

فهذا الصنيع الذى ينظم البخل فى جملة هذه الصفات الكريهة ، ينبه الأذهان الى شناعة البخل ، ومن ثم الى ما يجره المال على صاحبه حين يمنعه من ذوى الحقوق فيه .

وهذه الصفة (مناع للخير) اشارة بالغة فى أول العهد بالدعوة ، وبنزول القرآن الى ما يبغضه الله سبحانه من صفات ، وما يدعو اليه الدين الجديد من محاسن الأخلاق .

نعم كان العرب يكرهون البخلاء ، ويحتقرونهم فأقر القرآن هذا الوجدان فيهم ، ولكن الحديث عنه فى ثانية السور نزولا يدل على مدى سخط الله على البخل والبخلاء .

واذا كانت آيات سورة العلق وصفت الانسان بالطغيان حين يستغنى ، وآيات سورة القلم أخبرت أن المال كان أحد سببين فى التكذيب بآيات الله ، فان آيات أخر من سورة (الهمزة) أشارت أن المال يحمل صاحبه على احتقار الناس ، والعيب فيهم ، وأنه يخدع صاحبه ، فيظن أنه يخلد فى الدنيا ، ولا يموت ليساره وغناه ، ولذلك تهدد القرآن أمثال هذا بالويل فى أول الآيات ، وبالنار التى تحطم العظام وتكسرها فى آخرها : « ويل لكل همزة لمزة ، الذى جمع مالا وعدده ، يحسب أن ماله أخلده . كلا لينبذن فى الحطمة » .

الهمزة الذى يعيبك فى الغيب ، واللمزة الذى يعيبك فى الوجه ، وقيل الهمزة الذى يهمز الناس بيده ويضربهم ، واللمزة الذى يلمزهم بلسانه ويعيبهم ، وقال بعض المفسرين المراد هنا النيل من أعراض الناس ، والغض منهم ، والطعن فيهم ويدخل فيه من يحاكى الناس بأقوالهم وأفعالهم وأصواتهم — ليضحك منهم .

ومن أوائل السور نزولا سورة (العاديات) وفيها وصف الانسان بأنه شديد الحب للمال : « وانه لحب الخير لشديد » وسورة (الفجر) وفيها قوله تعالى : « وتحبون المال حبا جما » والسياق فى الموضعين يجعل هذا الحب للمال غير محمود ، ذلك أنه اقترن فى السورة الأولى بجحود الانسان لنعمة ربه ، وفى الثانية بأكل التراث أكلا لما .

الثانية : عناية القرآن (باليتيم) فى هذه السور الأولى ، فكل انسان غير غافل عن حقيقة الحياة ، وهو ينعم بعاطفة الأبوة الرحيمة يهون عليه البذل

لاكرام اليتيم ، فهو على يقين من الموت وقد يصبح ابنه فى يوم قريب يتيما ، وربما احتاج الى من يرعاه .

فبهذا الشعور الخليط من الخوف والشفقة والعطف ، يعطف القادر على اليتيم ، ومتى هان عليه بذل المال فى حق من حقوقه ألفت نفسه بذله فى جميع الحقوق الأخرى .

على أن القرآن هز قلوب الناس ، وعواطفهم هزا عنيفا ، لا هوادة فيه ولا رفق ، حين عنف الذين يجفون اليتامى ، ويدفعونهم عن حقوقهم ، وأموالهم ظلما وعدوانا ، أو يتركون مواساتهم وان لم تكن واجبة : «أرأيت الذى يكذب بالدين ، فذلك الذى يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين » .

قال جار الله الزمخشرى فى هذا الموضع من تفسيره : (جعل علم التكذيب بالجزاء منع المعروف ، والاقدام على ايذاء الضعيف ، يعنى أنه لو آمن بالجزاء ، وأيقن بالوعيد لخشى الله تعالى وعقابه ، ولم يقدم على ذلك ، فحين قدم عليه علم أنه مكذب،فما أشده من كلام،وما أخوفه من مقام ، وما أبلغه فى التحذير من المعصية ، وأنها جديرة بأن يستدل بها على ضعف الايمان ، ورخاوة عقد اليقين) .

على أن هذه السورة القصيرة لم تنته حتى وصمت البخلاء بوصمة لا يمحى أثرها وطعنتهم طعنة نافذة ، فدعت عليهم بالويل والثبور : « فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراءون . ويمنعون الماعون » .

فقد وصفت هؤلاء ــ بعد أن توعدتهم بالهلاك ــ بثلاث صفات معيبات : التهاون فى شأن الصلاة ، والمراءاة بالأعمال الطيبة ، والبخل .

وفى هذا ما يرشد الناس الى أن البخل كريه المنظر ، وخيم العاقبة .

والمشهور فى تفسير الماعون أنه لا يحل منعه مثل الماء والملح والغربال، وكل ما ينتفع به الحيوان ، قال العلماء : ويستحب أن يستكثر الرجل فى بيته مما يحتاج اليه الجيران ، فيعيرهم ويتفضل عليهم ، ولا يقتصر على الواجب.

وانما كان منع الماعون مستحقا للهلاك ، لأن منع هذه الأشياء القليلة الهينة ــ وقد يكون الجار محتاجا اليها ــ هو الغاية فى البخل . وهو يدل على ما يتحكم فى النفس من فردية ضارة بالمجتمع .

وفى سورة « الفجر » يتحدث القرآن عن خطأ الانسان فى فهم الغاية من الانعام عليه، ومن قدر الرزق، فيظن أن الأول كان اكراما من الله له، وأن الثانى كان لهوانه على الله ، ثم يخبر أن فى عمل الانسان ما هو شر من هذا الاعتقاد ، وهو ظلم اليتيم ، والقسوة على المسكين : « كلا ، بل لا تكرمون اليتيم ، ولا تحاضون على طعام المسكين » .

وحين امتن الله على نبيه فى سورة (والضحى) بأنه لا يزال يواليه بنعمه ، وحبه ، وبأنه وجده يتيما فآواه الى عمه أبى طالب ، ووجده ضالا عن معالم النبوة وأحكام الشريعة فهداه اليها ، ووجده فقيرا فأغناه بمال خديجة ، وما أعطاه من الرزق ، حين امتن عليه بذلك أوصاه باليتامى والمساكين والفقراء فقال عز وجل : « فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر » .

وكما عنيت هذه الآيات الأولى باكرام اليتيم ، واعطائه حقه ، والتفضل عليه ، عنيت بالمسكين والاحسان اليه ، وهذا الوصف (المسكين) ــ وحده ــ كاف فى ترقيق القلوب ، وتحبيب البذل الى النفوس .

وبجانب الآيات السابقة نجد آيات أخرى نزلت فى أول العهد بالبعثة تبعث الخوف والقلق فى نفوس الأشحاء ، جاء فى السورة الرابعة ، وهى سورة المدثر : « كل نفس بما كسبت رهينة ، الا أصحاب اليمين ، فى جنات يتساءلون عن المجرمين ، ما سلككم فى سقر ، قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين » .

فالناس كلهم فى النار مأخوذون بذنوبهم ، الا أهل طاعة الله وخشيته فهم ينعمون فى الجنات ، ويسألون المجرمين عن الأسباب التى حبستهم فى النار فيجيبهم هؤلاء بأن أسباب ذلك أربعة : تركهم الصلاة فى الدنيا ، وعدم تصدقهم على المساكين ، وخوضهم فى الباطل ، وتكذيبهم بيوم الجزاء .

فأنت ترى موضع ترك التصدق على المساكين بين هذه الأوزار التى ارتكبها المجرمون فى الدنيا ، هكذا بالتعبير القرآنى (المجرمون) .

وجاء فى سورة (البلد) تحريض للانسان على أن يجاهد نفسه ، ويتحمل المشقة فى انفاق المال فى وجوه الخير : « فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة ، أو اطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيما ذا مقربة ، أو مسكينا ذا متربة » .

ثم تكون الآيات المكية ـ بعد ذلك ـ والآيات المدنية على السواء ، تسوس النفوس ـ فى هذه الناحية ـ أنجع سياسة ، وتتأتى لها من النواحى التى تستجيب لها طائعة راضية ، فنجد أكثر الآيات التى تحث على الاحسان تبدأ بذوى القربى ، وتثنى باليتامى وتثلث بالمساكين ، فاذا أضافت اليهم أحدا بعد ذلك جعلته ممن يمت بصلة الى المعطى ، أو ممن يستحق الاعطاء والبذل .

(واعبدو الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذى القربى ، والجار الجنب ، والصاحب بالجنب وابن السبيل ، وما ملكت أيمانكم) .

(ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب) .

(واذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا وذى القربى واليتامى والمساكين) .

(يسئلونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل) .

(ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا) .

(فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل) .

(ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى) .

(ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى ، والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله) .

(وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا) .

وهكذا نجد الأمر بالاحسان يتجه أولا الى (ذى القربى) ولعل السر فى ذلك ــ كما أشرت اليه فى فصل سابق ــ أن الانسان يسهل عليه أن يصدر فى أفعاله عن حبه لنفسه ، وعن رغبته فى البقاء ، والأقرباء هم الذين يستنصر بهم الانسان ، ويقوى على أعدائه ، وعليهم يعتمد فى حماية نفسه وولده وماله فحين يؤمر بالاحسان اليهم يجد فى نفسه دافعا قويا الى الاستجابة لهذا الأمر ، بل هو يعطف عليهم ولو لم يلاحظ أن الشرع أمر بذلك حفاظا على نفسه ، وتلبية لأواصر القرابة ، ووشيجة الدم .

ولعله قد وضح لنا أن القرآن قد دافع غريزة الفردية بغرائز أخرى أراد تنميتها فى النفس الانسانية ، وهذا غاية الغايات فى علاج ما قد يكون فى بعض الغرائز من شر (والله عليم بذات الصدور) .

٢٣ــ حب الله ، وحب المال .

ويسمو القرآن بالمؤمن الى أفق أعلى ، ويأخذه بامتحان قاس عنيف ، ويرغبه أن يضع كل متع الحياة فى مكانها الصحيح حين يضع بازائها فى الكفة الأخرى أسمى ما يطمح اليه المؤمن ، وينبهه الى وقوفه بين طبيعتين أصيلتين فى نفسه ، احداهما تتركه هابطا الى الأرض اذا تمكنت منه وانحرفت والأخرى ترفعه الى السماء اذا أشرقت فى نفسه ، وملأت عليه جوانحه ، حب المال وحب الله .

وانه لصنيع عجيب من القرآن أن يقرن بين هذين الحبين ، وأن يضعهما فى ميزان واحد ، وما ذاك الا لأن عاجل ما تشتهيه النفس أحب اليها من الآجل الغائب ، ولكن النفس المؤمنة حين تصفو طبيعتها ، ويخلص ايمانها لا تحس بزمنين مختلفين ، أحدهما عاجل والآخر آجل ، ولا يضللها هواها بين شاهد وغائب ، وانما ترى أن لذتها الكبرى فى أن تتصل بخالقها ، (الآن) ، وأن

نور الله ليس غائبا عنها ، وانما هو أوضح عندها من كل محس مشاهد من ماديات هذه الحياة .

(قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين) .

هكذا حب كل ما يحرص عليه الانسان من محاسن الحياة فى كفة ، وحب الله فى الكفة الأخرى ، فلا ينبغى أن يتخذ المؤمنون الآباء والأبناء والاخوان أولياء ان استحبوا الكفر على الايمان ، ولا ينبغى أن يضن المؤمن بمال ولا نفس ، ولا يشغل بمتعة من متع الحياة اذا دعا داعى الجهاد فى سبيل الله ، فمن يتول الكافرين — ولو كانوا من أخصائه — فهو ظالم ، ومن يؤثر حب شىء على حب الله فهو فاسق ، والله لا يهدى القوم الفاسقين .

ومع أن فى هذه الآية تهديدا ، وازراء على من يفضل أى مرغوب آخر عن الاقبال على مولاه ، مع هذا فيها ايحاء ، ودعوة الى تطهير النفس من كل شائبة ، وفيها اشعار لنفوس المؤمنين بحب الله لها ، وتفضله عليها بدعوتها الى محبته .

يقول جار الله الزمخشرى : (وهذه آية شديدة لا نرى أشد منها ، كأنها تنعى على الناس ما هم عليه من رخاوة عقدة الدين ، واضطراب حبل اليقين ، فليتصفح أورع الناس وأتقاهم من نفسه هل يجد عنده من التصلب فى ذات الله ، والثبات على دين الله ما يستحب له دينه على الآباء والأبناء والاخوان والعشائر والمال والمساكن ، وجميع حظوظ الدنيا ، ويتجرد منها لأجله ، أم يزوى الله عنه أحقر شىء منها لمصلحته فلا يدرى أى طرفيه أطول ويغويه الشيطان عن أجل حظ من حظوظ الدين فلا يبالى كأنما وقع على أنفه ذباب فطيره) .

وهذا كلام فى جملته صحيح ، ولكن أليس لنا أن نقول ان المبالغة فيه واضحة ، فأورع الناس وأتقاهم ليس كما وصف الزمخشرى فان من هذا

صفهم ــ وان كانوا قلة ــ قديبلغون فى ايثار جانب الله على كل جانب ، على أن الآية لم تطلب أن يتجرد الناس من كل حظوظ الدنيا ، لأجل خالقهم ، وانما اعتدت بالطبيعة النفسية فى حب الأقربين والأموال ، فلم تطلب الا أن يكون الله (أحب) من كل ذلك ، فأصل الحب غير منكر ، وانما المنكر أن تحب هذه المحبوبات أكثر من حب الله ، وفى هذه الصيغة ــ صيغة التفضيل ــ مجاراة من القرآن للطبائع ، وترفق بها ، وكذلك أشار الرسول الكريم حين أخبر عن المؤمن الذى يجد حلاوة الايمان ، فقال : (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه الا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار) . فلم يقل الرسول : أن يكره ما سوى الله ، ويحبه ــ سبحانه ــ وحده ، وانما قال أن يكون الله ورسوله أحب ، أى ان الرسول لا ينكر على الناس أن يحبوا ما سوى الله ــ لأن ذلك الحب مركوز فى طباعهم ــ وانما أنكر ــ كما أنكر القرآن ــ أن يزيد حب شىء فى النفس ــ على حب الله ورسوله ، فالآية تدعو الى أن يكون الله (أحب) وهذا القدر اذا تحقق للانسان بلغ من الكمال الانسانى أسمى الغايات ، وحينئذ لا يبخل بمال ، ولا يقصر فى حق من حقوق الله ، ولا يخالف ــ فى شىء ــ عن أمر ربه ، لأن المحب يلذ له أن يرضى محبوبه ، ولأنه يضحى بكل شىء فى سبيل رضاء محبوبه ، ما دام كل شىء فى منزلة أدنى منه .

وبهذا الأسلوب الصارم النفاذ فى جانب ، المتلطف الأخاذ فى جانب آخر عالج القرآن داء البخل أنجع علاج ، واستل من النفوس المؤمنة كل شعور قاتم نحو الجماعة التى لها فى أموال الناس حقوق .

٢٤ ــ اخوان الشياطين .

وهؤلاء صنف من الناس وصفهم القرآن بهذا الوصف الذى جعلناه عنوانا لهذا الفصل ، ولم يصف أحدا غيرهم به ، وهذا الوصف (اخوان الشياطين) جامع لكل خصال الشر ، وفيه من الازعاج النفسى لهؤلاء الناس ، ومن الايحاء المنفر ما ينبغى أن يملأ نفوسهم كراهية لهذا الصنيع الذى جعل

القرآن يضعهم فى منزلة الشياطين ، ويقرنهم معهم فى قرن واحد ، وليس عند النفس أبغض من صورة الشيطان ، ومن فعله .

أما هؤلاء الموسومون بهذا الوسم الموجع فهم (المبـذرون) قال الله تعالى فى سورة الاسراء : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، ولا تبذر تبذيرا ، ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا » .

والتبذير هو الانفاق فى الباطل ، أو هو مجاوزة الحد فى كل لون من الانفاق ، ما لم يكن انفاقا فى سبيل الخير ـ على ما اشتهر عنـد العلماء ـ ولذلك قيل : لا خير فى السرف ، ولا سرف فى الخير ، وسياق الآية يدل على أن التبذير يكون فى الانفاق للخير ، سواء كان واجبا أو مندوبا ، فقد ابتدأت الآية بالأمر باعطاء ذى القربى حقه ، واعطاء المسكين وابن السبيل حقهما ـ كذلك ـ وكلمة (حقه) هنا تحدد ، فلا ينبغى أن ينقصهم من هذا الحـق شيئا ، واذا زاد فلا ينبغى أن تبلغ الزيادة حد التبذير ، فصاحب المال مطالب بأن يلتزم أداء الحقوق . ومن الطبيعى أن يكون بجانب هؤلاء أصحاب حقوق آخرون ، كأولاده ، وكل من يمكن أن يرثه بعد موته ، وفى الحديث الشريف (انك ان تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس .)

واذا كانت الزيادة فى اعطاء ذوى القربى حقوقهم ، وفى اعطاء ابن السبيل حقه ، تعد تبذيرا فمن البدهى أن تكون مجاوزة الحد فى الانفاق على النفس أو على الأصدقاء والأصحاب ، أو على الاولاد والاسرة تبذيرا أيضا .

والآية الكريمة لم تكتف بوصف هذا الصنف بأنه من قرناء الشياطين ، ومشابهيهم ، بل أتبعته بذكر وصف هو من أخص أوصاف الشيطان ، ومن أجمعه لخصال الشر أيضا ، ومن أدلة على سوء العقبى : (وكان الشـيطان لربه كفورا) . وكأن الآية تشير الى أن هذا الوصف هو أبرز وجوه الشبه بين المبذرين والشياطين ، فالشيطان يكفر نعم الله عليه ، ويكفر بالله ، فهل بلغ الحد بهؤلاء هذا المبلغ .

قبل أن نجيب على هذا السؤال نذكر أن القرآن وصف هؤلاء بوصف لا يقل شناعة عن هذا الوصف ، فقد سماهم (السفهاء) فقال تعالى فى سورة النســاء :

« ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا » .

والسفه اضطراب فى التفكير ، واضطراب فى التدبير،واهتزاز فى العقل، وهو ضلال وحيد عن طريق الحق والواجب .

وفى هذه الآية مباحث :

فكلمة (أموالكم) هكذا باضافة الأموال الى المخاطبين ، فى حين أنها أموال هؤلاء السفهاء تشعر بأن مال الفرد ليس خالصــا له ، وانما تشركه الجماعة فيه من حيث أن نفعه اذا أنفق فى طرقه المشروعة يعم الجميع ، وضرره اذا عمل فيه تبذير يحيق بجميع الأمة ، وفى هذا اشعار ــ كما ذهب اليه بعض المفسرين ــ بالتكافل الاجتماعى .

والقول المعروف فى الآية هو الارشاد والنصــح ، ومحاولة التوجيــه السليم لهؤلاء الضالين قصد السبيل .

أما الاجابة عن السؤال الذى أوردناه فتجمله كلمة واحــدة فى الآية (قياما) فان الله ــ سبحانه ــ جعل الأموال قوام الحياة ، حيــاة الأفراد ، وحياة الامم ، به يتحقق وجودهم وبقاؤهم وبه تتحقق سعادتهم ، وأمنهم ، ومجدهم وعزهم ، واذا كان المال بهذه المثابة ــ وهو كذلك ولا شك ــ كان من العبث العابث أن ينفق فى الباطل ، وفيما لا يفيد وكل سرف وراءه حــق مضيع .

والسرف لا يتفق مع الفطرة السليمة ، فان الانســان مجبــول على الاعتدال ، وعلى الاحتفاظ بما يحفظ عليه ذاته ، وكل جهاده فى الحياة انما ينبع من هذه الغريزة غريزة حفظ الذات .

ناهيك بما يحل بالمسرفين أنفسهم ، وما يحل بأممهم من ضعف ، وخزى وخذلان : فمن أول أدواء الترف فساد الطبائع السليمة ، وخــور العزائم

القوية ، والخلود الى الجانب اللين من الحيـاة ، والسكون الى الدون من حظوظ النفوس ، فان هؤلاء المترفين لا هم لهم الا لذة يسعون فى تحصيلها أو شهوة يركضون وراءها ، فاذا دعا داعى الاصلاح تخلفوا ، وكرهوا الكفاح والمجالدة ، وهم مشدودون بأمراس كتان الى ما كان عليه آباؤهم ، لايريدون ولا يستطيعون أن يصنعوا لأنفسهم حياة مستقلة .

فقد كان الرسول الكريم يدعو أصحابه الى الجهاد فيلبـون راضين ، مستهينين بكل ما يتوقعون من أخطار ، ولكن فريقـا من أغنيـائهم ، كانوا يتخلفون : « واذ أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولو الطول منهم ، وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين ، رضوا بأن يكونوا مـع الخوالف ، وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » .

وهذا التعبير من القرآن الكريم : « رضوا بأن يكونوا مع الخوالف » فيه ما فيه من الزراية عليهم ، والحط من شأنهم ، والطعن فى رجولتهم ، فهم لا يجاهدون كما يجاهد الأصحاء من الرجال ، ولا يعتذرون عـذر المرضى ، والضعفاء منهم ، ولكن يتخلفون من غير عذر ، شأنهم شـأن الخوالف من النساء ، وهم مع ذلك راضون عن هذا الوضع ، مستريحون له ، فما أهون شأنهم ، وما أصغر أمرهم ، وما أحقر نفوسهم .

ولم يزل هذا الخلق فى الأغنياء المترفين ــ كما كان منذ بدء الخليقة ــ ينكلون عن الجلى ، ويجبنون عن اقتحام أى معركة ، تشبثا بأذيال المـال ، وحرصا على النعيم الواسع الذى يعيشون فيه ولم يعرف تاريخ الكفاح فى الشعوب الا أولئك الذين لم تغمرهم النعم ، ولم يخدر أعصابهم التـرف ، وربما و جدفى التاريخ أبطال من ذوى الغنى واليسار ، ولكن هؤلاء ــ مـع قلتهم ــ لم يكونوا من المترفين .

وهذا بديهى لأن المترف الذى لم يعرف الا الجانب اللين من الحياة لا يستطيع بطبيعته المنحرفة أن يصبر على الجانب الخشن منها ، وبلواه الكبرى أنه لابد مضطر الى هذا الجانب يوما ما ، لأن الحياة فيهـا الحلو والمـر ، واليسر والعسر ، وحينئذ يدرك جناية الترف عليه فى خاصة نفسـه قبل أن يدركه على مجتمعه .

وهو كذلك لا يزن الأمور بميزانها الصحيح، ولا يقدر كبريات المكارم قدرها ، لأن تفكيره كله منحصر فى جانب واحد من أخلاق الحياة، فلا تجذب نفسه العظائم ، وبالتالى لا يرى من السداد أن يكافح فى سبيلها ، وقد صدق الشاعر العربى عروة بن الورد حين قال :

لحا الله صعلوكا اذا جن ليله ... مصافى المشاش آلفا كل مجزر (١)
يعد الغنى من نفسه كل ليلة ... أصاب قراها من صديق ميسر
ينام عشاء ثم يصبح نائما ... يحت الحصى عن جنبه المتعفر (٢)
يعين نساء الحى ما يستعنه ... ويمسى طليحا كالبعير المحسر (٣)
ولكن صعلوكا صفيحة وجهه ... كضوء شهاب القابس المتنور
مطلا على أعدائه يزجرونه ... بساحتهم زجر المنيح المشهر (٤)
اذا بعدوا لا يأمنون اقترابه ... تشوف أهل الغائب المتنظر (٥)
فذلك ان يلق المنية يلقها ... حميدا ، وان يستغن يوما فأجدر

وأوضح من هذا الشعر فيما نحن بصدده ، من خور العزيمة عند المترفين قول حاتم الطائى :

ولن يكسب الصعلوك حمدا ولاغنى ... اذا هو لم يركب من الأمر معظما
لحا الله صعلوكا مناه وهمه ... من العيش أن يلقى لبوسا ومطعما
ينام الضحى حتى اذا نومه استوى ... تنبه مثلوج الفؤاد مورما (٦)
مقيما مع المثريين ليس ببارح ... اذا نال جدوى من طعام ومجثما
ولله صعلوك يساور همه ... ويمضى على الأحداث والدهر مقدما (٧)
فتى طلبات لا يرى الخمص ترحة ... ولا شبعة ان نالها عد مغنما (٨)
اذا ما رأى يوما مكارم أعرضت ... تيمم كبراهن ثمت صمما (٩)

---

(١) الصعلوك : الفقير . المشاش / كل عظم هش دسم .
(٢) ينام عشاء : اى لدناءة همته ، والعفر : التراب .
(٣) المحسر ـ بصيغة اسم المفعول ـ المعيى ، وكذلك الطليح .
(٤) المنيح ـ على وزن فعيل ـ من قداح الميسر التى لا انصباء لها .
(٥) تشوف : ترقب (والقصيدة فى ديوان الحماسة ج ١ ص ٣٩٣ شرح التبريزى) .
(٦) المورم : الضخم من الرجال .
(٧) يساور : يواثب .
(٨) الخمص : الجوع .
(٩) تيمم : قصد .

ويغشى اذا ما كان يوم كريهة صدور العوالى فهو مختضب دما
فذلك ان يهلك فحسنى ثناؤه وان عاش لم يقعد ضعيفا مذمما

والله سبحانه وتعالى يقول : « وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون . قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا انا بما أرسلتم به كافرون »

تقليد للآباء ، وكفر بما جاء به الرسل ، وليس السر فى ذلك الا أن الايمان يدعوهم الى الحياة الجادة ، وهم حريصون على حياتهم الرخوة المريضة .

ومن شأن الترف أن يحدث اضطرابا فى الأعصاب لأن انهماك المرء فى الملذات ، واعطاء النفس كل حظوظها ، وشهواتها يبطل عمل الارادة ، ويجعل الانسان عبدا لشهوته (والنفس راغبة اذا رغبتها) ، قالت احدى صحف التربية بأمريكا : ان نسبة حوادث الانتحار بين المراهقين الأمريكيين تتزايد بصورة مستمرة ، وانها أصبحت تقع بمعدل حادثين فى اليوم الواحد ، وقالت ان سبب هذه الزيادة يرجع الى حدة الصراع الذى يدور فى داخل نفوس المراهقين .

وقد علل بعض الكاتبين هذه الظاهرة بالترف الذى يعيش فيه الناس فى أمريكا ، فهم كما قال أحد رجال التربية عندهم ــ يريدون المال ، ويحصلون عليه بسرعة ، وينفقونه بسرعة ، كل ما يريده الشباب هو وسائل الترف والراحة ، ان الشباب بلا غد ، وشباب بلا غد ولا أمل ولا حنان دافىء ، ولديهم الترف والمتعة ، والثروة لابد أن تصيبهم الاضطرابات النفسية ، وبخاصة فى سن المراهقة .

ان مشكلة الوفرة شبيهة بمشكلة القلة ، الغنى الشديد ، كالفقر الشديد كلاهما مجلبة للفساد ، الأول فساد الامتلاء ، والثانى فساد الفراغ .

ولو أن هؤلاء الشباب دعوا الى أن يدافعوا عن الوطن وكان الخيار فى أيديهم لكان شأنهم شأن أولئك الذين كانوا فى عهد الرسول ، و (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) وهذا بعض نكبة المجتمعات ، والأمم بهؤلاء

المترفين ، فانهم ـ مع ضعفهم وتخاذلهم ـ سبب البلاء ، ومنبع الفساد ، حين يضلون السبيل ، يشيع الغنى فى بلد من البلدان ، ويكثر فيهم الترف ، ويسكت الآخرون فلا ينكرون عليهم ، فيعمهم الله بنقمته ، وهذا مصداق قوله تعالى : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

وقد وصف الله عباده المؤمنين بالاعتدال ، فقال « والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » . والاعتدال حسن فى كل شىء ، وهو السمة الأصلية للاسلام ، بل هو السمة المعروفة للفضائل منذ عرف الناس الفضيلة ..

وقد جاء بعد الآية التى افتتحنا بها هذا الفصل قوله تعالى : « و لاتجعل يدك مغلولة الى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » .

وفيها النهى عن الاسراف ، كما ابتدئت بالنهى عن البخل ، فان الصفتين فى الذم سواء،وتتيجتهما واحدة،وهى أن يصير الانسان مذموما عند الله والناس وأن يصبح نادما على ما فرط منه ، وهذا ظاهر فى المبذر ، كما أن الأول ظاهر فى البخيل ، ولكن الناس لا يعفون المسرف من اللوم ، والبخيل لا يعفى نفسه من الندم ، ولا سيما ، اذا رأى الناس يذمونه ، ويحتقرونه ، ويكرهون صحبته .

٢٥ـ أكل الأموال بالباطل .

وقد نهى القرآن الكريم عن أكل الأموال بالباطل ، لأن المال عدل الروح،فمن اعتدى على مال انسان فكأنما اعتدى على نفسه ، ولا شىء أعمق أثرا سيئا فى النفس من شعورها بالظلم . لا سيما اذا كان ظلما من قادر لا يستطيع المظلوم أن يدفعه عن نفسه ، فلا يملك الا أن يدع الحقد يتغلغل فى أعماق قلبه ، ويسمح للبغضاء أن تستبد بمشاعره ، والحقد ، والبغضاء شعوران كريهان ، اذا تفشيا فى جماعة ، أو تمكنا من أفراد أمة كان مصيرها الى التفكك والانحلال .

والظلم من القادر ــ فوق ما يتركه فى النفوس من حقد وبغضاء ــ يجعل الانسان ــ متربصا الدوائر بأخيه الانسان ، فيفرح اذا ناله مكروه ، بل هو يترقب ، وفى شوق ولهفة ، أن ينزل به من أحداث الدهر ما لا يطيق ، ولعل من أيسر النصائح ، وأردئها تلك التى يتضمنها هذا البيت :

فقبل يد الجانى التى لست قادرا على قطعها ، وارقب سقوط جداره

وحب العدل ، وتوقع الانصاف من الآخرين من المشاعر النفسية ، الأصيلة فى النفس ، الموائمة لطبيعتها ، المتفقة مع فطرتها السليمة .

وكراهة الظلم ، وبغض التعدى على ما يحرص عليه الانسان من نفس أو مال أو عرض أو عقل أو دين من طبيعة النفس البشرية أيضا .

فحين ينهى القرآن عن أكل الأموال بالباطل ، وحين يأمر أن يحترم كل انسان مال الآخرين ، وأعراضهم ، انما يتمشى ــ فى ذلك ــ مع الفطرة التى فطر الله الناس عليها .

قال تعالى فى سورة البقرة : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون »

وقال سبحانه فى سورة النساء : « يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عن تراض منكم ، ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيما » .

وقد اتفقت الآيتان فى النهى عن أكل الأموال بالباطل ، والباطل هو كل أمر مضاد للحق ، ومن ذلك الربا ، والغش ، والغصب ، والرشوة ، ونحوها .

وانما أجمل القرآن ولم يفصل ، لأن الباطل معروف ، وليتحرز المسلم من كل ما يتوهم فيه باطلا ، فلا يأخذه ، ولذلك قيل : ما أيسر الورع ، اذا رابك أمر فدعه.

وفى الآية الأولى النهى عن الادلاء بالأموال الى الحكام ، وهذا يحتمل وجهين من التفسير : الأول : أن يكون المراد النهى عن رفع المنازعات الى الحكام ــ مع العلم بأن وسيلتها الباطل ــ ليكون أخذها عن طريق القضاء

آكد ، أو ليرفع القضاء شبهة الحرمة عنها ـ كما يتوهم بعض ضعاف النظر والدين ـ فان حكم الحاكم لا يحل حراما ، وكل ما أخذ عن طريق الحيلة فى الدعوى ، والقدرة على الادلاء بالحجة ، واظهار الباطل فى مظهر الحق ، فهو حرام ، بل هو قطعة من النـار ، كما قال النبى صلى الله عليـه وسلم : (انما أنابشر ، وأنتم تختصمون الى ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا ، فلا يأخذه ، فانما أقطع له قطعة من النار) .

حتى لو كان فى الأمر شبهة ، على المسلم أن يحاول الوصول الى حقه بالطريق السلمى ـ أولا ـ ولا يلجأ الى التقاضى الا عند اليأس من الوصول الى حقه ، وذلك لأن الادلاء الى الحكام فى كل مادق وجل ممـا يؤدى الى التقاطع والتدابر ، ومما يحل الشحناء والعداوة محل المودة والصفاء ، وربما حمل هذا بعض الناس الى أن يلجأ الى وسائل غير كريمة لأنه يبغى الغلب والفوز ، وفى ذلك من خسران الدين والمروءة ما فيه

الثانى : أن يكون معنى الادلاء التوصل ببعض هذه الأموال الى حكام السوء على وجه الرشـوة ، وهو أمر قديم ،وقد فشا واستشرى داؤه ، فى عصرنا الحديث ، ولذلك فسنخصه ببعض المقال ولما نرى فيه من افسـاد للطبيعة البشرية ، وتدنيس للفطر الطاهرة النظيفة .

وفى الآية الثانية استثناء التجارة من النهى عن أكل الأموال بالباطل ، وهو استثناء منقطع ـ على ما يرى جمهـور المفسرين ، ومعناه الحث على التجارة لكسب العيش ، ولتوفير الثروة ، فان الشأن فيها أن تكون عن تراض من الطرفين ، وقد نص فى الآية على (التراضى) اشارة الى الأساس الذى لا تحل التجارة الا بمقتضاه ، وتنبيها على ما يحرم من ذلك ، حين يدخلها الخداع والغش .. وما اليهما مما يلجأ اليه بعض التجار ليستولى على مال المشترين بغير وجه حق .

وفيها عطف النهى عن قتل النفس على النهى عن أكل الأموال بالباطل وهى اشارة من القرآن الى أن المال والنفس متعادلان ، وأن الاعتداء على أحدهما يشبه الاعتداء على الآخر .

أما اضافة الأموال ، والأنفس الى الجماعة ، فسرها ـ كما ذهب اليه كثير من المفسرين ـ الاشعار بوحدة الأمة ، وتكافلها ، وأن الاعتداء على مال فرد من أفرادها ، أو على نفسه هو اعتداء على الجماعة كلها ، لأن فى ذلك توهينا لقوة الأمة ، واعتداء على كرامتها ـ وقد أشرت الى ذلك فيما سبق

فكل فـرد كأنه عين الآخر ، وجنايته عليه جناية على نفسه من جهة ، وجناية على جميع الأفراد من جهة أخرى ، بل علمنا القرآن ـ كما يقـول بعض المفسرين ـ أن جناية الانسان على غيره جناية على البشر كلهم بقوله عز وجل : « من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا » .

٢٦ـ الرشوة

فى الأمم معاول هدامة كثيرة ، لا يخطئها النظر السطحى ، فكل رذيلة من شأنها أن تعوق تقدم الأمة ، وأن تجعل الثقـة مفقودة بين أبنائها ، هى معول هدام وسوس نافذ ينخر فى عظمها ، حتى يوردها موارد الهلكة ، ما لم يتداركها الله بعنايته فيقيض لها من أبنائها المخلصـين من يضرب على أيدى العابثين .

ولعل الرشوة من أخطر المعاول التى تعمل فى هدم الأمم ، وهى ـ كذلك ـ من الرذائل التى تدل على دناءة النفس ، وسقوط المروءة ، وضعف الدين ، كما أنها ـ ولا شك ـ شهادة صريحة على أن الفرد لا يعمل للمجتمع ، ولا يهتم بشأنه ، وأنه لا يدرك حق الأمة عليه ، وأن ضميره الاجتماعى ضمير ميت .

ومما تكاد النفس تتقطع له أسى وحسرة أن الرشوة لا تزال عند كثير من الناس ـ لا فى شعبنا فحسب ، بل فى شعوب كثيرة أتيحت لى زيارتها ـ أمرا متعارفا مقبولا .

وليس أدل على ذلك من أن الجمهور قد وقر فى نفسه أن صاحب الحق لا يجد وسيلة للوصول اليه ـ فى كثير من الأحيان ـ الا اذا قدم رشوة لمن يملك ايصال هذا الحق اليه .

وليست هذه البلوى فى أوساط الموظفين ، فحسب بل هى ــ مع كل أسف ــ شائعة فى كل وسط من الأوساط ، ما دام هناك صاحب حق ، ومن يملك اعطاء هذا الحق أو منعه .

وقد أحسنت حكومة الثورة فى الجمهورية العربية المتحدة أيما احسان حين شددت العقوبة على المرتشين ، ولكن القانون وحده لا يكفى فى القضاء على رذيلة من الرذائل ، بل لابد من يقظة الضمير الدينى عند الأفراد والجماعات .

والرشوة على أى وجه من وجوهها سحت ، ودناءة ، سواء كانت ما لا يدفع فى سبيل ايصال حق لصاحبه ، أو فى سبيل منع حق عن مستحقه ، أو مالا يدفع بعد أن يقوم من عليه أداء هذا الواجب بأدائه ، أو كانت فى صورة هدية لهذا الغرض أو ذاك .

ولقد حدث أن بعث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ واليا على صدقات بعض القبائل ، فلما جاء هذا الوالى الى رسول الله أمسك بعض ما معه ، وقال : هذا لكم ، وهذا لى هدية ، فقال له عليه الصلاة والسلام : (ألا جلست فى بيت أبيك ، وبيت أمك حتى تأتيك هديتك ، ان كنت صادقا ، ثم قال : مالى أستعمل الرجل منكم ، فيقول : هذا لكم ، وهذا لى هدية ، ألا جلس فى بيت أمه ليهدى له ، والذى نفسى بيده لا يأخذ منكم أحد شيئا بغير حق ، الا أتى الله يحمله) .

وهذا أبلغ زجر ، وأشد تحذير ، وقد صاغه الرسول فى صورة منفرة رادعة مهينة للمرتشى : (ألا جلس فى بيت أمه ؟!) ، هذه الأم التى لا يفكر أحد فى أن يهدى لها ، ولا لمن يجلس فى بيتها شيئا .

ثم أبان عن لون من ألوان العقوبة على هذا الذنب ، ذلك أن صاحبه يأتى يوم القيامة ، يأتى ربه ، وهو يحمل فوق ظهره ما أخذه ، وكفى بهذا اهانة ، وخزيا .

والرشا تجعل الأعمال فوضى ، فصاحب الحق ربما تعذر عليه الوصول الى حقه ، والمبطل يستطيع ــ بسهولة ــ ان يفوز بباطله ، ما دام يملك الوسيلة التى تجعله صاحب حق .

ومن هنا تملأ الأحقاد نفوس الناس ، وتنتشر بينهم البغضاء ، فطبيعى أن كل صاحب حق اذا لم يصل الى حقه حتى يبذل فيه ، فانه يرى فى الموظف، أو العامل مغتصبا ، ومتحكما ، ولا ينظر اليه الا بعين الساخط المبغض ، ولولا الخوف من الدين أو من القانون لبطش به .

ثم هذه الرشا تعطل القوانين ، وتجعلها حبرا على ورق ، ولا أثر لها الا فى اللوائح والدساتير أما فى نفس العامل ،أو فى واقع الأمر فهى وهم وخيال وحسبنا بهذا فوضى فى أعمال الأمة ، ونهضتها ، وتقدمها .

وان أمة تتقطع بين أبنائها أواصر المحبة ، وتنعدم بينهم الثقة ، وتسود فى صفوفهم البغضاء لأمة مسكينة ، توشك ــ ان استفحل الداء ــ أن تنهار

وما أبلغ قول الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأقربه الى أن يسود التعاطف والحب بين الناس ، وأن تستقر أمور الأمم على وضع سليم ، وذلك حيث يقول : (اجعلوا الناس فى الحق سواء ، قريبهم كبعيدهم ، واياكم والرشا ، والحكم بالهوى ، وأن تأخذوا الناس عند الغضب ، فقوموا بالحق ولو ساعة من نهار) .

ومما هو واضح ، لا يحتاج الى برهان أن النفس مجبولة على حب الخير ، وأنها مجبولة ــ كذلك ــ على حب من يوصل هذا الخير اليها ، فاذا سمحت نفس العامل أو الموظف بقبول الرشوة ، أو أخذ الهدية ، مالت ــ بطبيعة الحال ــ الى الراشى ، أو المهدى فينظر المرتشى ــ حينئذ ــ الى حاجة الراشى نظرة أخرى ، فيعمل جاهدا على انجازها ، ويحتال على القانون ليجد لها منفذا ، ان سدت المنافذ ، ولا يقلق ضميره اذا أضر بالآخرين ، أو عطل مصالحهم ، بل لا يعنيه عدل ، ولا انصاف .

ولقد حدثوا أن بعض قضاة (المهدى) الخليفة العباسى جاءه يوما وهو خال ، فاستأذن عليه ، فلما دخل طلب منه أن يعفيه من القضاء ، وأن يقيله من ولايته ، فظن الخليفة أن بعض الولاة عارض هذا القاضى فى حكمه ، فقال له ان كان عارضك أحد لننكرن عليه ، فقال القاضى : لم يكن من ذلك شىء ، قال المهدى : فما سبب استعفائك من القضاء ؟ قال : ياأمير المؤمنين ، كان

تقدم لى خصمان منذ شهر ، فى قضية مشكلة ، وكل يدعى بينة وشـهودا ، ويدلى بحجج تحتاج الى تأمل وتثبت ، فرددت الخصوم ، رجاء أن يصطلحوا فسمع أحدهما أنى أحب الرطب ، فعمد فى وقتنا هذا ــ وهــو أول أوقات الرطب ــ فجمع رطبا لا يتهيأ فى وقتنا جمع مثله لأمير المؤمنـين ، وما رأيت أحسن منه ، ورشا بوابى بدراهم على أن يدخل الطبق على ، فلما أدخله على أنكرت ذلك ، وطردت بوابى ، وأمرت برد الطبق ، فرد عليه ، فلما كان اليوم تقدم الخصمان الى فما تساويا فى عينى ولا قلبى .

فهذا يا أمير المؤمنين ولم أقبل ، فكيف يكون حالى لو قبلت ؟!

ولا آمن أن تقع على حيـلة فى دينى ، فأهلك ، وقد فسـد الناس ، فأقلنى يا أمير المؤمنين أقالك الله ، وأعفنى ، عفا الله عنك .. فأقاله .

وعلى ذكر القضاة ، وتحرزهم ، يطيب لى أن أذكر أن بعض قضاة مصر فى العصور الأولى ، لما ولى القضاء ، دعا امرأته وقال لها : كيف علمت محبتى لك ؟ قالت : جزاك الله من عشير خيرا ، قال قد علمت ما بلينا من أمر الناس كلهم .. فأنت الطلاق ، فصاحت فقال : ان كلمتنى فى خصم ، أو ذكرتنى به، قالوا : فان كانت لترى دواته قد احتاجت الى الماء ، فلا تأمر بها أن تمد ، خوفا من أن يدخل عليه فى يمينه شىء .

٢٧ــ منطق الغنى

البشرية المنحرفة من قديم الزمان ــ حين تفضل ــ تجعل الفضل كله للمال والجاه ولا ترى لانسان كرما ، ولا مرؤة الا اذا كان من أصـحاب القصور ، والضياع أو من كناز الذهب ، والفضة .

وقد عبر عن هذا المعنى الشاعر العربى تعبيرا هادئا ، ساذجا ، ولكنه قوى بارع ، لطيف عميق الدلالة ، بعيد المغزى ، قال الصلتان العبدى :

اذا قلت يومـا لمـن قد ترى　　أرونى السـرى أروك الغنى

فأنت تريد من الناس أن يدلوك على صاحب النفس العالية ، والخلال الحميدة ، ولكنهم ــ بدافع من حماقاتهم ، وغرائزهم المنحرفة ــ يدفعونك أمامهم ، ويرفعون أكفهم ، ويشيرون الى غنى من الأغنياء .

هذا المعنى ، المستولى على النفوس ، الجاثم على الصدور ، الذى لا يكاد يخلو منه مجتمع من المجتمعات ، حتى ولا أسرة من الأسر ، حظى من القرآن الكريم بتصوير واضح بارز ، وجاء فى أكثر من آية .

وقد سيق فى موقف الأمم من أنبيائهم ، أو على وجه الدقة فى موقف أغنياء هذه الأمم من الرسل الذين بعثهم الله ليبلغوا رسالته :

(فنوح) عليه السلام يدعو قومه ألف سنة الا خمسين عاما ، فلا يسمع من أغنيائهم الا السخرية ، والاستهزاء به ، وبمن اتبعه ، ويجابهه الملأ من قومه ، فيقولون له : « ما نراك الا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا ، بادى الرأى ، وما نرى لكم علينا من فضل »

يقول جار الله الزمخشرى : (وانما استرذلوا المؤمنين لفقرهم،وتأخرهم فى الأسباب الدنيوية ، لأنهم ــ يريد الملأ من قوم نوح ــ كانوا جهالا ، ما كانوا يعلمون الا ظاهرا من الحياة الدنيا ، فكان الأشرف عندهم من له جاه ومال كما ترى أكثر المتسمين بالاسلام يعتقدون ذلك ، ويبنون عليه اكرامهم أو اهانتهم ، ولقد زل عنهم أن التقدم فى الدنيا لا يقرب أحدا من الله ، وانما يبعده ، ولا يرفعه بل يضعه ، فضلا أن يجعله سببا فى الاختيار للنبوة ، والتأهيل لها) .

و (موسى) عليه السلام يرسل الى فرعون ، وملئه ، فيلقى آذانا صما وقلوبا غلفا ، ويرتكب فرعون حماقته الكبرى كما يحكى عنه القرآن الكريم : (ونادى فرعون فى قومه ، قال : يا قوم أليس لى ملك مصر ، وهذه الأنهار تجرى من تحتى ، أفلا تبصرون ، أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين ، فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين) .

وهكذا كان شأن جميع الأقوام مع أنبيائهم المال عندهم هو السبب الأول للفضل ، والميزة الكبرى التى ينبغى أن تكون لكل من يدعو الى عمل ، ولو كان نبيا يدعو الى عبادة الله ، والتهوين من شأن المال .

فاذا عبرنا التاريخ الى الملأ من كفار مكة وجدناهم يعجبون أشد العجب لأن الرسالة لم تكن فى رجل من أغنيائهم : (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على

رجل من القريتين عظيم) يعنون ــ على ما ذهب اليه جمهرة المفسرين ــ الوليد بن المغيرة ، وعروة بن مسعود الثقفى وكان الوليد يقول : لو كان حقا ما يقول محمد لنزل القرآن على أو على أبى مسعود الثقفى ، ومناط العظمة عندهم ، وعنده ، الرياسة ، والغنى .

وقد رد عليهم القرآن ردا هادئا ، قويا فسفه أحلامهم ، وعجب من جهلهم ، فالرسالة رحمة ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، وليس من شأنهم ولا فى مقدورهم أن يتحكموا فى رحمة الله : (أهم يقسمون رحمة ربك ؟) .

ولكن هذه ليست أولى جهالاتهم ، وليست أخراها ، فكم لهم مثلها من جهالات : (وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا ، أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا ، انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ، تبارك الذى ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا) .

فهم يعجبون من أن الرسول يتردد فى الأسواق لطلب المعاش ، كأن الرسالة عندهم ملك ، ثم يعجبون من أنه رسول فقير ، لا كنز معه من السماء ولا بستان يأكل منه ، ولكن الرسالة ليست ملكا ، ولكن الرسل السابقين لم يكونوا ملوكا ، ولا ملائكة : (وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق) .

ومصدر كل ذلك عندهم هو اعتدادهم بالمال ، وليس أدل على ذلك من أنهم كانوا دائما يفخرون به ، وقد حكى القرآن الكريم عنهم ذلك : (وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين) والغريب أنهم ظنوا ــ عن جهل وغفلة طبعا ــ أن أموالهم ، وأولادهم تمنعهم من العذاب ، وقد رد الله عليهم : (وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى) . (لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا) .

وهذا الاعتقاد أبعد فى الحمق ، وأدل على الجهل من ظنهم أن الله أعطاهم المال فى الدنيا لمكانتهم عنده : (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين ، نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون) .

ومن اعتقاداتهم العجيبة ، ومنطقهم الغريب ، نتيجة للغفلة التى ترين على قلوبهم من أثر الغنى أنهم يعتقدون أن المال دائم ، وأن الدنيا لن تصيبهم الا بما شاءوا ، وهم بذلك لا يغفلون عن حقائق الكون الكبرى ، فينسون ما هو مشاهد ملموس من تقلب الأزمان ، وتغير الأحوال : فصاحب الجنة الذى ضرب الله به المثل فى سورة الكهف يقول ــ كما حكى القرآن عنه ــ :(وما أظن أن تبيد هذه أبدا) .

وأصحاب الجنة الذين ذكر الله قصتهم فى سورة (ن) كانوا على أتم الثقة أنهم سيجنون ثمار جنتهم ، حتى أقسموا على ذلك ، ولم يخطر ببالهم أن يرجعوا الأمر الى الله : (اذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ، و لايستثنون) .

وقد أسلفنا فى الفصل الثانى أن الانسان يلجأ الى الله ، ويتضرع ، ويظل يدعو ، ويتوسل ما دام محروما ، فاذا أنعم الله عليه أعرض عنه .

ومن هذه النعم التى تطغى ، وتنسى : المال ، فمن منطقهم العجيب أن الله حين يبسط لبعضهم الرزق لا يعترف بفضل الله عليه ، وانما يقول : (انما أوتيته على علم عندى) .

وهى كلمة قالها الأولون ، وقالها الأخيرون ، قالها قارون حين آتاه الله من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة . وقالها أهل مملكة سبأ حين تقلبوا فى النعيم، فكانت بلادهم أخصب البلاد وأطيبها، حتى قيل: لم يكن فيها بعوض ، ولا ذباب ، ولا عقرب ،ولا حية ، ولكنهم قالوا : (ما نعرف لله نعمة) فأنزل الله فيهم : (لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا ...)

وسرى الداء الخبيث الى بعض ضعاف الايمان من المسلمين ، فقالها : هذا ثعلبة بن حاطب يلازم مسجد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حتى يلقب (حمامة المسجد) ثم يراه النبى صلى الله عليه وسلم ــ ذات يوم ــ يسرع الخطى خارجا من المسجد ، فينكر عليه ، فيقول ثعلبة : انى افتقرت ولى ولامرأتى ثوب واحد ، أجىء به الى الصلاة ، ثم أذهب ، فأنزعه لتلبسه

وتصلى به ، فادع الله أن يوسع على رزقى ، فوالذى بعثك بالحق لئن آتانى الله ــ سبحانه ــ مالا لأعطين كل ذى حق حقه ، فيراجعه النبى ، ولكنه يصر وأخيرا يدعو له فيغنتى ، فيدخل الشر فى قلبه ، فيترك الصلاة مع النبى ليلا ثم يترك الصلاة الا من جمعة الى جمعة ، ثم يترك الصلاة معه جملة .

ويشاء الله أن يفتضح أمره ، فيرسل له النبى من يأخذ منــه الزكاة ، فيرفض ويقول : ما هذه الا جزية ، فينزل الله فى شأنه : (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم الى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون . ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب)

لقد تشعب بنا الحديث عن (حب المال) وعن معالجة القرآن الكريم لهذا الأمر الخطير ، فى حياة الافراد ، والجماعات ، والأمم .

ومع ذلك لا يزال للمــال حديث فى القرآن ، وحديث طويل أيضــا ، وسندعه لنعود اليه عند الحديث عن طبائع أخرى من طبائع النفس البشرية ان شاء الله ، فربما كانت المناسبات هناك أقوى ، وأمس .

ولن أستطيع أن أدعى أنى وفيت البحث حقه ، ولا أن كل ما قلته فيه هو الوجه ، ولا وجه غيره ، وانما أستطيع أن أقول انى بذلت جهدى ، وقلت ما ترجح عندى أنه الوجه ، فان كنت أصبت فذلك من الله ، وان كنت أخطأت فالله يغفر لى ويهدينى ــ اذا كانت لى عودة الى هذا الكتاب ــ سبيل الرشد، والصواب .

وهو نعم المولى ، ونعم النصير .

والحمــد لله أولا ، وأخــيرا .

فهرست

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣

القرآن والنفس البشرية

القرآن	١٢
تعرف نفسك	١٣
فطرة الله	١٨
جموح الغرائز	٢٥
تطهير النفس	٣١
ضوابط النفس	٣٤
العقل	٣٥
تربية الارادة	٣٧
العاطفة الدينية	٤٢
القدوة الحسنة	٤٥
القرآن رد العرب الى الفطرة	٥٠

الله فى قلوبنا

اللجوء الى الله فى الشدة طبيعة نفسية	٥٦
الأعراض عن الله فى الرخاء مخالف للفطرة	٥٦
التذكير بالنعم رد الى الفطرة	٥٧
آيات سورة الروم	٥٩

الموضـــوع الصفحة
الآيات التى تحدثت عن خلقى ... ...
الاقبال والاعراض كلها مكية ٦١
أول اشارة الى هـذه الطبيعة فى القرآن ٦٣
أول حديث مباشر عن هذه القضية ٧٠
عود الى تأكيد هذه القضية ٧٧
فرعون يؤمن ٨٣
قوم يونس ٨٦
فذلـكة ٨٨
مس الضر ٨٨
اذاقتـه النعمة ٩٤
اليأس والدعاء العريض ١٠٥
ركوب البحـر ١٠٨
موقف الأقوام السابقين ١١٥
عود الى قوم فرعون ١١٨
بنو اسرائيل ١٢١
لماذا يبتلى الله عباده ١٢٧
ظاهرة التكرار فى القرآن ١٣١
الدعاء والاجابة ١٣٨

حب المـال

حب المال طبيعة بشرية ١٤٦
القرآن يؤكد أن حب المال طبيعة بشرية ١٤٨
ضرورة هذه الغريزة ١٥٣
الغنى الشاكر والفقير الصابر ١٥٥

الموضوع	الصفحة
القرآن لم يحارب طبيعة التملك	١٥٨
الدعوة الى العمل	١٦٠
سؤال الناس	١٦٤
التمتع بالطيبات من الرزق	١٧٠
بين المادة والروح	١٧٩
تهمة مغرضة	١٨٠
نماذج من الزهد	١٨٢
حقيقة الزهد	١٨٤
الدعوة الى جمع المال	١٨٥
روحانية الاسلام	١٨٦
زهد أبي العلاء	١٨٧
وأحضرت الأنفس الشح	١٩٤
قصة أصحاب الجنة	٢٠٥
وعد الله وتخويف الشيطان	٢٠٦
لون آخر من عذاب البخلاء	٢١٠
كل ذى عيب يحب أن يراه فى الآخرين	٢١٢
دفاع عن البخل	٢١٤
الفرد والجماعة	٢١٩
حب الله وحب المال	٢٢٦
اخوان الشياطين	٢٢٨
أكل الأموال بالباطل	٢٣٤
الرشوة	٢٣٧
منطق الغنى	٢٤٠

مؤسسة
دار التحرير للطبع والنشر
(مطابع شركة الاعلانات الشرقية)